بسم الله الرحمن الرحيم

جامعة الجزائر

معهد اللغة والأدب العربي

حسن البحيري

حياته وشعره

أطروحة لنيل درجة الدكتوراه من الحلقة الثالثة

إعداد الطالب : عبيد صبحي محمد عباس

الأستاذ المشرف : الدكتور زكريا صيام

الجزائر

جمادى الآخرة 1405هـ

مارس 1985م

المقدمة

منذ الصغر كان لفلسطين في نفسي وقع خاص ، ولم يكن وقعها آنذاك مقترناً بالنكبة والتشريد والقتال ، بل كانت فلسطين في خيالي صورة لأجمل ما يتخيله الأطفال .

كانت بلادنا فلسطين حاضرة في مجالس أسرتنا ، فاذا وزعت علينا حبات البرتقال ، بدأت جدتي - بشكل تلقائي - تتحدث عن "بيارات"(1) البرتقال في قريتنا ، وعن العمل الذي كان يلزم هذه البيارات .

ويتشعب الحديث فتحدثنا عن أهل قريتنا المتعاونين في أعمالهم أيام مواسم الحرث والبذر والحصاد ، ومواسم جمع الزيتون ، تحدثنا عن أعيادنا وأسواقنا الشعبية ، وعن سمر الشباب على بيادر القرية .

كنت في صباي أسمع كل ذلك فيؤثر في نفسي تأثيراً عظيماً . .

وأتساءل : أين "بيارتنا" الجميلة ؟ وأين بيت العائلة الذي حدثتني عنه جدتي وأمي وأبي ؟ أين أرضنا التي كنا نزرع فيها مانشاء ؟ .

وكبرت وكبرت معي ذكرياتي الصغيرة ، وكبرت معها دلالات حديث الأهل عن أرض الوطن ، فأصبحت لفلسطين في نفسي أبعاد سياسية وتاريخية ، وتحول حب الطفولة إلى حب أشمل له أبعاده ومعاناته ، وتولد في نفسي حب لا حدود له لوطني الأسير وأصبحت أشعر أن أعظم درجات الشرف أن أكون منتسباً له وأن أحظى برضاه .

أصبح الفلسطينيون مشردين منتشرين في بلاد الغربة ، ورأيت الموت يتخطفهم في منافي الاغتراب ، ورأيت الأدباء والمفكرين منهم يخالفون

---

(1) البيارات : اسم شائع في فلسطين يطلق على بساتين البرتقال .

وراء هم أعمالا أدبية جديرة بالاهتمام ، ويطوي الاهمال والنسيان هذه الأعمال الأدبية وسرعان ماينسى الناس أهلها .

وقد رأيت من الواجب علي أن اساهم في الكتابة عن شعراء فلسطين وأدبائها فكانت أطروحتي الأولى عن الشاعر الفلسطيني محمد العدناني - رحمه الله - . وهذه هي أطروحتي عن الشاعر الفلسطيني حسن البحيري - مد الله في عمره - .

لم أكن أتوقع أن يكون البحيري صاحب هذا الانتاج المتنوع في الشعر إذ أن ماقرأته عنه في البداية كان قليلا ولا يوحي بذلك . ولم تتكشف لي الامور على حقيقتها الا بعد أن قمت بزيارته في بيته الكائن بحي المزرعة بمدينة دمشق صيف عام 1980 م وصيف عام 1981م . وأجريت لقاءات كثيرة مع الشاعر . وكان اللقاء يدوم ساعات طويلة ، كنت حريصا خلالها على معرفة حياته الحافلة بالشقاء والجد والفداء . كماكنت حريصا على سماعه وهو يلقي قصائده بانفعال شديد .

كان لمعايشتي له أثر كبير في تكوين انطباعي الخاص عنه ، وتعرفني على شخصيته . وقد كانت هذه المعرفة هي الخلفية لجميع القصائد التي قمت بدراستها على الرغم من تنوع أغراضها ، إذا توفرت عندي مفاتيح القصائد نتيجة هذه المعايشة ، ونتيجة المعلومات التي استقيتها من الشاعر نفسه ، فكانت مضامين القصائد وظلالها واضحة الأبعاد . وقد استندت في هذا الفهم لما كونته من انطباعات عن الشاعر الذي قدم إلي نفسه بعيداً عن زخرفة الادعاء .

والتقيت عند الشاعر بعدد من أقاربه كما التقيت بعدد من أصدقائه منهم الشاعر الفلسطيني "هارون هاشم رشيد" الذي ألف كتاباً قيماً عن الشاعر سماه" حيفا والبحيري"،كما التقيت عدة مرات بصديقه الحميم حسن كتمتو-رحمه الله - ،الذي حدثني عن ذكرياته مع البحيري .

وزرت مع الشاعر ،المؤرخ الفلسطيني الكبير عزة دروزة الذي اثنى على البحيري وعصاميته .

كان لهذه اللقاءات اثر في توسيع محيط معرفتي بالبحيري من خلال الجانب الاجتماعي الذي يساعد في الكشف عن شخصية البحيري والتعرف اليها .

وقد قدم لي الشاعر كل اشعاره المطبوعة والمخطوطة،كما زودني بجميع المقالات التي تحدثت عنه ،وقد قمت بتصوير شعره المخطوط ودواوينه المطبوعة التي نفذت نسخها ،كما صورت جميع المقالات التي تناولت بعض جوانب شعره ،وسجلت على أشرطة ما دار بيننا اثناء اللقاءات حفاظاً على أمانة النقل .

واستمرت الرسائل بين الشاعر وبيني،اذ كان يرسل الي بين الحين والحين ماكتب عنه في الصحف والمجلات ،كما كان يرسل الي كل مايصدر عنه من جديد.كما تفضل الاستاذ الدكتور حسني محمود فأرسل الي بما كتبه عن الشاعر ،وزودني بمقاله المنشور في مجلة شؤون فلسطينية 1 وجريدة الرأي الأردنية 2 . واستعنت في دراستي بعدد من المراجع التي تعرضت لجوانب من شعر البحيري ،كما اطلعت على عدد من

1- عدد رقم 125 ،1 ابريل 1982 م.

2- الاعداد الصادرة بتاريخ 25 يناير ،1-8-15-22 فبراير 1984 م.

المراجع في الأدب الفلسطيني الحديث ،بالإضافة إلى عدد من المراجع التاريخية التي تتناول تاريخ القضية الفلسطينية وحياة الشعب الفلسطيني ثقافيا واجتماعيا .

اخترت أن يكون عنوان أطروحتي : حسن البحيري ،حياته وشعره ، وقسمتها الى تمهيد وثلاثة أبواب . أما التمهيد فقد تعرضت فيه باختصار لما عانته فلسطين وشعبها على أيدي الصهاينة والامبرياليين ، وتحدثت عن جهاد الشعب الفلسطيني وما قدمه من تضحيات،وتعرضت كذلك لحياة الشعب الفلسطيني اجتماعيا واقتصاديا وثقافيا .

قصدت من هذا التمهيد أن تتضح أبعاد المحيط الذي عاش فيه الشاعر لأن معرفتنا بيئة الشاعر ومحيطه ستكون الأرضية التي تتضح من خلالها أبعاد القصائد ومضامينها . أما الباب الاول فخصصته لحياة الشاعر وقسمت هذا الباب إلى ثلاثة فصول ،تحدثت في الفصل الاول عن نشأته وطفولته ،وفي الفصل الثاني عن ظروف حياته ونضاله ، وفي الفصل الثالث تحدثت عن ثقافته وأخلاقه . وتناولت في الباب الثاني أغراض شعره التي حصرتها في خمسة أغراض ،خصصت لكل غرض منها فصلا ،فتناولت في الفصل الاول شعر الطبيعة ،وفي الثاني شعر الحب وفي الثالث الشعر الوطني ،وفي الرابع الشعر القومي ،وفي الخامس الشعر الديني .أما الباب الثالث فقد قسمته الى فصلين ،تناولت في الفصل الاول منهج الشاعر ومدرسته ،وفي الفصل الثاني الجوانب الفنية في شعره . وقد تعرضت في هذا الباب الى الآراء التي قيلت

في البحيري ، فاتفقت مع بعضها وفندت بعضها الآخر ، مستندا في ذلك الى المعلومات والنصوص التي توفرت لدي ، و مستندا كذلك الى دراستي الميدانية ، و معرفتي المباشرة للمشاعر التي كان لها أثر كبير في هذا البحث .

وكان للتوجيهات القيمة التي قدمها إليّ الأستاذ المشرف الدكتور حامد حفني داود - رحمه الله - والأستاذ المشرف الدكتور زكريا صيام أثر كبير في منهجية هذا البحث و ماتوصلت اليه من نتائج .

و قد حاولت قدر المستطاع توخي الحقيقة ، وأرجو من الله أن أكون قد وفقت في ذلك ، فهو حسبي ونعم الوكيل .

تمهيد

موقع فلسطين وحدودها :

فلسطين جزء من بلاد الشام وتحتل الجزء الجنوبي الغربي منها ، وتقع في غربي قارة آسيا على الساحل الشرقي للبحر المتوسط ،كما تقع عند ملتقى القارات الكبرى الثلاث آسيا وأوروبا وأفريقيا ، ويعطيها هذا الموقع أهمية كبيرة .

وتقع فلسطين شمالي خط الاستواء بين خطي عرض 30 29 درجة و 15 33 درجة شمالا ، وبين خطي طول 15 34 درجة و 40 35 درجة شرقا . 1

ويحد فلسطين من الغرب البحر الابيض المتوسط على ساحل طوله 224 كيلومترا ، ومن الشرق سورية ويبلغ طول الحدود بين القطرين 70 كيلومترا ، والأردن على حدود طولها نحو 360 كيلومترا ، ومن الشمال الجمهورية اللبنانية على حدود طولها 79 كيلومترا . ومن الجنوب سينا وخليج العقبة ، ويبلغ طول الحدود المصرية الفلسطينية بين رأس طابا على خليج العقبة ورفح على البحر الابيض المتوسط نحو 240 كيلومترا ، هذا وطول الساحل الفلسطيني الواقع على خليج العقبة عشرة كيلومترات ونصف الكيلو متر . 2

وتقع فلسطين في مكان متوسط بالنسبة للوطن العربي الذي يمتد من المحيط الاطلنطي غربا حتى الخليج العربي شرقا ، وهي

1- فلسطين الموقع ومظاهر السطح - منظمة التحرير الفلسطينية مركز التخطيط ط2- بيروت 1979 ص 5 .

2- بلادنا فلسطين - مصطفى مراد الدباغ الجزء الاول القسم الاول - منشورات دار الطليعة بيروت، ط2 1973 ص15 ، 17 .

نقطة اتصال القسم الآسيوي من الوطن العربي بقسمه الافريقي ، وفلسطين ملتقى قارتي آسيا وأفريقيا ،كما انها في مركز متوسط بالنسبة لأوروبا1

مساحتها وأراضيها و مناخها :

تبلغ مساحة فلسطين حوالي 27009 كيلومترات مربعة . من هذه المساحة 704 كيلومترات مربعة مساحة بحيرة الحولة وحيرة طبرية و نصف مساحة البحر الميت. 2

وأراضيها : سهول في الساحل والداخل وجبال في الوسط ممتدة من الشمال إلى صحراء الجنوب (النقب) ،وأغوار على طول ضفة الاردن الغربية ممتدة من أعالي النهر حيث منخفضات الحولة ، الى أغوار طبرية، ثم الى غور بيسان،فغور أريحا فملتقى النهر بمصبه في البحر الميت،حيث يبلغ الغور أعمق انخفاض عن سطح البحر في العالم (400) متر.

وفي الجنوب صحراء النقب التي تبلغ مساحتها نصف مساحة البلاد كلها تقريبا ،وهي مراع للبدو الذين يعيشون فيها من أقدم العصور .

وأهم أنهار فلسطين نهر الاردن الذي يكوّن حدا طبيعيا شرقيا يفصل بينها وبين الأراضي السورية والأردنية . وزراعتها تعتمد على مياه المطر وعلى مياه الأرض الجوفية . و مناخها في الجبال بارد في الشتاء لطيف منعش في الصيف. وفي الأغوار دافئ شتاء ،وحار جدا في الصيف

1- فلسطين الموقع و مظاهر السطح ص5 .

2- بلادنا فلسطين،مصطفى مراد الدباغ - الجزء الاول القسم الاول ص 21

وفي السهول معتدل البرودة والحرارة صيفا وشتاء . وجميع فلسطين واقعة في المنطقة المناخية المعتدلة ، وتظهر فيها الفصول السنوية الاربعة بوضوح .

ومدنها الساحلية هي : عكا وحيفا ويافا والمجدل وغزة وخان يونس . ومدنها الداخلية في السهول هي : الرملة واللد وطولكرم وقلقيلية وجنين والناصرة . ومدنها الجبلية هي : صفد ونابلس ورام الله والبيرة والقدس (عاصمة البلاد) وبيت لحم والخليل .

ومدن الاغوار هي : طبرية وبيسان وأريحا . ومدينة الصحراء الجنوبية وحاضرتها بئر السبع . "1"

1- الشعر الفلسطيني في نكبة فلسطين - د . عبد الرحمن الكيالي- المؤسسة العربية للدراسات والنشر ط1 . بيروت 1975 ص26-27 .

فلسطين فريسة الاستعمار والصهيونية :

كانت فلسطين كبقية بلاد الشام

تحت حكم الاتراك ، وقد بذل هرتزل زعيم الصهاينة جهودا مضنية من أجل أن يسمح السلطان التركي عبد الحميد لليهود بأن يسكنوا أرض فلسطين وأن يتجمعوا فيها مقابل أن يقوم اليهود بانشاء أسطول عثماني بري ، ومساعدة السلطان في سياسته الادارية ، وإنشاء جامعة عثمانية في بيت المقدس تغني عن الذهاب الى أوروبا ، والمساعدة في المشروعات العمرانية ، وأن يعقدوا له قرضا ماليا يكفي لتنفيذ المشروعات المقررة 1.

رفض عبد الحميد هذا العرض رفضا قاطعا لمعرفته بالنوايا الصهيونية ، وقد جاء في رده على هرتزل : إني لا أستطيع أن أتخلى عن شبر واحد من الأرض فهي ليست ملك يميني ، بل ملك شعبي . لقد ناضل شعبي في سبيل هذه الأرض ورواها بدمه . . ان عمل المبضع في بدني لأهون علي من أن أرى فلسطين قد بترت من امبراطوريتي وهذا أمر لا يكون . اني لا أستطيع الموافقة على تشريح اجسادنا ونحن على قيد الحياة 2.

نتيجة لهذا الموقف الحاسم الذي وقفه السلطان عبد الحميد عام 1901 م اتجهت الجهود الصهيونية الى أطراف أخرى تحاول عن طريق حمايتها الوصول الى فلسطين . وقد كانت بريطانية وهي صاحبة المصالح في منطقة الشرق الاوسط أكثر الدول اندفاعا في التجاوب مع الأماني

1- جهاد شعب فلسطين - صالح مسعود بويصير - دار الفتح للطباعة والنشر ط1 سنة 1968 ص30

2- المصدر السابق ص31 .

الصهيونية المتمثلة في تجميع اليهود في فلسطين ،بل ان بريطانيا وقبل تفكير الصهاينة في أرض فلسطين ،وقبل انعقاد مؤتمرهم في "بال" عام 1897 م،كانت قد أقامت اول قنصلية غربية في القدس عام 1839 م ، وجهت معظم جهودها و نشاطها لحماية الجالية اليهودية في فلسطين . . ولقد كان هدف بريطانيا استقدام جاليات يهودية لأسباب ودوافع استعمارية . 1

وقد زادت أهمية فلسطين في نظر بريطانيا بعد افتتاح قناة السويس وكتب"ل .س. امري"من وزارة الحربية البريطانية والذي أصبح فيما بعد وزيرا للمستعمرات مذكرة أكد فيها أن فلسطين و مصر تسيران من الوجهة الاستراتيجية معا . ففلسطين ليست حاجزا ضروريا أمام قناة السويس وحسب ،بل ان أي دفاع عن قضية فلسطين تكون قاعدته الرئيسية من الناحية الاخرى في القنطرة . . وفلسطين جغرافيا وعمليا تقع في قلب الامبراطورية البريطانية .

وقد جاء في مذكرة أعدها أركان الحرب في وزارة الحربية البريطانية أن اقامة دولة يهودية حاجزة في فلسطين -على الرغم من انها ستكون دولة ضعيفة بذاتها- هي من الناحية الاستراتيجية شيء مرغوب فيه بالنسبة لبريطانيا العظمى .2

لهذا وجد الصهاينة ترحيبا من الحكومة البريطانية ،وعطفا على أمانيهم لأنها تتفق مع مخططها الاستعماري الهادف إلى تأمين مصالحها . وقد كان تحطيم الدولة العثمانية هدفا أساسيا من أهداف بريطانيا وفرنسا

1-تاريخ فلسطين الحديث - دكتور عبد الوهاب الكيالي- المؤسسة العربية للدراسات والنشر ط3 سنة 1973 م ص27.

2- المرجع السابق ص118 .

في الحرب العالمية الاولى . وعندما تم ذلك تنكرت بريطانيا الوعود التي قطعتها على نفسها للشريف حسين ، والقاضية بضمان استقلال العرب تحت زعامته ، بينما التزمت بريطانيا بوعد "بلفور" الصادر عنها والذي ينص على "أن حكومة جلالة الملك تنظر بعين العطف إلى إقامة وطن قومي في فلسطين للشعب اليهودي ، وسوف تفرغ خير مساعيها لتسهيل بلوغ هذه الغاية . . "1"

وقد وصف "ونستون تشرشل" وزير الدولة البريطاني للمستعمرات وعد بلفور بأنه تدبير عملي اتخذ في سبيل قضية مشتركة "2" وحتى تستطيع بريطانيا الوفاء بما قطعته على نفسها للصهاينة بذلت جهودها من أجل أن تكون فلسطين من حصتها . وفي 25 ابريل سنة 1920م انعقد المجلس الأعلى للحلفاء في سان ريمو بايطاليا وقرر وضع سورية ولبنان تحت الانتداب الفرنسي ، ووضع العراق وفلسطين تحت الانتداب البريطاني ، على أن تلتزم بريطانيا بتنفيذ وعد بلفور "3" على الرغم من التناقض الواضح بين فرض وعد بلفور على الشعب الفلسطيني وبين حق هذا الشعب بتقرير مصيره وسيره نحو الاستقلال بموجب ميثاق عصبة الامم ، وبموجب وعود الحلفاء المقطوعة بهذا الصدد "4"

وقبل صدور صك الانتداب أصدرت بريطانيا تعليماتها الى اليهودي البريطاني "السير هربرت صموئيل" ليساعد على تسوية شؤون فلسطين. وفي السادس من جانفي 1920 م صرح السير هربرت صموئيل أنه ذاهب إلى

1- جهاد شعب فلسطين ص60 .
2- دراسات فلسطينية المجلد رقم 1 ص20 من مقال بقلم سامي الهداي .
3- الشعر العربي الحديث في مأساة فلسطين د . كامل السوافيري- مكتبة نهضة مصر ط1 سنة 1964م ص83 .
4- تاريخ فلسطين الحديث ص155 .

فلسطين لاتخاذ مشروعات، وتنفيذ أوامر حكومته لإنشاء وطن قومي اليهود في فلسطين ."1"

ولم يكن تعيين هربرت صموئيل اول مندوب سام لفلسطين بعيدا عن تأثير الصهاينة ، ويبين ذلك ما قاله الدكتور"وايزمن"زعيم الصهيونية حيث يقول : " كنت مسؤولا بشكل رئيسي عن تعيين السير هربرت صموئيل لفلسطين ،فالسير هربرت صموئيل صديقنا ، وقد تقبل ذلك المنصب الصعب نزولا عند طلبنا . نحن عيناه في ذلك المنصب إنه صموئيلنا ."2

وفي الرابع والعشرين من جويلية 1922 م صدر صك الانتداب ، وحتى نبين مدى مافي صك الانتداب من ظلم وجور نورد ماورد في بعض مواده :

المادة الثانية : تكون الدولة المنتدبة مسؤولة عن وضع البلاد في أحوال سياسية وادارية واقتصادية تضمن انشاء الوطن القومي اليهودي . المادة الرابعة : يجري الاعتراف بوكالة يهودية ملائمة كهيئة عامة لاسداء المشورة الى ادارة فلسطين ، والتعاون معها في الشؤون الاقتصادية والاجتماعية ، وغير ذلك من الامور التي قد تؤثر في انشاء الوطن القومي اليهودي ، ومصالح السكان اليهود في فلسطين .
المادة السادسة : على ادارة فلسطين : . أن تسهل هجرة اليهود في أحوال ملائمة ، وأن تشجع بالتعاون مع الوكالة اليهودية . . توطين اليهود حصرا في الارض، بمافيها من الأراضي الأميرية والازاضي الموات غير المطلوبة المقاصد العمومية ."3

1- جهاد شعب فلسطين ص92 .
2- تأريخ الحركة الصهيونية،د . ألن تايلور - ترجمة بسام ابو غزالة- دار الطايعة بيروت ط1 1966 ص46 .
3- أوراق فلسطين - درويين انغرامز- دار النهار للنشر-بيروت سنة 1972 ص168 .

وأصدرت بريطانيا مرسوم دستور فلسطين في اليوم الرابع عشر من اغسطس 1922م "1"، وقد صيغت مواده بحيث تكفل بشكل كامل تحقيق وعد بلفور بكل مايعنيه هذا الوعد من قهر الشعب الفلسطيني على نحو لا نجد له مثيلا في التاريخ .

واذا كان صك الانتداب لم يبرم الا في جويلية 1922م، فان بريطانيا أصدرت امرها منذ ابريل 1918م الى الادارة العسكرية الحاكمة أن تسمع وتطيع أوامر اللجنة الصهيونية، التي وصلت في ذلك الحين إلى فلسطين برئاسة وايزمن . "2"

وساهمت الولايات المتحدة الامريكية مساهمة فعالة في إخراج الكيان الصهيوني إلى حيز الوجود في فلسطين ،يشهد على ذلك قول الرئيس الامريكي "واسن" في بيانه : " انا مقتنع أن أمم الحلفاء بالاتفاق التام مع حكومتنا وشعبها قد اتفقت أنه في فلسطين سترسى أسس كومنولث يهودي" . "3" بل إن كاتبا يهوديا هو" لند من" يقر أن أمريكا لم تؤيد فقط وعد بلفور ،بل إن دخولها الحرب العالمية الاولى لم يتأكد الا بعد أن أعلن وعد بلفور كثمن لمشاركتها في الحرب الكبرى .

وفي 1922م أعلن الكونجرس الأمريكي قراره الاجماعي الذي أيد فيه وعد بلفور ،وتأسيس وطن قومي لليهود في فلسطين .
وفي 20 سبتمبر 1922م وقع المستر "هاردن" رئيس الولايات المتحدة قرار الكونجرس موافقا على تهويد فلسطين . واثناء المعركة الانتخابية عام 1944م تسابق المرشح الجمهوري :. والمرشح الديمقراطي . . في تأييد

1- جهاد شعب فلسطين ص118

2- المرجع السابق ص87

3- المرجع السابق ص280

القرار اليهودي لانشاء دولة يهودية في فلسطين ."1"

وأرسل"ترومن" رئيس الولايات المتحدة الامريكية كتابا الى"إتلي" رئيس الوزارة البريطانية يطالب ادخال مئة الف يهودي دفعة واحدة الى فلسطين ،وأن تفتح أبوابها دون قيد للهجرة بعد ذلك . وفي الثاني من ديسمبر 1945م اصدر الكونجرس الامريكي في عهد" ترومن" قرارا ثبت فيه تصريح بافور ،وانشاء وطن قومي اليهود في فلسطين . ونهض حكام الولايات المتحدة يسهمون في أذى الامة العربية ونصر الصهيونية فقدم 38 حاكما منهم طلبا الى الرئيس ترومن خلال عام 1946م يطالبون اتخاذ الاجراءات اللازمة لاستمرار الهجرة إلى فلسطين حتى يقيم اليهود فيها دولة لهم . وخلال مناقشات الامم المتحدة عام 1947م كان الوفد الامريكي يحمل لواء الدفاع عن اليهودية وأمانيهم في فلسطين ،وكان من أشد المتحمسين لقرار التقسيم ،وخلق دولة يهودية فيها ."2"

وقد صرح الصحفي"دروبيرسون" بقوله : " ان الرئيس ترومن" لم يسبق أن اتخذ اجراءات أشد صرامة مع وزارة الدولة مثل ما اتخذ معها من أجل السيطرة على التصويت في الامم المتحدة ،وجعله الى جانب تقسيم فلسطين . وصرح وزير الدفاع الامريكي " جمس فوريستال" : " بأن الطرق والاساليب التي استخدمت . في الجمعية العمومية ،قد أوشكت أن تؤدي الى فضيحة " ."3"

ويصف الكاتب " الفرد ايلينتال" وهو يهودي امريكي الطريقة التي تم بها الحصول على قرار التقسيم : " بأن الامم المتحدة قد سددت

1- المرجع السابق ص280

2- المرجع السابق ص281

3- دراسات فلسطينية المجلد رقم1 ص 50 .

لطمة قاسية الى مقام القانون الدولي ،والى المنظمة بتسرعها الطائش وغطرستها في معالجتها لقضية فلسطين ."1"

وليست الصهيونية في نظر الامبريالية الا خادمة لمصالحها لان وجود كيان صهيوني مصطنع في فلسطين كفيل بتمزيق العالم العربي وضرب قواه في كل حين . ولذلك فاسرائيل مشروع امبريالي مربح المحافظة على المصالح الامبريالية . ويرى الكاتب" لابتييف" أن الاقتحام الذي نظمه الصهاينة لفلسطين كان في اساسه عملية امبريالية واسعة مدبرة ضد حركة التحرر الوطني المتزايدة بالعالم العربي . وقد استخدم الامبرياليون فكرة خلق" وطن يهودي" ، لالحاق ضربة بحركة التحرر العربي ولخلق قوة عدوانية مطيعة لهم في المنطقة ."2"

ويرى الكاتب " بوركو تيشنكوود بيف" أن الدعم الاقتصادي والسياسي والعسكري الذي تقدمه الدوائر الاحتكارية الامريكية الى القيادة الصهيونية الاسرائيلية ،يعتبر ثمنا يدفع لاسرائيل "لقاء الدور الذي تلعبه كاًنسب أداة في الصراع ضد حركة التحررالوطني في هذه المنطقة "3"

وقد كتب الرئيس الراحل جمال عبد الناصر في خطابه المرسل الى الرئيس الامريكي " جون كنيدي" عام 1961م :"بأن الاستعمار من ناحيته يستخدم اسرائيل كأداة لفصل الأمة العربية فصلا جغرافيا عن بعضها،وكذلك يستخدمها كقاعدة لتهديد أي حركة تسعى للتحرر من سيطرته ولست في حاجة للتدليل على ذلك الا بتذكيركم بالظروف التي تم فيها العدوان الثلاثي علينا والتواطوء الذي سبقه سنة 1956م"4"

1- المرجع السابق ص49

2- الجوهر الرجعي للصهيونية ص85

3- المرجع السابق ص11

4- بلاد فلسطين الجزء الاول القسم الاول ص386 .

وليس هناك أوضح دلالة على الدور الذي تقوم به اسرائيل خدمة الامبريالية من قول " ستيوارت سيمنجتون" عضو الشيوخ الامريكي الذي يوضح بأن" اسرائيل بالنسبة لنا (لامريكا) حاملة طائرات غير قابلة الغرق"1 كما أن حاييم بارليف الرئيس السابق لهيئة أركان حرب اسرائيل يصف مكانة إسرائيل بالنسبة للولايات المتحدة الامريكية في خطاب القاه بولاية فلوريدا الامريكية عام 1972م بقوله : " إنّ اسرائيل هي الخط الاستراتيجي الأمامي في منطقة البحر الابيض المتوسط ". "2"

أردت من هذا العرض الوجيز أن أبين العلاقة الحميمة بين الصهيونية والامبريالية ، وكيف أن الدول الاستعمارية وفي طليعتها بريطانيا والولايات المتحدة الامريكية سعت بكل طاقتها لخلق اسرائيل . ولو لم تجد الامبريالية في الصهيونية خادما لها لسعت الى خلق خادم بديل . وتمت التجربة الامبريالية على أرض فلسطين التي أصبحت القاعدة الارتكازية للأخطبوط الصهيوني الامبريالي الذي يبطش بالشعب الفلسطيني طوال ثلاثين عاما قبل أن يعمد الى اقتلاع هذا الشعب من وطنه وطرده بالقوة إلى منافي الاغتراب .

---

1 . 2- الصهيونية بين الدين والسياسة- عبد السميع الهراوي - مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة 1977 ص 384

جهاد الشعب الفلسطيني أثناء الانتداب البريطاني :

انتهت الحرب العالمية الاولى ، ووقعت فلسطين في قبضة القوات العسكرية البريطانية ،ثم أصبحت بريطانيا منتدبة على فلسطين بشكل رسمي عام 1922م كما أسلفنا .

ومنذ استولت بريطانيا على فلسطين خلال عام 1918م بدأت تنفذ برنامج تسليم فلسطين لليهود . ولعلها كانت تعتقد أن سكان فلسطين العرب من السهولة والسذاجة حتى انهم لن يقيموا أمامها العراقيل ، وأن برنامج التهويد سوف يمر في سلام . ولكن الثورة العربية في ابريل سنة 1920م ، واحتجاجات العرب الدائمة ، ... ومظاهراتهم المتكررة وفي كل مناسبة ضد وعد بلفور وسياسة التهويد ، أشعرت بريطانيا أن الامر ليس من السهولة التي تتصورها"[1]

وقد عمدت بريطانيا إلى تهويد أجهزة الحكم ، وفتح أبواب المناصب لليهود برغم قلة عددهم .. ولم تبق دائرة الا ويرأسها يهودي ، أو يساعد مديرها البريطاني يهودي آخر ،"[2] كما فتحت أبواب فلسطين للهجرة اليهودية وفق تخطيط مسبق مدروس مع الحركة الصهيونية ، وقد أدى هذا الى زيادة مضطردة في عدد ... اليهود . وقد قدر العثمانيون سكان فلسطين في عام 1914م ، العام الذي أعلنت فيه الحرب العالمية الاولى بـ 689275 نسمة ، 8٪ منهم من اليهود .. وفي مارس من عام 1947م قدر عدد سكان البلاد بنحو 1933673 نسمة ..

1- جهاد شعب فلسطين ص 95 .

2- المرجع السابق ص 97 .

بينهم 614239 يهوديا ، وهذا يعادل 31٪ من مجموع السكان ، وفي آخر احصاء للاعداء أن عددهم بلغ عند نهاية الانتداب حوالي 650000 ، الا أن معظم هولاء اليهود كانوا من المهاجرين الذين دخلوا البلاد بالقوة . "1"

ويتضح لنا من الارقام السابقة أن نسبة عدد اليهود قفزت من 8٪ من عدد السكان إلى مايزيد عن 31٪ ، وهذا يوضح طبيعة المخطط الاجرامي الهادف الى هجرة اليهود الى فلسطين تمهيدا لتهجير أهلها منها . وكانت بريطانيا ساهرة على تنفيذ هذا المخطط . وقد نص "الكتاب الاسود" الصادر عن بريطانيا في نوفمبر 1930م " أن حكومة جلالته لم تقرر ، ولم يخطر ببالها ايقاف او منع الهجرة اليهودية على تباين أنواعها " . "2"

ويصف الشاعر ابراهيم طوقان وسائل الهجرة الى فلسطين حيث يقول :

يهاجر ألف ثم ألف مهربا ويدخل ألف سائحا غير آيب
وألف جواز ثم ألف وسيلة لتسهيل مايلقونه من مصاعب
وفي البحر آلاف كأن عبابه وأمواجه مشحونة في المراكب "3"

ولم تكن هذه الهجرة خطرا سياسيا فحسب بل خطرا اقتصاديا واجتماعيا ايضا . ففي مجال الاقتصاد اخذ المهاجرون اليهود يزاحمون العمال والمزارعين العرب في موارد الرزق وميادين العمل .. وفي المجال الاجتماعي جر المهاجرون اليهود الذين تسللوا الى البلاد دون رقابة عليهم المفاسد الخلقية التي لم تعرفها فلسطين من قبل . "4"

1- بلادنا فلسطين الجزء الاول القسم الاول ص23-25 .
2- جهاد شعب فلسطين ص155 .
3- ديوان ابراهيم طوقان - مطبعة دار الكشاف بيروت - ط1 سنة 1955م ص79 .
4- الشعر العربي الحديث في مأساة فلسطين ص 102 .

وجمع شعب فلسطين شمله ، وعقد مؤتمره الاول في الخامس من مارس، 1919م، مشتركة فيه القرى والمدن والعشائر، معلنا رفض الانتداب ووعد بلفور والهجرة اليهودية ، موضحا أن فلسطين جزء من سورية ، متمسكا بالوحدة السورية العربية . . وانتخب شعب فلسطين لجنة تتولى تنفيذ القرارات ومراجعة السلطات الانجليزية بشأنها . "1"

وتوالت المؤتمرات دون أن تغير من حقيقة الانتداب شيئا، وان كانت هذه المؤتمرات وسيلة من وسائل تأجيج شعور الرفض لدى الجماهير . وفي العشرين من أغسطس 1929م اندلعت ثورة الشعب الفلسطيني إذ قامت معركة عنيفة عند ممر البراق في بيت المقدس لم يتمكن البوليس من إنهائها إلا بجهد ومشقة . ولم يجد العرب لغة يمكن أن تستعمل مع تلك القوى المتكاثفة عليهم إلا لغة الاستمرار في الثورة ، فجددوا هجماتهم على مجموعات مسلحة من اليهود يوم 23 اغسطس، وجرح خلالها 107 من الفريقين ، وخسر اليهود 28 قتيلا ، وكانت المعركة تدور في شوارع القدس من ركن الى ركن.

وسرت أنباء الثورة في أنحاء فلسطين فقامت معركة في الخليل ، حيث اعلن رسميا عن مصرع ستين يهوديا وجرح خمسين اخرين . . وقد أسرعت بريطانيا بتوزيع السلاح على الرعايا البريطانيين وكان عدد كبير من اليهود يحمل الرعوية البريطانية . وهاجم العرب مراكز البوليس ، ونشبت معركة جديدة في ضواحي الخليل ، كان قتلى العرب واليهود فيها مائة قتيل ، ونشبت يومها معركة في صفد ، استمرت

1- جهاد شعب فلسطين ص 128 .

ساعات طويلة قتل فيها تسعة من اليهود وجرح 28 يهوديا .

وردا على هذه الثورة العامة قام المندوب السامي باصدار أوامره التعسفية ،فاعتقل مئات من الشباب ،وصدر الحكم بإعدام 20 عربيا ، ونفذ فوراً في الشهداء الثلاثة فؤاد حجازي وعطا الزير ومحمد جمجوم . وحكم بالسجن المؤبد على 23 مجاهدا ،وحكم على 187 عربيا بالسجن بين ثلاثة أعوام وخمسة عشر عاما . وتنوعت الاحكام حتى بلغ عدد العرب المحكوم عليهم 792 عربيا ،وفرضت غرامة مالية على عدد من القرى العربية ،وحددت إقامة كثير من الزعماء في أماكن نائية من فلسطين . "1"

وواصل الشعب الفلسطيني انتفاضاته بين الحين والحين ، وزادت هذه الانتفاضات حدة عندما قام الشيخ عز الدين القسام ببث تعاليمه الثورية وتنظيم صفوف الجماهير . ومنذ اوائل عام 1935م، شهد المثلث العربي (جنين ،نابلس،طولكرم) سيلا من الاغتيالات المضباط الانجليز ،ونسفت القطارات وهوجمت معسكرات الجيش البريطاني.

وقد أصر الشيخ القسام على القتال ،فنزل بنفسه إلى الميدان ، وأعلن في قوة وجهر عن معاداته لسلطات الانتداب ،وعزمه على منازلة الجنود البريطانيين في سبيل عروبة فلسطين . وقد تمكنت قوات الاحتلال البريطاني من محاصرة القسام مع عدد من الفدائيين ،وخاضوا مع القوات البريطانية معركة حامية انتهت باستشهاد القسام وعدد من رفاقه ، وأسر الباقون من عصبته المؤمنة ،ليسجنوا ويعذبوا طويلا في سجون الاستعمار . "2"

1- جهاد شعب فلسطين ص 180 .

2- المرجع السابق ص 177 .

و يقول الشاعر محمد صادق عرنوس مشيدا بالشهيد القسام :

من شاء فليأخذ عن القسام أنموذ ج الجندي في الاسلام

وليتخذه إذا أراد تخلصا من ذاله الموروث خير اما م

ترك الكلام ووصفه لهواتـه وبضاعة الضعفاء محض كلا م "1"

وكانت ثورة القسام تمهيدا للثورة الفلسطينية الكبرى التي ابتدأت في ابريل 1936م ، واستمرت الى بداية الحرب العالمية الثانية عام 1939م . و قد كانت البداية باعلان الاضراب الشهير الذي دام ستة أشهر ، و قد تحدثت الوثائق الرسمية عن الثورة في بيان بريطاني جاء فيه :

" وقعت حوادث قتل واعمال مستنكرة اخرى في مختلف انحاء البلاد من قبل عصابات مسلحة من الإرهابيين . . وأصبحت الحالة . . في البلاد بمثابة تحد مباشر لسلطة الحكومة البريطانية في فلسطين" ."2"

و جاء في منشور الحرس الوطني الفلسطيني سنة 1936م :

"أيتها الأمة الشريفة : سيري في اضرابك العظيم الى النهاية الرجوع قتل لوطنيتنا انه انتحار . مضيا الى أن تنال البلاد حقها ، واذا الانجليز استكبروا صمدنا لهم الى النهاية ، فإما فلسطين عربية ، واما كل عربي شهيد" "3"

واستمرت الثورة لاهبة قوية حتى استرعت إهتمام الرأي العام العالمي ، فها هو ذا هتلر الزعيم الالماني المعروف ، وهو من هو في عالم القوة ، يخاطب المان السوديت عام 1936م قائلا : " اتخذوا يا ألمان السوديت من عرب فلسطين قدوة لكم . إنهم يكافحون انجلترا واليهودية العالمية معا ببسالة خارقة وليس لهم في الدنيا نصير أو مساعد .

1- حيفا والبحيري - هارون هاشم رشيد - مطبعة دار الحياة- دمشق سنة 1975م ص 37-38 .

2- جهاد شعب فلسطين ص 204- 205 .

3- المرجع السابق ص 189 .

اما انتم فان المانيا كلها من ورائكم " "1"

وعلى الرغم من التضحيات التي قدمها الشعب الفلسطيني الا انه لم يفلح في زحزحة كاكل المستعمر البغيض ،اكنه استطاع افشال مشروع التقسيم الذي اقترحته لجنة "بيل" البريطانية التي جاءت الى فلسطين للتحقيق عام 1937م . اذ اعلنت الحكومة البريطانية : " أن بريطانيا بعد إنعام النظر في تقرير اجنة التقسيم قد ظهر لها أن صعابا سياسية وادارية و مالية عظيمة ينطوي عليها انشاء دولة عربية واخرى يهودية حتى اصبح واضحا أن هذا الحل لن يكون حلا عمليا " . "2"

وكان موقف الحكام العرب يتصف بالخذلان ،اذ لم يقدموا دعما لثورة الشعب الفلسطيني ،بل ساعدوا بريطانيا على كبح جماح الثورة . ويتضح هذا من النداء الذي وجهه ثلاثة من ملوكهم وجاء فيه :
" الى ابنائنا عرب فلسطين . لقد تألمنا كثيرا للحالة السائدة في فلسطين . فنحن بالاتفاق مع اخواننا ملوك العرب والامير عبد الله ، ندعوكم للاخلاد الى السكينة حقنا للدماء،معتمدين على حسن نوايا صديقتنا الحكومة البريطانية ،ورغبتها المعلنة لتحقيق العدل " "3"

ولنا أن نتساءل بمرارة كيف تكون بريطانيا صديقة لهؤلاء الملوك؟ وهي صاحبة وعد بلفور ،وهي المتآمرة على الوطن العربي في اتفاقيتي "سايكس بيكو"و"سان ريمو" ،وهي التي بطشت بالشعب الفلسطيني طوال فترة انتدابها .

وخلال الحرب العالمية الثانية ،كان الشعب الفلسطيني منهكا

1- جهاد شعب فلسطين ص 178 .
2- المرجع السابق ص251 .
3- المرجع السابق ص 208 .

يعاني من جراحاته . وما أن انتهت الحرب حتى اشتدت الهجمة الاستعمارية ، وتبلورت في رغبة بريطانيا في طرح القضية الفلسطينية على الامم المتحدة من اجل التقسيم . وبالفعل فقد صدر قرار تقسيم فلسطين في 29 نوفمبر عام 1947م . "1" وكانت امريكا بكل ثقلها وراء صدور هذا القرار .

وهب الشعب الفلسطيني ليقاوم تنفيذ هذا القرار الظالم وسقط الآلاف من الشهداء دفاعا عن أرض الوطن ، ولبى نداء الواجب جماعات من المجاهدين العرب قدموا من اقطار الوطن العربي في مشرقه ومغربه وسقط مئات منهم شهداء على ثرى فلسطين .

وعندما انسحبت بريطانيا من فلسطين على طريقتها الخاصة بعد أن سلمت مواقعها العسكرية للصهاينة ، دخلت الجيوش العربية في 15-5-1948م لتمثل قياداتها مسرحية تسليم فلسطين للصهاينة . وعلى الرغم من تآمر القيادات ، فقد استطاعت الجيوش العربية أن تدحر الصهاينة أول الامر ، وأن تحاصر مدينة القدس التي كانت على وشك السقوط لولا تآمر القيادات ورضوخها لأوامر بريطانيا التي تقدمت الى مجلس الأمن تطلب وقف القتال اربعة اسابيع "2" وفي "29 مايو 1948م وافق مجلس الأمن على هذا القرار" "3" وقبل العرب بهذه الهدنة . وعندما انتهت فترة الهدنة ، وتجدد القتال رجحت كفة الصهاينة ، ولم تطل أيام الحرب" فقد فرضت هدنة جديدة في الثامن عشر من جويلية" "4" ، وأسدل الستار على مسرحية الخيانة التي انتهت

1- جهاد شعب فلسطين ص299 .
2- المرجع السابق ص405 .
3- المرجع السابق ص406 .
4- المرجع السابق ص 411 .

بتسليم فلسطين ،حيث وقعت " الهدنة الدائمة في اليوم العاشر من مارس .. عام 1949م". "1"

ومن الجدير بالذكر أن " جميع ما استولى عليه اليهود سواء تملكاً من الانجليز تحت حمايتهم العديدة،أو بواسطة القوات العسكرية ، لم تكن في الخامس عشر من ماي 1948م ،يزيد عن ثلاثة ملايين دونم . وكان شعب فلسطين يتولى الدفاع عن مساحة تزيد عن اثنين وعشرين مليون دونم . حتى اذا تسلمت الحكومات العربية مسؤولية الدفاع عن فلسطين ،استولى اليهود على اكثر من 17 مليون دونم ضموها الى ماكان في حوزتهم .. وبقي بأيدي العرب خمسة ملايين دونم تقريبا هي مايسمى بالضفة الغربية من مملكة الاردن ومايسمى بقطاع غزة في الجنوب . واذا كان الاحتفاظ بالوطن على هذه الصورة المشرفة يبرهن على معدن كريم لشعب فلسطين فان القيادة الانجليزية ، كانت تركز كل قواها لسحب السلاح من قوات الجهاد المقدس الفلسطيني وابعاد افراده عن جو المعركة . وقد كان ابعاد الفلسطينيين ،وحل فرقهم الشغل الشاغل لقيادة"جلوب" . وانه لعجيب أن سارت عليها الجيوش العربية المنقذة ! . فلم تكد تدخل فلسطين حتى بادرت بحل المنظمات العسكرية ،ونزعت السلاح تدريجيا من المجاهدين " "2"

وطرد الشعب الفلسطيني بالقوة من دياره وارغم على تركها . ويحاول الصهاينة خداع العالم ،عندما يصورون أن الفلسطينيين قد تركوا

1- جهاد شعب فلسطين ص 413 .
2- المرجع السابق ص 415 - 416 .

بلادهم مختارين . وهم بذلك يقلبون أبسط الحقائق ، اذ كيف يمكن لشعب من الشعوب أن يترك وطنه عن طيب خاطر ؟ . ان الحقيقة كما ذكرها الجنرال البريطاني جون جلوب قائد الجيش الأردني - هي :

" أن معظم من تركوا ديارهم قد هربوا هلعا وفزعا لينجوا بانفسهم من المذابح " . "1"

ويقول المؤرخ الكبير " ارنولد توينبي " في تصديره لكتاب تهويد فلسطين : " ان عرب فلسطين سلبوا ممتلكاتهم ، وطردوا من بلادهم بالقوة ، وهذه القوة التي ارغمتهم كانت بريطانية المصدر قبل أن يتمكن الاسرائيليون من بناء قدرتهم العسكرية لشن القتال بانفسهم "."2"

وتشتت الشعب الفلسطيني في منافي الاغتراب ، وذاق مرارة التشريد . وعلى الرغم من هذه الظروف القاسية فانه استطاع أن يفجر ثورته المسلحة في اول يناير عام 1965م ، وقدم عشرات الآلاف من الشهداء ومئات الآلاف من الجرحى ، داخل فلسطين وخارجها . وبفضل هذه التضحيات ، اصبحت فلسطين قضية وجهادا تحتل مركز الصدارة الدولية .

وما زال الشعب الفلسطيني ينتظر يوم العودة الى وطنه ، هذا اليوم الذي طال انتظاره وسيطول ، ما دام الامبرياليون وخدامهم الصهاينة يتمادون في اذلال امتنا العربية ، واحتلال أراضيها ، دون رد مناسب ، ودون حشد يليق بعظم التحدي .

ولو أن المأساة اقتصرت على فلسطين ، والشعب الفلسطيني ، لهان

1- دراسات فلسطينية المجلد رقم 1 ص53 .

2- تهويد فلسطين - اعداد وتحرير د . ابراهيم ابو لغد - ترجمة د . اسعد رزوق - الناشر منظمة التحرير الفلسطينية سنة 1972م ص11 .

الخطب ،لكن الاخطبوط الصهيوني امتد الى الاراضي العربية المصرية والسورية واللبنانية وشتت أهلها . ومن يدري ، فربما امتد الى غيرها ، فان الحلم الصهيوني هو اسرائيل الكبرى التي تمتد من الفرات الى النيل .

الحيـا ة الاجـتمـاعيـــة والا قتصـــاديـــة :

يمكننـا تصنيف الشعب الفلسطيني

عشية الاحتلال البريطا ني من ناحية اجتماعية على الشكل التالي :

1- الحضر : أي سكان المدن ، ويتألفون من كبار الملاكين والموظفين والتجار والحرفيين والعمال ،بالاضافة الى الاعداد الغفيرة من الفئات العاطلة انتاجيا،وكانوا يشكلون نسبة 35.25٪ .

2- الفلاحون : ويبلغ عددهم حسب احصاء 1922م ، 430 الفا وهم لا يشكلون طبقة اجتماعية واحدة،بل عددا من الطبقات يمكن حصرها في ثلاث على الشكل التالي :

ا- طبقة كبار الملاكين : وهم اقل الطبقات الفلاحية عددا ،ونسبتهم لا تكاد تتجاوز واحد بالمئة ، وهم أقلهم ارتباطا بالارض .

ب- طبقة الملاكين الوسط والصغار : وهم يشكلون اكثر من نصف عدد الفلاحين ،وقد وقعت هذه الفئة تحت سيطرة وسطوة المرابيـن . . وبالتدريج فقد العديد من افراد هذه الطبقة أراضيهم ،نتيجة الديون المتراكمة ،وهاجر قسم منهم الى المدن فيما بعد .

جـ- طبقة الاجراء الزراعيين والفلاحين الشركاء : وهم لا يملكون شيئا غير قوة عملهم ،ويبلغ عددهم حوالي 200 الف نسمة . . وقد وقعت هذه الطبقة من الفلاحين غير المالكين تحت ضغط المالك الكبير ، ووكيله ،وملتزمي ضرائب الدولة . . اما العمال الزراعيون فكان عددهم أقل بكثير من الفلاحين الشركاء .

3- البدو : اما البدو فبلغ عددهم حسب احصاء عام 1922م قرابة 60 الفا ."1"

1- نظرة جديدة الى تاريخ القضية الفلسطينية ـ محمد حافظ يعقوب دار الطليعة ط1 1973م ص 43-44-45-46 .

" وكان الحكم في حل الخلافات ،ليس القضاء الشرعي او المدني في كثير من الاحيان ،بل كبار العائلات او مشايخ الحارات "."1"

وقد كتب مندوب " المورننج بوست" الانجليزي أن الفلسطنيين في عهد الحكومة البريطانية " كادوا يفقدون نصيبهم في إدارة البلاد ،لأن الحكومة تدعو لوظائفها اليهودي اولا ثم الانجليزي . . . وتجود بالقليل اليسير من الوظائف على المسيحي العربي . . وتكاد لاتبقي شيئا للمسلم العربي . ." "2"

اما عن الوضع الاقتصادي في فلسطين فانه يتمثل في الركائز الاقتصادية الثلاث وهي : الزراعة والصناعة والتجارة . وساأوجز الحديث عنها فيما يلي :

الزراعة : كان الفلاح في عهد الانتداب يعاني من تعسف السلطات البريطانية ويدفع ضرائب باهظة . ففي سنة 1925م . . أكدت الابحاث أن الفلاح يدفع وسطيا 35 بالمئة من دخله الصافي ضرائب للحكومة .

ومما زاد الاوضاع سوءا انه نتيجة للأزمة الاقتصادية العالمية عام 1929م-1933م انخفضت اسعار المنتجات الزراعية ،كما أن الانتاج الزراعي أصيب نتيجة الأوبئة الزراعية والعوامل الطبيعة .
وكان على الفلاح أن يدفع الضريبة حسب الاعوام السابقة مما زاد في فقره"3"

وكان القطاع الزراعي عماد الثروة الوطنية ،لكن الزراعة كانت بدائية متأخرة من حيث الوسائل والطريقة والوعي الزراعي والانواع الزراعية . وكانت زراعة الحبوب والزيتون تستوعب اوسع المساحات ،تليها زراعة القثاء والفاكهة البعلية والكروم . وكانت زراعة التبغ في المناطق الشمالية تفي بحاجة البلاد المحلية ،اما زراعة البرتقال وسائر الفاكهة الحمضية ،فكانت في دور النمو

1- حياة الادب الفلسطني الحديث ص55 - 2- المرجع السابق ص60 .
3- التعليم والتحديث في المجتمع العربي الفلسطيني زمن الانتداب-نبيل بدران الناشر - منظمة التحرير الفلسطينية - مركز الابحاث - بيروت 1969م ص206-...

الكنها تطورت بسرعة مذهلة لانفتاح اسواق بريطانيا واوروبا امام فاكهتها باسعار غالية ، فأصبحت الأراضي المزروعة برتقالا سنة 1937م عشرة امثال ماكانت عليه سنة 1918م . واستفاد تجارها واصحاب بساتينها ثروات طائلة ، في حين بقيت سائر المزروعات على حالها خلال تلك المدة وازدادت حياة فلاحيها تعاسة وبؤسا .

ولما بدأت الحرب العالمية الثانية وضعت فلسطين ضمن المجهود الحربي ، واصبحت تمد جيوش الحلفاء بحاجتها من التموين ، فانتعشت الحياة الزراعية بصفة عامة ، وازدهرت حركة البستنة بصفة خاصة حتى اصبحت في المرتبة الثانية بعد زراعة البرتقال في الرقي وادرار الارباح والوفرة في الاسواق طيلة العام . وكذلك نشطت زراعة الحبوب لاقبال الحكومة البريطانية على شرائها بأثمان مرتفعة وهي في حقولها قبل الحصاد ، فاستفاد الفلاحون الكبار والمتوسطون ، وفريق غير يسير من الفلاحين الصغار . "1"

الصناعة : اما الصناعة فلم يكن منها في يد العرب طوال الانتداب سوى حرف مهنية للاستهلاك المحلي ، وكانت معها صناعات قديمة يزيد انتاجها عن حاجة البلاد ، لكنها بدائية كصناعة الصابون وزيت الزيتون والتحف والدمى الخشبية والصدفية . وقد وجدت صناعات آلية محدودة في الاسواق الداخلية ، كصناعة بعض المنسوجات ومطاحن الدقيق ومعامل التبغ . وفي مطلع الحرب العالمية الثانية ، ضرب الحصار البحري ، وانقطعت او قلت الواردات الصناعية فنشأت في فلسطين صناعات آلية

1- الشعر الفلسطيني في نكبة فلسطين ص39- 40 .

عصرية خفيفة كانت من نصيب اليهود . فمنذ ابتداء عهد الانتداب اعطتهم الحكومة امتياز توليد الكهرباء (مشروع روتمبرغ) لفلسطين كلها عدا مدينة القدس . ثم امتياز استخراج البوتاس من البحر الميت ثم امتياز صناعة الاسمنت ، ثم امتياز صناعة الزيوت النباتية . "1"

واخذت الصناعة تتركز بايدي عدد قليل من اصحاب رؤوس الاموال لانها اتجهت نحو الاحتكار وتركيز الثروة ووسائل الانتاج في ايدي قبضة صغيرة من رجال المال والاحتكار . . وقد اصبحت نسبة عدد المشروعات الصناعية الكبيرة في فلسطين عام 1937م (27٪) من مجموع الصناعات ونسبة عدد هذه المشروعات الصناعية الصغيرة 72،3 ٪ ، ونسبة عدد العمال المشتغلين في هذه المؤسسات الكبيرة 73٪ وفي الصغيرة 28٪ . . وكان الرأسمال الموصود في هذه الصناعات الكبرى 92،8٪ وفي الصغرى 2،7 ٪ . . وهكذا فان الثروة والقوة الانتاجية كانت متمركزة في المصانع الكبيرة . . ولقد بلغ عدد المؤسسات الصناعية في فلسطين عام 1929م 2475 مؤسسة . . وزاد العدد في عام 1937م حتى بلغ 5606 . "2"

وفي سنة 1942م كان اليهود يملكون الفا وثمانمائة مشروع صناعي تنتج سلعا بمبلغ اربعة عشر مليون جنيه فلسطيني في العام الواحد . وكانت حكومة الانتداب البريطانية تحمي الاسواق المحلية لصالح الصناعة اليهودية وتمد هذه بالمعونات والمساعدات الفنية . "3"

واصبحت فلسطين مركزا لتوظيف رؤوس الاموال الاجنبية واستثمارها ،

1- الشعر الفلسطيني في نكبة فلسطين ص41 .
2- حياة الادب الفلسطيني الحديث ص46 .
3- الشعر الفلسطيني في نكبة فلسطين ص41 .

وعقدت القروض مع المؤسسات المالية الكبرى الموجودة في فلسطين وهي : البنك الانجليزي الفلسطيني ، والمؤسسة الصهيونية ، والبنك الصناعي وبنك العمل . . وقد اشترطت هذه المؤسسات الاربع على المؤسسات الصناعية الاشراف عليها لقاء مدها بالاموال الضرورية . (1)

وقد رافق هذه الهيمنة من قبل هذه المؤسسات المالية بطالة كبيرة عند العمال الفلسطينيين ، واضطهاد من قبل الصهاينة وانخفاض في مستوى الدخل . ومما زاد الامور تعقيدا الهجرة اليهودية الى فلسطين وازدياد عدد الطبقة العاملة اليهودية ، وبالتالي تقلص عدد العمال العرب ، وذلك نتيجة لنظرية (العمل اليهودي) التي كانت تطبقها الوكالة اليهودية والشركات اليهودية ."2" غير أنّ هذا " دفع بالعمال العرب بمساعدة بعض الشباب التقدمي الى انشاء مزيد من النقابات وإحياء القديم منها ، فنشأت عام 1934م نقابة للعمال العرب في يافا ، ووصل عدد المنتسبين اليها عام 1936م حوالي 4700 عضو ، وأنشئت نقابات مماثلة في مدن أخرى " "3"

1- حياة الادب الفلسطيني الحديث ص46 .

2- فلسطين والانتداب البريطاني د . كامل محمود خلة- منظمة التحرير الفلسطينية

3- مركز الابحاث - بيروت سنة 1974م - ص 389 .

3- التعليم والتحديث ص 249 .

التجـــــارة :

كان الصابون وزيت الزيتون والشعير والبطيخ والصناعات السياحية (التحف والدمى الخشبية والصدفية) أهم المواد التجارية التي يصدرها العرب الى خارج البلاد . ومنذ اوائل الانتداب أخذت تجارة الحمضيات تحتل المكان الاول في الاصدار . لكن نصيب اليهود منها لم يكن يقل عن النصف،أما العرب فقد انفردوا بتجارة المواد الغذائية داخل البلاد وخارجها . واما اليهود فقد سيطروا على تجارة المواد الصناعية ، وجميع السلع العصرية ووسائل المدنية الحديثة ومواد البناء ولوازمه . "1"

وبعد نشوب الحرب العالمية الثانية ،نشطت الحركة التجارية نشاطاكبيرا لكثرة الاعمال والانشاءات اللازمة للمجهود الحربي . ولأن البلاد اصبحت قاعدة للجيوش وللتموين . فكبرت القرى ، وتضخمت المدن واتسعت مصالح الدولة ودوائرها الحكومية ،فاستفادت الطبقات الوسطى والصغيرة من سكان المدن ،ونمت نموا جعلها قاعدة شعبية عريضة . وتعاظمت ثروات كبار التجار ،وشارك الاقطاعيون في الحركة التجارية فحافظوا على مراكز الصدارة في المجتمع وفي القيادة السياسية . "2"

1- الشعر الفلسطيني في نكبة فلسطين ص42 .
2- المرجع السابق ص 42- 43 .

الحياة الثقافية :

للحياة الثقافية دعائم متعددة سأتناولها بإيجاز.

وأهم هذه الدعائم : التعليم ، والصحافة ، والإذاعة ، والمسرح ، والترجمة والتأليف ، والجمعيات الأدبية .

التعليم :- كان التعليم في عهد السلطنة العثمانية الأخير يتمثل في مدارس رسمية تعلم باللغة التركية، ولا تبالي باللغة العربية، ومدارس طائفية تختص بكل جماعة دينية ومذهبية على حده ، تعلم باللغة العربية، وتتأثر في الوقت نفسه بالمدارس الأجنبية التي تشاكلها في الدين والمذهب ، ثم مدارس أجنبية تنتسب إلى مختلف الدول الغربية ، تعلم لغة الدولة التي تنتسب اليها ، وتعنى في الوقت نفسه باللغة العربية ، وتسعى إلى نشر ثقافة تلك الدولة وتوسيع نفوذها . وقد كانت القدس مركز احتشاد هذه المدارس."1"

وحرصت حكومة الانتداب البريطاني في فلسطين أن تتولى إدارة المدارس الحكومية العربية ، وتديرها إدارة مباشرة ، بينما تركت ادارة المدارس الحكومية اليهودية للمجلس الملّي اليهودي المعروف باسم " وعد ليومي" . . ولم تكن منصفة في توزيع اعتمادات التعليم بين العرب واليهود ."2"

وأصبحت اللغة الانجليزية إلزامية في المدارس الابتدائية والثانوية والعالية . وليس من شك في أن التعليم أخذ ينشط نشاطا غريباً في عهد الانتداب ، ولكن اليد التي كانت توجهه لم تكن تنوي له خيراً ."3"

1- حياة الأدب الفلسطيني الحديث ص 71 .

2- المرجع السابق ص50 .

3- المرجع السابق ص72 .

وحسب الإحصاء السكاني لعام 1931م كان عدد السكان العرب أو بالأحرى عدد سكان فلسطين من غير اليهود 859 الف نسمة .. وكانت نسبة المتعلمين العرب 75 ر13 بالمئة . "1"

ومن خلال المقارنة يتبين أن عدد التلامذة العرب ارتفع من 25650 تلميذا عام 1920م /1921م الى 104940 تلميذا عام 1943م/1944م أي اكثر من أربعة أضعاف . (2) وبلغ مجموع المدارس العربية في السنة الدراسية 1945م/1946م - 827 مدرسة منها 514 حكومية 131 إسلامية خاصة و182 مسيحية خاصة . وكان عند بدء السنة الدراسية 1947م /1948م في فلسطين 12 مدرسة ثانوية عربية تامة .. و20 مدرسة ثانوية غير تامة ."3"

وقد ظل تعليم البنات لأسباب موضوعية وذاتية متأخراً خصوصا لدى المسلمين ، حيث ظلت بعض القيم التقليدية مسيطرة لا سيما في الريف حيث تقطن الاكثرية . "4"

وكانت البلاد تشكو من نقص في التعليم العالي ،إذ لم يكن في فلسطين سوى مؤسستين هما : الكلية العربية ،والكلية الرشيدية ، وكلا هما في القدس. وكان في كل منهما سنتان دراسيتان خاصتان بعد اتمام الدراسة الثانوية .. والدراسة فيهما تنقسم إلى علمية وأدبية . وكانت الكلية العربية تمنح إلى جانب الشهادة العليا المتوسطة دبلوما في التربية والتعليم بقسميها النظري والعملي . وكان إلى جانب هاتين

1- التعليم والتحديث الجزء الاول ص107 .
2- المرجع السابق ص114 .
3- حياة الأدب الفلسطيني الحديث ص73 .
4- التعليم والتحديث ص 119 .

الكليتين مدرسة الحقوق للعرب واليهود على السواء . . وكان لإعداد المعلمين والمعلمات معاهد أخرى ، فكانت دار المعلمات في القدس والدراسة فيها خمس سنوات . . أي سنة واحدة بعد المرحلة الثانوية وكان في رام الله مركز تدريب المعلمات الريفي . . مدة الدراسة فيه ثلاث سنوات بعد المرحلة الابتدائية . "1"

واتجه الفلسطينيون لملء الفراغ الذي كانوا يشعرون به في التعليم العالي ، الى ارسال ابنائهم الى جامعات البلاد العربية والجامعات الاوروبية ، والامريكية ، وخاصة جامعات بلاد الانجليز ، فكان عدد الذين يؤمون جامعة فؤاد الاول (القاهرة) ، والجامعة الازهرية ، والجامعتين الامريكية في بيروت والقاهرة ، والجامعة السورية في دمشق ، يتكاثر مع الزمن . وكانت حكومة فلسطين ، توفد عددا قليلا من البعوث العلمية الى جامعة بيروت الامريكية ، وجامعات بلاد الانجليز ، وأخيرا الى جامعة القاهرة . ولكن الكثرة الكاثرة من هؤلاء الذين أموا تلك الجامعات كانوا يذهبون على نفقتهم هم ، وكان هولاء جميعا يعودون الى بلادهم بما ثقفوا من علم جديد ، وبما اطلعوا عليه من معارف حديثة ."2"

أهملت حكومة الانتداب التعليم المهني ، وبعد الاحتجاجات الكثيرة ، أدخلت بعض الدروس الزراعية النظرية ، والعملية ، في مدارس الريف ، كما أُلحق بكل مدرسة ريفية بستان للتعليم الزراعي العملي . وكانت هَبَّة "خضوري" سنة 1931م سببا في فتح مدرسة زراعية تخرج معلمين زراعيين .
وزيادة في الاهتمام بالتعليم المهني من قبل المعارف، فتحت الصفوف التجارية في حيفا ، وبعد ذلك في يافا ، كما فتحت صفوف التعليم المهني

1- حياة الادب الفلسطيني الحديث ص 72-73 .
2- الشعر الحديث في فلسطين والاردن . د . الناصر الدين الاسد ص73 مطبعة لجنة البيان العربي سنة 1961م .

الصناعي في حيفا . "1"

واكمالا الاشراف التام على تنشئة الطايعة المختارة وطدت بريطانيا أركان النظام التعليمي الاكاديمي والمكتبي بعيدا عن البيئة الاجتماعية والمتطلبات القومية . كما لم يؤخذ تطور المجتمع العربي في فلسطين بعين الاعتبار . . ولذا كان المنهاج مهتما بتجميد تطور الشعب الفلسطيني ، وتركيز المجتمع التجاري المحافظ ولكن المتطور استهلاكيا . "2"

الصحافة :

لعبت الصحافة دوراً مهماً في نشر الوعي بين طبقات الشعب الفلسطيني . ولم يكن في البلاد صحف وطنية قبل إعلان الدستور العثماني سنة 1908م ، بل كانت هنالك مجلات الجمعيات الاجنبية التابعة الارساليات والجاليات في البلاد . . حتى إذا كان فجر الدستور . . انتشرت الصحف في القدس وحيفا ويافا وعكا وبيت لحم وغيرها . . ففي المدة الواقعة بين 1904م و 1922م ، نجد في فلسطين من الصحف العربية وحدها مايقرب من الخمسين . "3"

وكان أكثر الكتاب والشعراء من أبناء فلسطين ، لا يجدون أمامهم مجالا لنشر أدبهم الا صحف فلسطين اليومية ، التي لا يطلع عليها الا أبناء فلسطين وحدهم . وظل هذا الى أن ظهرت مجلة الرسالة والثقافة والاديب ، فبدأوا ينشرون فيها ألوانا من أدبهم . "4"

ومن المجلات الصادرة في مدينة القدس بين عامي 1909م و 1927م

1- التعليم والتحديث ص142 / 143 .

2- المرجع السابق ص142 .

3- حياة الأدب الفلسطيني الحديث ص 82 .

4- الشعر العربي الحديث في مأساة فلسطين ص 128 .

"الدستور" و"والمصنهال" و"دار المعلمين" و"روضة المعارف" و"الحكمة".

ومن المجلات الصادرة في مدينة حيفا بين عامي 1908م و1924م مجلة "النفائس" و"حيفا" و"زهرة الجميل". وفي مدينة يافا "الأصمعي" عام 1908م و"الحقوق" عام 1923م و"النشرة التجارية" عام 1924م، وفي مدينة عكا "الإنارة" عام 1925م.

أما جرائد فلسطين فقد صدر منها في القدس بين عامي 1903م و1928م ستة وثلاثون جريدة نذكر منها "القدس الشريف" "النفير العثماني"، "بشير فلسطين"، "الإنصاف"، "النجاح"، "المنادي"، "لسان العرب". وصدر في يافا إحدى عشرة جريدة بين عامي 1909م و1927م منها "الأخبار"، "الحرية"، "فلسطين"، "صوت الحق". وصدر في حيفا إحدى عشرة جريدة بين عامي 1908م و1929م منها "الكرمل"، "العصا لمن عصى"، "الصاعقة"، "الأردن"، "اليرموك"، "حيفا"، "الزهور"، وظهرت مجلة "الجامعة الاسلامية" في يافا سنة 1936م، وجريدة "الدفاع" سنة 1934م، وجريدة "اللواء" في القدس سنة 1936م. "1"

وصدر بالإنجليزية "تايمس أوف بلستاين" سنة 1933م، و"بلستاين دايلي ميل" سنة 1934م، وقد أصدرهما منير حداد في حيفا، كما صدر في حيفا كذلك صحيفة "آخر ساعة" سنة 1936م و"البشرى" سنة 1936م، و"السمير" سنة 1939م، و"كشاف الصحراء"

1- حياة الأدب الفلسطيني الحديث من ص 83 الى ص88.

سنة 1940م و" الرابطة" سنة1944م . "1"

" كانت الصحافة ذات دور فعال في النهضة من جميع وجوهها . . كما أن رجال الصحافة العربية في فلسطين ، حين رأوا ما آلت إليه حالة الوطنيين من التفرقة قرروا عقد مؤتمر صحفي في حيفا لوضع خطة يسيرون عليها في كتاباتهم وتأليف نقابة صحافية تجمع شملهم . . وكانت الصحف تنظم مسابقات أدبية تطلب فيها من الأدباء الكتابة في موضوع ، وتخصص للمجيدين جوائز مالية وغيرها . . . وكانت بعض الصحف تصدر أعدادا ممتازة ، تجعلها لدراسة أمور خاصة من أمور البلاد . . وكانت إلى جانب ذلك تختار من أعدادها موضوعات أدبية ، تنشرها في مجاميع خاصة ، تجعلها (معرض أقلام) الكتاب . "2"

الإذاعـــة :

تأسست إذاعة فلسطين وافتتحت بتاريخ 1936/03/29م ، فأسهم القسم العربي فيها في بث المعرفة والثقافة الأدبية ، وبقيت حتى نهاية عهد الانتداب تقوم بدور مخطط لها في تقديم البرامج العربية : الأدبية والثقافية والفنية والاجتماعية . وكان يدعى إلى الحديث فيها وإلقاء المحاضرات كبار الأدباء والمثقفين العرب من جميع الأقطار العربية ، وكذلك الأدباء والكتاب والعلماء والمثقفون الفلسطينيون . "3"

1- حيفا والبحيري - هارون هاشم رشيد - ط1 سنة 1975م مطبعة دار الحياة دمشق ص 44 / 45 .
2- حياة الأدب الفلسطيني الحديث ص 89 / 90 .
3- الشعر الفلسطيني في نكبة فلسطين ص 50 .

فالأخطل الصغير يتقدم بتحية شعرية لفلسطين في مساء الخميس الثاني من أبريل سنة 1942م ، والأستاذ عبد اللطيف البرغوثي يتحدث عن عن ديار العرب والإسلام . . والاستاذ عباس محمود العقاد يتحدث عن الحروب في 14 اكتوبر سنة 1940م وقبله فصل الأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني ، فحاضر عن العرب وموقفهم من تلك الحرب (الحرب العالمية الثانية) ، وذلك في العاشر من أكتوبر سنة 1940م ثم في الثالث عشر من الشهر نفسه والعام ذاته . . ويذيع الشيخ عبد العزيز البشري حديثه عن الدولة الأموية في هذه الفترة . . ويذيع الأستاذ محمد كرد علي حديثاً بعنوان (هل تمدّنا ؟) . . ويقبل على البلاد مدير المطبوعات في جمهورية لبنان الأستاذ خليل تقي الدين ، ليحدث الناس حديث رمضان حول الأدب العربي . "1"

وقد أسهمت الإذاعة إسهاما حسناً في نشاط الحياة الفكرية والفنية . . وكان لها أثر بيّن في إحياء الموسيقى والأغاني الفلسطينية والفلكلور الفلسطيني ، وإظهار المطربين والمطربات وتشجيع الفن الغنائي الضاحك وفنانيه . (2)

المسرح :

منذ مطلع القرن العشرين والمحاولات جادة في حيفا من أجل إحياء التمثيل ، ومن أجل ذلك أنشئت " جمعية التمثيل الأدبي " . . وتقوم اللجنة التمثيلية لنادي الشبيبة في بيت لحم

1- حياة الأدب الفلسطيني الحديث ص 102 .
2- الشعر الفلسطيني في نكبة فلسطين ص 50 .

بتمثيل روايات للجمهور كتمثيلهما لرواية" عواطف الزوج " الاجتماعية حيث اجاد الممثلون في أدوارهم . وفي غزة تقوم اللجنة التمثيلية للنادي الأرثوذكسي بدورها في التمثيل ،فتمثل رواية " حمدان" أو" غانية الأندلس" بمساعدة الفنان أصلان مراد ، الحائز على الدرجة الأولى في فن التمثيل .

ومن الجمعيات التمثيلية في هذه الفترة " جمعية الفنون والتمثيل" في القدس ،ومن رواياتها التي مثلتها على مسرح مدرسة" الفرير" رواية "عنترة". . ومن الجمعيات التي لها فرق تمثيلية في البلاد جمعية الشبان المسلمين الكبرى في يافا . . وقد مثلت رواية " دموع البائسة " على مسرح قهوة "أبو شكوش"،في هذه المرحلة الزمنية . ولقد قامت في هذه الآونة في البلاد فرق تمثيلية أخذت تتجول في أنحاء فلسطين والأردن لتمثل الروايات . . كما فعل فريق الهيئة التمثيلية لنادي الشبيبة في بيت لحم الذي أخذ يتجول ليقوم بتمثيل "رواية الاستبداد " ،وقد عنيت جريدة " النفير" بتشجيع التمثيل وفرقه ،وتتبع أخبار الممثلين والجمعيات التمثيلية . . من ذلك حديثها عن النهضة التمثيلية في حيفا بمناسبة حضور أكبر فرقة تمثيلية عربية إلى حيفا ،وهي فرقة رمسيس المصرية بقيادة يوسف وهبي ،وجورج أبيض . . حيث تذكر أن أول من غرس نواة هذه

النهضة في حيفا هي جمعية الرابطة الأدبية ، وقد جعلت حفلاتها التمثيلية عامة ومجانية ، فأقبل عليها سكان حيفا على اختلاف مللهم ونحلهم . "1"

ولا يخفى على أحد ما للمسرح من أثر في تعريف الشعب بماضيه وتبصيره بواقعه .

الترجمة والتأليف :

كان الكتاب والباحثين الفلسطينيين سهم وافر في الترجمة ، يشهد على ذلك ما قاموا بترجمته إلى اللغة العربية نقلا عن اللغات الأجنبية الحية .
ومن أوائل الذين مارسوا الترجمة . . الأستاذ خليل بيدس . .
وكان يتقن الروسية فترجم عنها كثيرا . ومن كبار الذين اتصلوا بمنابع الأدب الروسي الأستاذ نجاتي صدقي ، الذي قام بترجمة أعمال أدبية كثيرة . ومن الذين ترجموا عن الألمانية الأستاذ جبرا ضومط حيث كان ينقل القصص والحكايات ، كما ترجم الأستاذ إلياس نصر الله حداد رواية "ناثان الحكيم" عن الألمانية للشاعر الألماني "لسنغ" .

ومن الذين ترجموا عن التركية المؤرخ الفلسطيني عبد الله مخلص ، والكاتب الأديب حسن صدقي الدجاني . وممن ترجموا عن الإنجليزية الأستاذ توفيق زيبق ، والأستاذ أحمد شاكر الكرمي

1- حياة الأدب الفلسطيني الحديث ص 103- 104- 105 .

والأستاذ عبد الحميد ياسين.وبعد الاستاذ المربي أحمد سامح الخالدي من أشهر من نقل عن اللغة الانجليزية ابحاثا في التربية ، كما قامت السيدة عنبرة سلام الخالدي بترجمة " الياذة هوميروس" عن الانجليزية . ومن مشاهير المترجمين عن الانجليزية ، الاستاذ عجاج نويهض،إذ ترجم كتاب " حاضر العالم الاسلامي" ، ثم ترجم كتاب " النظام السياسي: نظرياته وأشكاله" ويعتبر الاستاذ عادل زعيتر في طليعة من ترجموا عن الفرنسية اذ ترجم سبعة وثلاثين كتابا لكبار الكتاب والباحثين ." "1"

ان الترجمة تعني أن أبواب فلسطين كانت مفتوحة على ثقافات الشعوب مما كان له اكبر الاثر في توسيع افاق الباحثين والأدباء الفلسطينيين . " وكانت حركة التأليف اكثر ازدهارا ، ونشاطا فألفت الكتب المدرسية في العلوم والاداب والاجتماع،وألف العلماء والمثقفون الفلسطينيون مئات الكتب في التاريخ والقانون والتربية والأدب والآثار والثقافة العامة والاقتصاد والسياسة واللغة والقصص والشعر والنقد . "2"

الجمعيات والنوادي الأدبية :

حاول الفلسطينيون اقامة مؤسسات اجتماعية وثقافية بغية تحقيق اتحاد وانبعاث داخلي أوثق وهو أمر اعتبروه ضروريا جدا في ضوء احتمال تعرضهم للانعزال سياسيا والحيلولة دون اتصالهم باخوانهم العرب .

1- كل هذه المعلومات عن الترجمة مأخوذة من كتاب حياة الادب الفلسطيني الحديث ص 109- 113 .

2- الشعر الفلسطيني في نكبة فلسطين ص 51 .

وفي اثناء الاسبوع الاول من حزيران (جوان) عام 1918م اوردت صحيفة انباء فلسطين نبا تشكيل عدة جمعيات في يافا هي : " دار العلوم الاسلامية" و "جمعية الشبيبة اليافية" و" جمعية التعاون المسيحي" و "الجمعية الاهلية" كما نشرت الصحيفة نفسها في التاسع من فيفري عام 1919م نبا ظهور اول منظمة كشفية واول نادي نسائي عربي . .

ومن بين الجمعيات السياسية الأدبية الاخرى التي اعيد احياؤها في القدس خلال شهر جوان 1918م ، النادي العربي برعاية الحاج امين الحسيني وعدد من شباب القدس الذين كرسوا أنفسهم في الظاهر لبعث الحياة في الطبيعة والأدب العربيين . "1"

وحين زار سليم سركيس القدس ، والتقى فيها بالرصافي سنة 1920م ، كتب يقول لخليل بيدس : " وقد سرني من القدس أن فيها جمعية للادباء لم اوفق لمثلها في دمشق أو حيفا" . "2"

وأخذت النوادي تقوم ، فكان لموظفي السكة الحديدية في حيفا وغيرهم من ادباء القوم ناد يجمعهم . . وكان السعي حثيثا لتأسيس ناد وطني عمومي ، ثم قام في حيفا ناد باسم" النادي الكاثوليكي " سنة 1922م ، أقامه نخبة من شبان طائفة الروم الكاثوليك ادباء وموظفين وعمالا . "3" ولم تكن الجمعيات قاصرة على الرجال ، فقد تأسست جمعيات النساء ، فكان في حيفا جمعيتان نسويتان ، الاولى : جمعية السيدات " مسيحية" والثانية جمعية تهذيب الفتاة" اسلامية" . "4"

1- تاريخ فلسطين الحديث ص 113 .
2- حياة الادب الفلسطيني الحديث ص 99 .
3- المرجع السابق ص 97 .
4- المرجع السابق ص 96 .

كما انتشرت النوادي في مدن فلسطين ،وكان لها دور في الحياة الادبية كبير ."1" ولعل من عوامل النهضة المباشرة في فلسطين كثرة الاندية والجمعيات الادبية والمجالس الخاصة وحلقات الأدب في البلاد . "2"

وقد وجهت الجمعيات والأندية الأدبية والثقافية الدعوة الى لفيف من المشتغلين بالادب والثقافة ،ليلقوا محاضرات فيها . . ومن زار فلسطين من مصر طه حسين ،والعقاد ،والمازني ،وعبد الوهاب عزام . . والشيخ عبد الوهاب النجار ، ومن سوريا عمر ابو ريشة ومن لبنان بشارة الخوري ،ومن المغرب عبد العزيز الثعالبي وغيرهم ."3"

وبعد ،فهذا تمهيد يوضح الخطوط العريضة لمأساة فلسطين وجهاد الشعب الفلسطيني أمام جبروت الإمبريالية والصهيونية ،كما يوضح الملامح العامة للحياة الاجتماعية ،والاقتصادية ،والثقافية للشعب الفلسطيني .

وقد تأثر شاعرنا حسن البحيري بمجتمعه الفلسطيني ،وأثر فيه ،وعاش يحمل وطنه بين جوانحه ،حتى بعد أن طوحت به المأساة إلى منافي الاغتراب .

1- حياة الادب الفلسطيني الحديث ص 98 .
2- المرجع السابق ص 94 .
3- الشعر العربي الحديث في مأساة فلسطين ص 127 .

البـــاب الأول

حيـــاتـــه

الفصــل الأول

مولـــده ونشأتـــه

لم تكن حياة الشاعر حسن البحيري كحياة سائر النـاس تمر مرورا عابرا ، بل كانت نمطا فريدا قل أن نجد لها مثيلا في حياة شاعر أو أديب ، بينما نجد أشباها لها في حياة البؤساء والمشردين الذين سحقهم الدهر بكلاكله ، فمروا بالآفهم المؤلفة دون أن يؤثروا في ماحولهم ، ودون أن يتركوا أثرا من بعدهم يكون عليهم شهيدا . كم من أناس عصرتهم الدنيا عصرا في مقتبل العمر ، حتى اذا أرخت لهم حبلها ساروا معها كل مسار ، اشروا فلم يحمدوا الله على نعمائه ، وجدوا في طرق الباطل يتفننون في ولوج دهاليزها . وكم من أناس ورثتهم حياة القهر في ايام الصبا كرها لكل ما حولهم فتحولوا الى قطاع طريق يسدون على الناس طرق الخير وينشرون في الارض الفساد .

وهناك من لاقوا من عنت الدهر مالاقوا ، ولكنهم كانوا يجدون قلوب الاباء والامهات تندي حياتهم بكلمات الحنان ، فتشيع فيهم الدفء وتخفف عنهم وطأة القهر النفسي ولو الى حين .

كل هذه الانماط من البشر نعرفها ونعايشها ونقرأ عنها لكن شاعرنا نموذج فريد ، عذبته الدنيا في طفولته وصباه بشكل لا يرحم ، وعاش حياة لا تخطر على بال : غيبت الاقدار اباه قبل مولده ، وحرمته قسوة البشر من حنان أمه ، وألزمه الجوع أن

يلتقط أحيانا قطع الخبز من اوعية الزبالة ، وتحمل قسوة العمل وتكاليف الحياة المرة وهو دون العاشرة . وعلى الرغم من هذا كله فانه لم ينحرف بل شق طريقه بعزم وثبات محبا الناس حانيا عليهم ، معرضا نفسه للموت دفاعا عن شعبه ووطنه ، وهو يقف اليوم في طليعة الشعراء العرب فنا والتزاما . ومن خلال هذه الدراسة سنتعرف على هذا الشاعر حياة وأخلاقا وثقافة وانتاجا .

مولده :

أخبرني البحيري أن خالته ترجح بأن مولده كان عام 1921م ، فان لم يكن كذلك فالمرجح أن يكون ميلاده عام 1919م في أعقاب الحرب العالمية الاولى . "1" وهذا ما اعتمده الأستاذ الشاعر هارون هاشم رشيد حيث قال : " في ليلة من من ليالي عام 1919م ، وضعت آمنة مولودها .. لم يخط مولده في سجل رسمي ولا حملته شهادة ميلاد "2" .

والده " حسن بن محمد بن حسين البحيري " عجوز هدته الامراض والشيخوخة ، وقد توفي بعد شهر وعشرة أيام من حمل زوجته " آمنة بنت خليل بن صالح ابي هواش " بشاعرنا . ولم يخلف الوالد العجوز لزوجته الحامل سوى غرفة كالكهف حجارتها ناتئة تستوطنها الحشرات . وكانت والدة الشاعر تعاني من الفقر في حياة زوجها ، وازدادت المعاناة شدة بعد موته ، وبخاصة في أشهر الحمل الاخيرة . ولولا زيارات جاراتها لها ،

1- زرت الشاعر عدة مرات في بيته بدمشق خلال شهري جوان وجويلية عام 1980م ، وقد تكرم فاطلعني على تفاصيل حياته ، كما زودني بانتاجه المطبوع والمخطوط .

2- حيفا والبحيري ص 55 .

لما وجدت ما تأكل ، ولهلكت دون أن يدري بها أحد .

وبعد تسعة أشهر من الحمل وضعت آمنة مولودها وعندما قيل لها بأنه ذكر أسمته " وعد من الله " ، ولما سئلت عن سبب هذه التسمية قالت : انه مصيبة : قبر والده قبل أن يولد ، لكنها عادت فراجعت نفسها ، ربما لأن النسوة اللواتي يترددن عليها لم تعجبهن التسمية ، او لأنها أرادت أن تسميه باسم آخر . وبالفعل فقد اختارت أن تسميه باسم ابيه ولذا فان شاعرنا هو حسن بن حسن البحيري .

ومن تسمية شاعرنا الاولى باسم " وعد من الله " نستدل على أن الحالة النفسية لوالدة الشاعر كانت محطمة بسبب البؤس والفقر ، ولذا جاءت التسمية طافحة بما يكنه صدرها من تعاسة وشقاء . ومن المألوف عندنا في فلسطين أن نقول : " وعد من الله " عند وقوع المصيبة التي لا يستطيع الانسان لها دفعا ولا ردّا . وفي الوقت نفسه فان هذه التسمية اخلاد الى الاقدار ، وتسليم للخالق عز وجل ، فما عساها أن تفعل وهي الأيّم التي لا حول لها ولا معين ؟ وما عساها أن تفعل في زمن عزّ على الكثير من الرجال تحصيل قوتهم بعد أن اكلت أهوال الحرب الأخضر واليابس .

أما تسميتها لوليدها باسم والده فهو الدليل على الوفاء الذي تكنه الزوجة الفاضلة لزوجها ، فهي تريد أن تسمع اسم زوجها الراحل

من خلال مناداتها على ابنها المسمى باسم ابيه .

وحملت الام النفساء وليدها الى أهله في قرية الطيرة التي تقع على بعد اثني عشر كيلومترا الى الجنوب الغربي من مدينة حيفا ،"1" فلم تلق منهم الا الجحود والاهمال ، فصرخت فيهم : " هذا ولدكم ، وابن رجلكم ، فماذا افعل به ؟ وكيف استطيع أن أهبه الحياة ؟ . ويجيئها الرد الصارم وكأنما دحرجوا صخرة كبيرة من اعلى " الكرمل" على رأسها . .

- ألقيه في البحر .

وتنغرز الكلمات كالنصل الحاد في صدرها ليصل الى شغاف قلبها ، وتنفذ الى اعماق اعماقها فتدمي روحها وتقرح عينيها .

- كيف يمكن أن يكون هذا ؟ انه ولدكم ، انه ابنكم ، انه قطعة منكم . وتتطلع اليها العيون البلهاء التي لا نبض فيها لتنشر على وجهها ووجه طفلها ظل الأسى الابدي ، وتتحرك لتتركهم متجهة الى الله وحده دون غيره ، فهو الملجأ وهو الملاذ .

وتقفل الام عائدة برضيعها الى بيتها الكسير في" وادي النسناس" "1" . . أي ناس هؤلاء ؟ ! أي ناس؟ . وظل التساؤل يلاحقها وقد تكومت مجهدة في وسط الغرفة : ماذا أفعل به ؟ أين أذهب؟ ولمن ؟ ما أثقل هذا الحمل الذي تركته ياحسن! تتحدث بصوت مرتفع كأنما تخاطب زوجها ، وتضم طفلها الى صدرها وتغرقه في دموعها . "2"

1- واد النسناس يقع في جبل الكرمل بحيفا .
2- حيفا والبحيري ص 57-58 .

كان وضع الأم بائسا ، ولم تكن الظروف لتسمح لها بالعمل ، وهي المرأة التي لا علم لها ولا ثقافة ، كما أن اعتمادها على نفسها بالعمل لم يكن سهلا ، في وقت صعب على الرجال أن يجدوا قوت عيالهم ، بعد أن دمرت الحرب اقتصاد البلاد .

وفي هذه الأثناء تقدم رجل يدعى " صالح بن علي عرفة" يطلب يدها ، فوافقت دون تردد ، علّه ينقذها وابنها من ضيق العيش الذي تعاني منه . وبعد زواجه منها نقلها وابنها الى قريته " سلمه" التي تبعد عن مدينة يافا بأربعة كيلومترات ."1"

كان صالح هذا حوذيا يملك عربة يجرها رأسان من الخيول سبق له أن تزوج مرتين قبل زواجه بآمنة . وها هو ذا الشاعر يحدثنا عن ميلاده وعن طفولته المعذبة عند زوج أمه : "

"في غرفة صغيرة فقيرة ،كأنها بين دور الحي كهف من كهوف الجبال لم تنحته يد انسان ، ولكن جوفته عوامل الزمن ، اقيمت أعالي منحدر من انسياب " شارع الوادي " " وادي النسناس" المتعلق بصدر جبل الكرمل المطاول بغاربه أعنان السماء . هناك ولدت ، وهناك تفتحت عيناي على أوّل انوار الحياة ، ومن هناك خُطفت رضيعا إلى قرية "سلمه" قرية زوج امي (صالح بن علي عرفه) ومنها ألقي بي إلى أحد ملاجيء الأيتام والعجزة في مدينة "يافا" ثم رددت الى سلمه ففيها اصيبت - من الحفا - وسطى أصابع قدمي اليسرى بجرح استفحل واستحكم وأعيا برؤه ، نقلت بعد تعفّنه إلى "المستشفى الفرنسي"

1- بلادنا فلسطين، مصطفى الدباغ - الجزء الاول - القسم الاول ص 277 .

في" يافا" حيث عرفت لأول مرة دفء الحنان ، وذقت عطف الحب واستظللت رأم المحبة وأنا بين أيدي ممرضاته - ملائكة الرحمة - احمل وانقل طفلا هزيلا نحيلا من صدر حنان الى صدر حنان ومن حضن عطف الى حضن عطف . ثم اعدت الى "سلمه" بعد التئام الجرح الذي عمق المه وطال عذابه وكثرت عملياته فقد كاد يؤدي الى قطع قدمي بعد أن كاد يودي بحياتي . ومن قرية "سلمه" قرية الشقاء والعذاب والألم ،ارجعت الى حيفا املا في إقصائي عن قساوة زوج أمي ذلك المخلوق الذي لم تعرف الرحمة إلى قلبه سبيلا . فمن رهيب تلك القساوة أن اقتادني يوما إلى أقاصي كروم القرية وحيدا ،وهناك هم بالقائي إلى جوف بئر عميقة خربة مهجورة ،لولا صيحة الفزع والهلع التي انطلقت من حنجرتي الصغيرة في تلك الظهيرة القائظة واندحت صدى مرعبا في ذلك الفضاء الواسع النائي ، الرهيب السكون ،فأيقظت" أبا شاكر" صاحب الكرم المجاور الذي كان يتفيأ في غفوة قيلولته ظل شجرة "جميز" وراء سياج عال من "صبير" كثيف التفرع عريض الالواح ،فاختطفني من يديه ومضى بي الى القرية وأنا فاقد الوعي .

وساعة استيقاظي من غشية الرعب وجدتني في حجر السيدة "أم شاكر" في بيت"أبي شاكر" والعرق الذي تفصد من عروقي أو الماء الذي رششت به او هما معا يغرقان جسدي المرتعد تفزّعا وتروّعا .

تلك بعض الاحداث باكرت عمري وانا طفل صغير صغير ، ولكن الآلام جراحها وأهوال مآسيها ماتزال في اعماق ذاتي وبين أطياف ذكرياتي كبيرة ... كبيرة "1" .

وما دام الشاعر قد ذكر بعض الاحداث فلنورد بقيتها لتتضح الصورة من جميع جوانبها ، فقد " أرسلته أمه الى كتاب القرية " سلمه" علّه يغيب عن وجه الزوج المتحفز ابدا ، الحاسب عليه كل لفتة وكل كلمة . ينهره ، ينفر منه يضربه وكان الطفل روحا مرهفا ناعما أصيلا حنونا ، كسر قلبه وصدع روحه وصدم حياته ، زوج امه ، فتولد عنده شعور بالوحدة والهوان والغربة مبكرا . وزاد في المأساة عمقا ، وفي الجرح ألما .. ذلك الحوار الزاعق بين الزوج والأم بحضور الطفل وتحت سمعه وبصره :

- لا بد أن يترك الولد غرفة نومنا .

- وأين ينام ؟ إنها غرفة واحدة .

- ينام مع الخيول .

- حرام عليك يا رجل .

- كلمة واحدة لا بد أن تسمعيها .

- أرجوك ، هذا طفل صغير ، اتركه ينام

مع ابنتك الضريرة " سعدية " أو مع أخويه

---

1 - ظلال الجمال - حسن البحيري - مطبعة دار الحياة - ط1 سنة 1981م ص 16 - 19 .

"صابر" و "فضل" .

- انه يضربهما .

- أبدا ان هذا لا يحدث ،فحسن طفل وديع .

- هذا في عينيك ، فالقرد في عين أمه غزال ."1"

ويصر زوج أمه على إخراجه من الكتاب على الرغم من معارضة امه الشديدة ،" ويبدأ في اصطحابه معه الى كرمه النائي في طرف من أطراف "سلمه" ويتلقى الطفل ذلك سعيدا حبا منه في الابتعاد عن البيت ،وعن الجو العدائي الذي يغرق فيه أذنيه "2". .

وتسعى الأم بكل وسائلها الى ابعاد ابنها عن البيت حتى لا يتعرض لظلم زوجها الظلوم الجهول ، هذا الزوج الذي الزمتها به الحاجة ، وربطها به ولداها اللذان انجبتهما منه . وقد سمعت بمعهد للأيتام في يافا فسعت الى الحاق ابنها به ، وقد تم لها ذلك بسهولة ويسر . ولأول مرة يشعر حسن بالسعادة والاستقرار ،ويقبل على مدرساته فيحبهن ويحببنه ،ولكن المزاج المتقلب لزوج امه سرعان ماأفسد على حسن حياته الجديدة ،فقد " قرر أن يبيع كرمه وبيته في سلمه ،ويعود الى حيفا حيث يواصل عمله هناك ،

1- حيفا والبحيري ص 61 - 62 .

2- المرجع السابق ص 62 .

ولابد أن يأخذ معه الطفل ليساعده في شؤون خيله وعربته .

وتنتزع الأم طفلها من المعهد الذي ألفه وأنس به ، ووجد فيه أناسا أحبهم وأحبوه . انه لا يمكن أن ينسى ذلك اليوم على بعده في اغوار الزمن ، يوم شد من المعهد ليلقى به مرة ثانية في مهب ريح عاصفة .

وباع زوج الأم كرسه في سلمه ، واشترى في ، شارع الناصرة " بحيفا قطعة ارض وابتنى عليها بيتا ، كما اشترى حنطورا وحصانين اضافة الى عربته وحصانيها ، وباشر حياته الجديدة في المدينة الكبيرة وأصبح لحسن عمل يومي وضروري وطمع . وأصبح عليه أن يعنى بالخيول الاربعة وعليه أن يرافقها ، وعليه أن يعيش معها . وبدت حياته أشق وأقسى ، لقد اصبح يعي الاشياء ويفهمها ويعيشها .

ان زوج أمه يعتبره كما مهملا على الرغم من أنه المفيد الوحيد من بين من في البيت ، ولاينال منه غير تحريك العصا على جنبه . إنه يعود بالكعك لولديه يحتضنهما ويطعمهما هدايا ه أما م حسن ، ويلتهمان ما يتناولان دون أن يلتفت أحد إليه أو يعطيه شيئا .

وتصبح حياته المتواترة مع الخيول أليفة آلية .. فهو لايجد فارقا بين أن ينام تحت أرجل أمه وزوجها

والخوته أوينام تحت مذود العلف في الاسطبل ملقى عند سنابك الخيل . إن الشيء الذي يتهدده من النظرات الرهيبة التي يحدجه بها زوج أمه أشد خطرا عليه من سنابك الخيل التي تظل طوال الليل بين اللحظة واللحظة تدق وتدق فتوقظه مرات . وقد ألفته الخيول ، ونشأت بينه وبينها صداقة متبادلة ، فهي تركن اليه وتهش لمقدمه وتصهل للقياه ، ويخيل إليه أحيانا أنها تشفق عليه وتشاركه مايختلج في وجدانه وهو يطلق عليها أسماء يناديها بها ، ويأمرها ويداعبها وينهرها "[1]

ومرت السنوات وحسن يعاني من ظلم زوج أمه الذي لم يكن يكف عن ضربه وايذائه . وقد جرب مرات أن يغرقه في البحر أثناء غسله لخيوله على الشاطيء ، ولولا وجود الصيادين الدائم على شاطيء البحر لنفذ جريمته . وكم عضه الجوع فاقتات بما يجده من قطع الخبز في أوعية الزبالة ، وكم رطب ريقه بقشور البطيخ وقشور الفاكهة الملقاة على قارعة الطريق .

ولم تكن أمه تكف عن بذل جهودها من أجل تعليمه ، حتى تمكنت من تسجيله بمدرسة الحكومة الابتدائية في حيفا ، فأبدى في المدرسة نباهة شدت إليه المدرسين ، كما أبدى ذكاء كان حديث أساتذته .

ولم تكن دراسة حسن البحيري منتظمة فهو كثير

1- حيفا والبحيري ص 67- 69 .

التغيب عن المدرسة ، نظرا لما كان يكلفه به زوج أمه من خدمات ،أولما كانت تكلفه به أمه في بعض الاحيان . وكان الاساتذة يتغاضون عن غيابه لمعرفتهم بظروفه القاسية ،وتقديرا منهم لذكائه الذي يعوض هذا الغياب ،اذ كان يترفع من صف إلى صف بتفوق..

كان حسن يشتغل اثناء العطل المدرسية . وقد ذكرلي أن اول عمل قام به ،انه اشتغل أجير فران ،وحصل من عمله هذا على رغيف خبز اكله ، كما اشتغل أجير دهان وأجير حلاق وأجير بقال ،وا شتغل على صفره عاملا في شركة من شركات التبغ وعاملا في فندق . وكان عندما لا يجد عملا عند احد "يضع على ظهره كيسا من الخيش ينطلق به في أزقة المدينة وشوارعها ،يجمع العظام وقطع الزجاج المكسور والعلب الفارغة، ويملاء بها الكيس ثم يمضي به إلى تاجر يهودي يشتري منه جهد يومه ،وطاقة طفولته بثمن بخس .

وكم دميت يداه ورجلاه وهو يركض خلف لقمة العيش السوداء هذه في مطاردة عبر الشوارع والازقة ،ونبشا في مزبلة المدينة .. ونام ليلات على القش ملتحفا قطعا من الخيش معاشرا السوقة يوءذون اسماعه بالفاظهم البذيئة وكلماتهم النابية التي لا تألفها نفسه ،ولا تستطيع سماعها اذناه الصغيرتان اللتان اول

ما قرع سمعهما مناجاة الحساسين والشحارير والبلابل ،يوم كان يتبعها بنظراته وهي تنتقل فرحة مرحة على غصون الشجر ،وفي رحاب الفضاء الواسع يوم كان يرعى الاغنام ويحرس الكرم في بعيد سهول قرية "سلمه" . "1"

كان من اعماله هذه يريد أن يكسب لقمة العيش ليرضي زوج أمه الذي لم يكن يريد له أن يبقى في المدرسة ،وكان يلح على زوجته أن تعمل . ولأنها لا تستطيع ذلك كانت تتمنى لو تحمل حسن مسئولية العناية بها على الرغم من صغره .

وكان مدير المدرسة على اطلاع بهذه الحال ،وما أن أنهى حسن الصف الرابع الابتدائي بتفوق حتى ناداه مدير المدرسة ،وأخبره بضرورة ترك المدرسة من أجل أن يتحمل مسئولية الانفاق على والدته التي ضاق بها زوجها ذرعا . وغادر حسن المدرسة ،بل اقتلع منها على كره منه مشيعا بالاشفاق والحسرة والألم من المدير والمدرسين .

وهكذا اصبح في معترك الحياة وهو مازال غض الاهاب وكان ذلك آخر عهد له بالمدرسة والمدرسين .

1- حيفا والبحيري ص 75- 76 .

الفصل الثاني

الشاعر والحياة

عمدت الى جعل خروج حسن من المدرسة نهاية للفصل الاول الذي تحدث عن نشأته الاولى . وكم هو غريب حقا أن يبدأ الفصل الثاني بعنوان " الشاعر والحياة " مع أن الشاعر لم يتجاوز بعد الثانية عشرة ،فهذه السن عند كل الناس سن دراسة وتحصيل ،وهي ان لم تكن كذلك عند البعض فهي على الاقل سن رعاية من الوالدين والاقربين ،وليست سن الدخول في معمعان الحياة .

وفي حدود اطلاعي لم اقرأ عن شاعر أو أديب ، تعرض لمثل ما تعرض له حسن البحيري . ولذا فليس غريبا أن تكون الكتابة عن البحيري ذات طابع خاص . فهو الشاعر الذي لا نجد في حياته فواصل محددة ،اذ اختلطت سنوات دراسته القليلة بالعمل ،لأن الاقدار اسلمته للحياة بكل ما تحمله من مرارة وعذاب .

ومع أن خروج البحيري من المدرسة كان البوابة الكبيرة التي خرج منها الى معترك الحياة ، الا أنه جرب وعانى من دهاليز الحياة قبل الوصول الى هذه البوابة الكبيرة.. ومن

هنا فهو الصبي المجرب للحياة ، وغريب حقا أن نسمي صبياً في مثل هذه السن مجربا ، لكن حياة البحيري تستوجب ذلك .

بدأ حسن البحيري يفتش عن عمل وصادف ذات يوم أن مر بالقرب من سكة حديد حيفا ، فرأى جمهرة من الناس يبحثون عن عمل ، فوقف بينهم لعله يظفر بعمل في هذه المؤسسة وكان ذلك عام 1932م كما اخبرني الشاعر . وخرج المدير المسئول ومعه شاب يدعى " محمود زفري" كان من الشباب الذين تخرجوا في مدرسة حيفا الحكومية ، فعرف البحيري وسهل له طريق العمل في هذه المؤسسة . وبعد نجاحه في الامتحان والفحص الطبي عين في المحطة عاملا للتنظيفات في مرآب القاطرات يجمع القمامة والفحم المستهلك . وكان راتبه الشهري ثلاثة جنيهات ونصف . وكم كان سعيدا بهذا الراتب ، وكم ستكون أمه سعيدة بعد أن أصبح موظفا يستطيع أن يوفر لها لقمة العيش وقد كان زوجها القاسي يمن عليها بهذه اللقمة .

توفي زوج الأم فأخذ حسن والدته ، وعاد بها الى الغرفة التى ولد فيها في " وادي النسناس" ورقي في وظيفته إذ أصبح مسئولا عن تنظيف عجلات القاطرات بالزيت ، ثم رقي الى عامل إشارة ، فمأمور قطار ، فجامع تذاكر . وقبل الخروج من فلسطين كان حسن مسئولا عن ملخص العمل الشهري ، ومفصل العمل اليومي لموظفي محطة سكة حديد حيفا ، وهي اكبر محطات سكك حديد فلسطين -

كان حسن يأتي الى عمله نشيطا في الصباح الباكر ،وقد حظي برضى مسئوليه عنه ،وكان محبوبا من كل العاملين معه . وعندما ينتهي من عمله يعود الى بيته في " وادي النسناس" ليقضي وقته بين أحضان الطبيعة في " جبل الكرمل" مصحوبا بكتاب أو قصة أو ديوان شعر .

كم ليلة قضاها حسن وهو متكيء الى جذع شجرة يتأمل أضواء مدينته الحبيبة "حيفا" وقد انعكست على مياه البحر بشكل ساحر أخاذ . كم ليلة قضاها وهو يتأمل القمر والنجوم سابحا في تأملاته ممتلئا قلبه بعظمة الخالق بديع السموات والارض . كان حسن يفيق عند الصباح على أصوات العصافير التي ترتل عند بزوغ الفجر أنشودة الصباح . وكان يتنقل بين الشعاب ويرى من جمال الطبيعة الأخاذ مايغسل قلبه الصغير من هموم الحياة . ولولا الطبيعة التي هام بها ،وهيأه الله للانسجام مع جمالها والتعبد في محرابها لهدّته المصاعب والارزاء .

هكذا كانت الطبيعة هي الكتاب الذي يقرأ فيه ، ويعيش فيه ، وهي أمه التي تحنو عليه وتعوضه الحنان الذي افتقده في طفولته . وها هو ذا الشاعر يحدثنا عن مدينة حيفا مدرج صباه ، مدينة جبل الكرمل ذي الطبيعة الساحرة ،فيقول :

" مدينتي الحبيبة ،مدينة الظلال والجمال والخيال .. مدينة الشعر

والسحر والفتون ، مدينة الحساسين والشحارير والبلابل والهداهد والوراور والحجل ، مدينة " الحناء" و" العطرة" و" الفتنة " و" الغريب" والفل والقرنفل والزنبق والياسمين . مدينة النرجس والضعف والعبهر والزعتر والاقحوان والريحان والفيجن وعصا الراعي وشيبة الراهب وشقائق النعمان .

مدينتي الحبيبة السابية بفتن جمالها : بشمسها المشرقة ، وبحرها الصافي اللجي الازرق ، وشواطئها الناعمة البيضاء الرمال ، وسهولها المائجة ببحور الخضرة ، وخمائلها المفروشة ببسط السندس والاستبرق ، واوديتها العميقة الفياضة بشذا نفح الطيب والاريج ، المتجاوب في ارجائها خرير مائها المتناغم مع نجاوى الطير ووشوشات النسيم وسفوحها المنشورة على منحدراتها قطائف المخمل، وجبالها الملامسة بذرى اباتها جباه الكواكب ، وغاباتها المرصعة ببلور مرائي الغدران ، النائمة الحالمة تحت الظلال الرائمة الناعمة ، يترائ على صفحاتها الفضية مشق قدود الغصون وابتسام ثغور الازهار ، ولمون معاطف الاوراق ، وجداولها الجارية على نثير حصى كأنه فرط عقود الصبايا ، والمنسربة على صخور كأنها كتل الماس ، أو رقائق الذهب ."1"

في حيفا مدينتي الحبيبة درجت طفولتي اليتيمة الهائمة

1- ظلال الجمال ص 14 - 16 .

في أزقتها وشوارعها وسهوب سهولها ومنعطفات اوديتها وعلى رمال شواطئها ومنحدرات سفوحها ، وفوق قمم جبالها فحدبت على حدب الأم الرؤوم . قد كان لي في " وادي العشاق" و" وادي السياح " و" وادي الجمال " الحادرة من منعطفات "جبل الكرمل " الى سهل " برج الهزار " و" شاطيء الزورة " و" الشاطيء الازرق " . وكان لي عند مقام الخضر " وقرب " دير مار الياس " وحول قرية " الكبابير" ، وعلى رأس الجبل الملتفت ابدا الى آماد الغروب في الافق الواسع للبحر الابيض المتوسط ، والمتأمل ابدا في ابعاد الشروق على الخليج الهلالي الذي تلتمع في نهاية طرفه الشمالي " عكا " ، . . وكان لي في مغاني قريتي " دالية الكرمل " و" عسفيا " المعلقتين كسربين من الحمام الابيض على أعلى قمة من الجبل الشموخ " جبل الكرمل " . . وفي " وادي الياجور" و" وادي ريشة " و" وادي رشميا " المنقولة المباهج من جنة الخلود . وفي سهل "السعادة"المغمور مد البصر بالنرجس والنرجس المضعف وعند اندفاق ماء" نبع السعادة " الجاري بمثلوج ماء الورد ومذاب رضاب العسل ، كان لي في تلك القمم المطرزة بالزهر والشجر ، وفي تلك السفوح الغارقة بشلالات العطر والنور ، وفي تلك الاودية السكرى بأغاريد الطير وأغاني الرعاة ، وفي تلك السهول الموشحة الافاق بالعصافير والحمام والغمام ، كان لي فيها جميعها مهاجع ومضاجع ومضابيء ، كانت تحنو علي حنو المرضعات على الفطيم ، يوم

كنت آوي اليها لجوءا من ظلم الناس، أو هربا من قساوة الايام، أو استجما ما من عناء العمل ، فأقرأ في هيمنة هدوئها كتابا ، أو اقرزم شعرا ، أو استظهر قصيدة أو اغني نشيدا ، أو ارقب البحر أو اسامر القمر ، أو اساهر النجوم ، أو اتابع الشمس بالفكر والنظر." 1

" وتتغير حياة شاعرنا شيئا فشيئا ، فيبدأ في الخروج من عزلته في حيفا ، ليستجلي دنيا اخرى من وطنه الجميل . فهو في عمله ينطلق بالقطار من "حيفا" الى "عين حارود" الى "شطه" الى "بيسان" الى "جسر المجامع" الى "سمخ" حيث تربض هذه المدينة على ضفاف "بحيرة طبرية" . .

وفي أحضان الطبيعة ، وعند تسلسل الينابيع ، وعلى ضفاف البحيرة تبدأ قصة اخرى ، وصفحة جديدة حيث يلتقي الفتى في مرات متوالية عند نزوله في المحطة وتوجهه الى البحيرة ، بالانسانة التي احب ، والانسانة التي اختار ، والانسانة التي خفق لها قلبه . وتبتسم له فتشرق دنياه ، وتلتقي يده بيدها فيولد حب .

وتسحره البحيرة وتشده ، فهو دائما على ضفافها يقضي عندها وقتا بين ذهاب القطار وعودته يراقب الزوارق السابحة فوق صفحتها الزرقاء . "2"

وها هو ذا يناجي حبيبته "جميلة" بهذا النثر الشعري :

1- ظلال الجمال ص 19- 21 .

2- حيفا والبحيري ص 99- 100 .

أيتها الحبيبة ، أرأيت الى هذا الربيع الطلق الموشى؟

أرأيت الى هذا الزهر الراقص الباسم ؟؟

انهما ما خلقها الا ليكونا اطارا يحتضن حبنا ،

أصغي الى هذا النسيم الساري بين الاغصان ، مثقلا بالأرج والاعطار

انه يغني لتنام عيون الدهر عنا ، فنغتنم ساعات الهوى والشباب."1"

لكن عيون الدهر لم تنم كما تمنى الشاعر ، اذ سرعان ماتكدر الصفاء . فقد فجع البحيري في حب "جميلة" عندما ضربت يد العناد القبلي بينه وبينها ،فرفضه أهلوها لضيق ذات يده ، وقسوا عليه ففجعوه بالحب ،"2" فان انين المجروح في حبه ، وتخيل الشاعر المرهفة أن كائنات الطبيعة تشاركه حزنه والامه . يقول :

حير النجم مصابي
وبكى الليل لما بي

لولوعي ،لعذابي
لدموعي وشبابي

أين أيام التداني
أين أحلام الاماني

أين مني من شجاني
ماج حزني وسلا في

وأنا مازلت في ليل شجوني — هائما في بحر شكي وظنوني

ضاع عمري بين شوقي وحنيني — والتياعي وبكائي وأنيني"3"

1- مخطوط احلام البحيرة - حسن البحيري .
2- هيفا والبحيري ص 108 .
3- ديوان الاصائل والاسحار - حسن البحيري - شركة فن الطباعة بشبرا- القاهرة عام 1943م ص 11-13 .

ومرت الاعوام، وخفت عن شاعرنا قسوة الحياة التي عانى منها أيام طفولته. "وانفرجت ذات يده حتى حقق حلمه المنشود فابتنى بيتا صغيرا متعاليا في حضن الكرمل قريبا من ذرا ه سماه "جوسق الإلهام" "1". وفي هذا البيت قضى الشاعر أجمل أيام الشباب مرخيا لنفسه عنان التأمل في هذا الوجود: في الطبيعة التي تتألق على جبل الكرمل في أزهى حللها في البحر المتماوج تحت أقدام جبل الكرمل، يصفو حينا فيبدو كالبركة الساكنة، وتهيجه الريح فتضطرب أمواجه صاعدة هابطة، يتأمل السماء بنجومها اللامعة، وفجرها البهي الندي، وشمسها التي تذرع السماء بين شروق وغروب.

يتأمل طبائع البشر وما جبلت عليه من خير وشر، فيحلل ويستنتج، ويبدو ن هذا شعرا يفيض بزاخر عواطفه وأحاسيسه. ولم تكن حياة التأمل لتزوي شاعرنا عن الواقع الذي يعيشه وطنه وشعبه، فقد كانت تعميقا للوعي وتأصيلا للاحساس في نفسية الشاعر.

كان الشعب الفلسطيني في الثلاثينات يموج بالثورة بعد أن قطعت بريطانيا شوطا كبيرا في التآمر عليه، وتصدت بكل جبروتها الكبح جماحه. وازدادت حركة الوعي عند ابناء الشعب فعبروا بمظاهراتهم واحتجاجاتهم عما يشعرون به اتجاه بريطانيا

1- حيفا والبحيري ص 144.

المستعمرة ، والصهيونية التي تدبر من أجل السيطرة على البلاد واستعباد العباد .

كان البحيري مندفعا مع أبناء وطنه ، يخوض عمارات التصدي لموجات الظلم والارهاب يتحدى القتلة غير هيّاب ولا وجل . ويعايش الشاعر ثورة القسام ذلك المجاهد الشهيد الذي اتخذ من حيفا مركزا يبشر منه بدعوته للجهاد كما عايش الثورة الفلسطينية الكبرى التي تفجرت عام 1936م ، واستمرت أربعة أعوام شاهد خلالها قوافل المجاهدين يرخصون أرواحهم في سبيل الله والوطن .

" وقد وقفت حيفا قلعة للجهاد ، ترفع الراية من لحظات الاحتلال الاولى .. وهي بجمعياتها الاسلامية والمسيحية تحاول جمع الصف وتوحيد الكلمة ومواجهة الاستعمار والصهيونية مواجهة حقيقية "1" .

" وفي هذه البيئة وتحت سمائها نمت زهرة الوطنية في أعماق البحيري .. عندما اصطدم بواقع وطنه المر ، وتلقى دروسه الاولى من الحياة ، ومن الشارع ، ومن المجابهة اليومية للعدو ، فما لقنه ذلك أستاذ ولا علمه اياه معلم ، وإنما تلقى دروسه كلها على يدي الشعب ، والشعب هو المعلم الأعظم "2" .

وتمضي به الايام فيرى الجماهير الحاشدة المتحركة ، ويندس في تظاهراتها ويسمع طلقات الرصاص ، ويتلقى هراوات الجند

1- حيفا والبحيري ص 184 .
2- المرجع السابق ص 205 .

البريطانيين ،فتحفر كل هذه الاشياء أخاديد في ذاكرته لا ينساها، ويعي وجدانه صور رفاقه المسحوقين المشردين من حماليين وجواليين ، واجراء بملابسهم الممزقة ،ووجوههم التي أضناها الجوع وهدها السقام . كل ذلك يتراكم ليرسو في اعماقه بصمت ويدفع الى داخله بشحنات الوجد الوطني ، فقد وعى مبكرا كل ما يدور حوله ،وظل قلقه يساور روحه ويلهبها ،لكي تتدفق يوما بالعطاء والابداع . "1"

وقد تتدفق البحيري عطاء وابداعا ،فهو خطيب في التجمعات وملهب المشاعر ومقاتل مع المقاتلين .

كانت الاحداث في مدينة حيفا تتسارع بقوة بعد أن خططت بريطانيا والصهيونية لتفريغ مدينة حيفا من سكانها ،وبعد أن تعهد الجيش البريطاني بمنع كل النجدات عن المدينة في اللحظة المناسبة .. وقد أبرق مراسل الاهرام يقول :

" شهدت حيفا معركة حامية استعملت فيها كمية كبيرة جدا من الذخيرة ،وكانت لعلعة الرصاص تسمع في كل ركن وفي كل شارع .. وشن اليهود هجوما استعملوا فيه الرصاص والقنابل اليدوية والمدافع الرشاشة ،فتصدى لهم العرب وردوهم على اعقابهم.. كان اطلاق الرصاص اشبه بتساقط الأمطار" . "2" ويضيف في برقية أخرى : " كانت مدينة حيفا خلال الأربع والعشرين ساعة الماضية مسرحا لسلسلة من المعارك بين العرب واليهود في الشوارع والأزقة

1- حيفا والبحيري ص 183 - 184 .

2- جهاد شعب فلسطين ص 373 .

.. والبيوت ، وقد سجل العرب ضروباً من الشجاعة والتفاني والتفوق .. وحينما كانت طلائع شهر مارس عام 1948م .. وأحس اليهود بالتصميم القوي لشعب حيفا على القتال عمدوا الى ارهاب يشيعون به الرعب بين السكان اذ فجروا سيارة شحن تحمل برميلا به اربعمائة رطل من المواد الناسفة ،فجروها أمام دار السلام العربية المؤلفة من عدة طوابق ،وهي الدار التابعة للهيئة العربية العليا ،فاهتزت المدينة للحادث المرعب وتحطمت دار السلام ،ومعها المتاجر المجاورة ، وأصيب من شعب حيفا في هذا الحادث 67 شخصا كان قرابة ثلثهم شهداء .

وقد عمد العرب إلى نسف بناء شركة" سوليل بونيه" اليهودية وهو يضم فرع الوكالة اليهودية ،فتحطم بكامله . وكانت إصابات اليهود تقارب الخمسة والستين بين قتيل وجريح" 1

ويقول مؤرخ عربي : " لقد بذل المجاهدون من أبناء حيفا والقرى المجاورة لها كل طاقتها في وسعهم من جهد للتغلب على أعدائهم وكادوا ينجحون . وقاتلوا اليهود خمسة أشهر كاملة من 02 ديسمبر عام 1947م الى 22 أبريل عام 1948م فقتلوا من اليهود خلقا كثيرا ،ونسفوا معامل التكرير فحرموهم من النفط والبنزين .. وكثيرا ما نشب القتال بين الفريقين في المنازل والأزقة ،وكانوا أحيانا يشتبكون بالسلاح الابيض ، وبالأيدي والعصي من بيت الى بيت" (2)

1- جهاد شعب فلسطين ص 374 .

2- المرجع السابق ص 375 .

وكان الجيش البريطاني في حيفا شراً خطيراً على شعبها ، فحين نسف العرب سيارة يهودية محملة الفاما في شارع "هاشومير" وتضررت دور يهودية عديدة تقدم الجيش البريطاني فحاصر المنطقة العربية في "وادي النسناس" وأعمل يد الخراب في الدور والأشياء ، وسمح لجنده وضباطه بالسرقة والنهب .

وفوجيء العرب بالجيش البريطاني في الرابع عشر من فبراير عام 1948م يطوق جامع الاستقلال من البر والبحر مفتشاً كل جزء وباحثاً عن الاسلحة .. وبينما كان محمد فخر الدين اورخان المجاهد التركي الذي تطوع للجهاد قادماً من الاناضول يقود فريقاً من الفدائيين معداً كمية من المتفجرات ، اذ اطلق عليه الجنود البريطانيون رصاصهم فاستشهد . "1" وبعد أن صلي عليه سارت الجماهير بالنعش إلى مثواه الاخير . وبعد أن ووري في التراب بين التهليل والتكبير ، وقف الشاعر حسن البحيري فألقى كلمة رثاء ختمها بأبيات شعرية قوبلت بالتأثر العميق . "2"

ولا يكتفي البحيري بالكلمة الملتزمة فقط ، ولا يرضى أن يكون لسان شعبه فحسب ، بل يريد أن يكون الفدائي الذي يجسد بأعماله الفدائية التزامه بقضية وطنه وشعبه .

وقليل هم الشعراء الذين يتوجون نضالهم بحمل السلاح ، وقد كان الشاعر الفلسطيني الشهيد عبد الرحيم محمود

1- جهاد شعب فلسطين ص 375 .

2- حيفا والبحيري ص 270 .

والشاعر حسن البحيري في طليعة هؤلاء . فحسن البحيري يشترك مع الثوار سواء في التوعية السياسية أو التفتيش الليلي الذي تقوم به دوريات الثوار ،كما يقوم ببث الالغام . ومن أعماله البطولية الرائعة التي سجلها له التاريخ نسفه لمطحنة حيفا في شهر ابريل عام 1948م. تلك المطحنة التي كانت حصنا منيعا لليهود .

" وكان تدمير هذه المطحنة بجرأة وا حكام تامين ،فقد اتفق السيد حسن البحيري الموظف في سكة حديد حيفا مع سائق القطار بأن يضع اللغم الكبير الذي أعدته القيادة في احدى عربات القطار الداخل الى المطحنة . وبالفعل فقد انفجر هذا اللغم الكبير فدمر الواجهة الأمامية تدميرا تاما ،وتساقطت" (الماكنات) الهامة بكاملها ،وتصدعت العمارة من جميع جوانبها ،وبعدها أخذ المناضلون في قصفها وتدميرها بالقنابل الصاروخية وبلغ عدد القتلى 114 قتيلا" "1"

" ويبقى البحيري ليله ونهاره في القيادة مع الرجال ليواصل الرسالة ،لا يتقاضى على ذلك أي أجر أو أية مثوبة من أي انسان أو أي حزب ،أو أية فئة ، أو أية دولة ، انما كانت أعماله كلها خالصة لوجه ربه ووجه شعبه ووجه أمته ،وقياما بأجل واجب وطني ينبع حبه من أعماق وجدانه " ."2"

وتزداد الأحداث تسارعاً في مدينة حيفا ، ويقل السلاح

1- من أثر النكبة - محمد نمر الخطيب - المطبعة العمومية بدمشق عام1951م ط 1 - ص 258 - 259 - . انظر طريق العودة الى فلسطين - صبحي ياسين ص 26 . وانظر من اعلام الفكر والادب في فلسطين - يعقوب العودات ص35 - وكذلك حيفا والبحيري ص277-288 .

2- حيفا والبحيري ص 289 .

في أيدي المقاتلين ، وتعمل القوات البريطانية بتنسيق كامل مع القوات الصهيونية . . لقد جمع اليهود جنودهم وهاجموا المناطق العربية ،وأعملوا سلاح الفتك والقتل في الجميع ، لا يفرقون بين ذكر وأنثى ،ولا بين صغير وكبير . واستبسل حماة حيفا في قتال جنوني لا أمل لنصرهم فيه ، وحينما أقبلت جموع عربية من القرى المجاورة تنجد المقاتلين العرب ، تحرك البريطانيون فحالوا بينهم وبين دخول حيفا ، ولم يلق العرب سلاحهم ،ولكنهم تقدموا الى القيادة البريطانية يطلبون نقل الجرحى العرب الى المستشفيات ،فرفض الانجليز ولم يكتفوا بذلك ،بل وقفوا في وجه المناضلين العرب يصادرون ما معهم من أسلحة ويتركونهم طعمة لجحافل اليهود وسلاحهم. . واستنجد أهل حيفا بفنادل العرب وبقيادة الجيش الاردني التي كانت ترابط على بعد أميال منهم ،ووقف الجميع يتفرجون على مجزرة أريق فيها الدم العربي مدرارا وكأن الامر لا يعنيهم" . "1"

لقد ذكر مؤرخ عربي أن القائد الأردني قد هزه صوت السلاح يستعمل في عنف وشدة ضد قومه العرب في حيفا ،وعندما حاول التحرك لنجدتهم أنذره القائد البريطاني باطلاق النار على جنيشه لو فعل ذلك . "2"

وعندما عرض الجنرال البريطاني الموجود في حيفا على أهل حيفا تسليم المدينة ، كان الجواب : " لن نسلم مدينتنا " "3" .

1- جهاد شعب فلسطين ص 377 .
2- المرجع السابق ص 377 .
3- المرجع السابق ص378 .

وخاض أهل حيفا حربا غير متكافئة ، وتصدوا بكل ما يملكون لهجمات اليهود . وقد ذكرت وكالات الأنباء أن العرب لم يقابلوا الزحف اليهودي على حيفا مكتوفي الايدي ، بل تصدوا لقوات الهاجانا واشتبكوا معها في قتال مر ، ولا سيما حول جبل الكرمل ، وعند محطة السكك الحديدية ، وبعد معارك شديدة سقطت المدينة بأيدي الصهاينة المدعومين من بريطانيا يوم الخميس 22 ابريل عام 1948م . "1"

واعمل اليهود في السكان العرب سلاح القتل والابادة ، فقتلوا ومثلوا وسرقوا ونهبوا كل ما حوته المنازل العربية من مال ومتاع ، وألقوا بالقتلى أمام النسوة والأطفال ، وأدخلوا الدواب إلى مساجد المسلمين يتخذونها كاصطبلات ."2"

" وعندما انتشر الرعب مجتاحاً كل الاحياء العربية ، استقدم الاسرائيليون سيارات" الجيب" المزودة بمكبرات للصوت لكي تذيع تسجيلات لأصوات الرعب ،. وتضمنت هذه التسجيلات الصرخات والعويل والأنين المكروب للنساء العربيات ، وزعيق صفارات الإنذار ورنين أجراس سيارات الاطفاء ، حيث قاطعها صوت صادر من أعماق القبور ، ينادي بالعربية : ياجميع المؤمنين أنقذوا أرواحكم ، اهربوا وانجوا بحياتكم ، اليهود يستعملون الغاز والأسلحة الذرية أسرعوا في الفرار ناجين بأنفسكم على اسم الله" "3"

1- 2- جهاد شعب فلسطين ص 379 .

3- تهويد فلسطين اعداد وتحرير د . ابراهيم ابو لغد - ترجمة د . أسعد رزوق نشر منظمة التحرير الفلسطينية - مركز الابحاث سنة 1972م ص 207 .

وتدفق الناس نحو البحر ،الطريق الوحيد المفتوح أمامهم ، وهربوا باتجاه الميناء ،نزولا في الممرات الضيقة بصحبة الاطفال والشيوخ الذين داستهم الاقدام حتى الموت ،وغرقوا في المراكب المحطمة فوق طاقتها.

وفي هذه الدوامة وعلى جناح هذه العاصفة ،كان الشاعر حسن البحيري يتجرع الأسى ويكابد الألم على شاطىء مدينة حيفا . انه مع والدته في واحد من المراكب بين العشرات ،يرى بعينه الذين يغرقون والذين يصرخون والذين يبكون . وانطلق المركب يعاند الموج والزحام الى مدينة"عكا" "2" . وكانت عكا تزدحم بالآلاف اللاجئين من حيفا ،فانحشر ما يزيد على 80000 من المدنيين كالسردين داخل أسوار القلعة ."3"

وفي 17 مايو عام 1948م احتل الصهيونيون هذه المدينة ."4" وكان على البحيري أن يرى المأساة مرة اخرى ، فها هوذا يعود مع امه وآخرين منطلقا مع الريح العاصفة الى "بيروت" على مركب مثقل بالهموم والالام وسط غضب الطبيعة وظلم الغاصب ، وقسوة المعتدي . "5"

ومن بيروت يتجه الشاعر مع والدته الى دمشق حيث يبقيها في بيت الشيخ " أحمد بدر الدين مراد " ،ليعود الى فلسطين من أجل مواصلة النضال . وقد مر بمدينة"عمّان" ، ومنها اتجه الى القدس

1- تهويد فلسطين ص 209 .
2- حيفا والبحيري ص306 .
3- 4- تهويد فلسطين ص 211 .
5- حيفا والبحيري ص 308 .

فنابلس، ومن مدينة نابلس اتجه الى قرية "عنبتا" حيث أصر أصدقاؤه من أهل هذه القرية أن ينزل عندهم . وفي قرية عنبتا التقى بالشاعر المجاهد: عبد الرحيم محمود ، وقد عرض عليه البحيري أن يصاحبه في انطلاقه الى المعركة فوعد أن يصحبه في مرة قادمة .

وبينما كان البحيري في عنبتا وصل خبر استشهاد عبد الرحيم محمود في معركة الشجرة ، ووقف البحيري على منبر جامع عنبتا مؤبنا شاعر فلسطين الشهيد ،حيث ألقى كلمة مؤثرة اختتمها بأبيات شعرية استوحاها من جلال المناسبة :

"دثروه بالحرير الاخضر وادفنوه في ثرى من عنبر

واغرسوا ريحانة الطهر على قبره في نفث مسك أذفر

فهو في الحق شهيد مسلم كان منه فوق أسمى منبر"1"

غادر البحيري قرية عنبتا مع صديقه المجاهد "عبد القادر عكاشة" متجها الى قريتي "إجزم" و"عين غزال" بالقرب من حيفا ، ليشارك في نقل الاسلحة الى عدد من القرى الصامدة ، كما شارك في بعض الاعمال الفدائية .

وبقي البحيري في ميدان البطولة ، الى أن وقعت اتفاقية الهدنة الثانية في 18 جوليلية عام 1948م ، التي كانت خسارة للعرب ونصراً للصهاينة والامبرياليين . وبنفس تتفجر غيظا وألما نظم

1- حيفا في سواد العيون - حسن البحيري - مطابع أوفست العلم- دمشق سنة 1973م ط 1 ص 88 من مقطوعة الشهيد .

ملاحظة : ذكر في ديوان "حيفا في سواد العيون" سهوا أن مقطوعة الشهيد قيلت في دمشق عام 1949م والصحيح انها قيلت في رثاء عبد الرحيم محمود عام 1948م كما اخبرني الشاعر .

قصيدته "عمي الملوك" ينتقد فيها القيادات العربية المتآمرة التي كانت سببا في ضياع فلسطين .

اتجه البحيري الى مدينة القدس فوقف بالمسجد الاقصى يودعه ويناجيه بقصيدة مؤثرة يقول فيها :

وقفت بالمسجد الاقصى أسائله والنار في جنبات الصدر تستعر
وأدمع القلب تستتلني مآسيها من مهجتي دمعيني وهي تنهمر
مابال محرابك الطهري تغمره ظلال غم دجاها ليس ينحسر
وما لمنبرك القدسي مكتئبا فما عليه لصوت الحق منتبر "1"

ومن القدس اتجه إلى عمّان . وهناك ذهب رفقة بعض الاصدقاء لحضور احتفال تحت رعاية الملك عبد الله ، وكان احد الضباط الساميين الحاضرين لهذا الاحتفال يعرف البحيري ، فأوعز لعريف الحفل أن يدعوه لإلقاء إحدى قصائده . وقد حاول البحيري الاعتذار الا أنه وجد نفسه مضطرا للنزول على رغبة الحاضرين . وبنفس تموج بالألم ارتجل خطبة تفيض بالاسى ، اتبعها بقصيدته "عمي الملوك" التي يقول فيها :

وقل لعبيد أعراش بساعد غاصب تسند
فليس بهم سوى الاعمى وليس بهم سوى المقعد
أمّا فيكم ملوك العرب ذو هدي ولا مرشد
يخف لنصرة الاسلام لما صاح واستنجد "2" .

1- ديوان " لفلسطين أغني " - حسن البحيري - مطبعة دار الحياة - دمشق ط1 ص 83 .

2- حيفا في سواد العيون ص 76 .

وعندما انتهى من القاء قصيدته التي يهاجم فيها حكام العرب أحاط به أصدقاؤه خوفا عليه . وسرعان مانقلوه الى مدينة " الزرقاء " ومنها الى " المفرق " ومن المفرق الى " درعا " حيث اجتازوا الحدود السورية الاردنية ووصلوا " السويداء " .. ومن السويداء استقل البحيري السيارة الى " دمشق " .

وذات يوم وبينما كان يسير في أحد شوارع دمشق ، لمحه الزعيم العربي السوري " فخري البارودي " الذي كان يمر بسيارته فرحب به وأركبه معه ، وعندما عرف أن البحيري بلا عمل انطلق به الى دار الاذاعة السورية ، حيث رحب بهما مدير الاذاعة الاستاذ فؤاد الشايب . وقد طلب فخري البارودي لمدير الاذاعة أن يسند للشاعر البحيري وظيفة في الاذاعة ،فأسند اليه مراقبة النصوص الادبية . ومنذ عام 1948م وشاعرنا البحيري يعمل في الاذاعة السورية ، وقد قام بتقديم عدد من البرامج منها : برنامج اذاعي طريف بعنوان " مع القاموس " ، وبرنامج آخر بعنوان : " من تراثنا الادبي " "1" ، كما قدم كثيراً من البرامج منها : " طرائف الصباح " و " طرائف المساء " و " في روضة الشعر الغربي " و " في رياض الشعر العربي " ، ويضيف الاستاذ نجيب عفيفي فيقول : " عين مراقبا للقسم الادبي في الاذاعة العربية السورية .. وهو اليوم رئيس دائرة البرامج الثقافية في الاذاعة والتلفزيون . "2"

1- اعلام الفكر والادب في فلسطين - يعقوب العودات - جمعية عمال المطابع التعاونية - عمان سنة 1976م ص 35 .

2- من الادب المقارن - نجيب العقيقي - مكتبة الانجلو المصرية - القاهرة - الجزء 2 ط3 سنة 1976م .

وشارك البحيري في عدد من المؤتمرات التعليمية التي كانت تعقد باشراف ورعاية جامعة الدول العربية في كل من مصر وسوريا ولبنان والاردن . وفي عام 1972م احتضن مبنى جامعة الدول العربية في القاهرة اجتماعات لجنة وضع البرامج التعليمية الموجهة الى الطلاب العرب في فلسطين المحتلة . وقد حضر البحيري هذه الاجتماعات لتمثيل إذاعة فلسطين من دمشق بصفته رئيس دائرة البرامج الثقافية في اذاعة الجمهورية العربية السورية بدمشق . "1"

وزيادة على عمله في الاذاعة فقد علم في عدد من المدارس الثانوية بدمشق أستاذا للأدب العربي . وقد احيل على التقاعد في 10-08-1978م . وعندما زرت الشاعر بدمشق في جويلية عام 1980م ،أخبرني أنه يقوم بالقاء محاضرات في معهد الاعداد الاعلامي . وهو يعكف حاليا على أشعاره ينقحها ويطبعها.

ومازال وتر البحيري مشدودا يعزف عليه في الوقت الذي يشاء . وقد حظي البحيري باهتمام عدد من الكتاب الذين نشروا عنه مقالاتهم في الصحف والمجلات . الا ان أهمّ دراسة كتبت عنه هي دراسة الاستاذ الشاعر هارون هاشم رشيد الذي ألف كتابا عنوانه " حيفا والبحيري " ،وهو نفسه كاتب المسلسل الاذاعي الذي يحكي حياة البحيري . وقد كتبت مجلة الاذاعة والتلفزيون عن

1- حيفا في سواد العيون ص 18 .

المسلسل قائلة : انه . يحكي حياة شاعر رقيق أحالته القضية الى مناضل يكتب بالرصاصة والقنبلة . . وأحداث المسلسل يشترك في روايتها النثر والشعر في تلاحم درامي . وقد قام بالتلحين في هذا المسلسل الفنان عبد العظيم محمد ، وبالغناء محمد قنديل ، وقام بالبطولة أشرف عبد الغفور ، وعفاف شعيب وعايدة عبد العزيز ، وقد أخرج المسلسل مصطفى صادق . "1"

وقد أخبرني الشاعر أنه في احد المؤتمرات تقرر تعميم مسلسل " مدينة وشاعر : حيفا والبحيري " على جميع الدول المشتركة في جامعة الدول العربية ، وتكليف اتحاد اذاعات الدول العربية باستنساخ هذا المسلسل ، وتوزيعه مع طلب إذاعته على جميع الدول المؤلفة لجامعة الدول العربية . وهو مؤلف من إحدى وثلاثين حلقة .

كما حظي البحيري باهتمام الفنان الفلسطيني " مصطفى الحلاج " الذي رسم لوحة فنية سماها " حسن البحيري وحيفا " وهي تمثل فارسا يركب فرسا ، وهو رمز المخلص ، وامرأة يتحد جسدها بمدينة حيفا رمزا للأرض الأم . وفي هذه اللوحة يعبر مصطفى الحلاج عن أهمية الابداع بالنسبة للثورة ، ثم يقدم ولهه الصوفي بالأرض من خلال توحد بيوت حيفا وجسد المرأة الاسطورية . "2" وقد اختار الشاعر هارون هاشم رشيد هذا العمل الفني ليكون لوحة لغلاف

1- مجلة الاذاعة والتلفزيون - القاهرة - العدد 2182 الصادر في جانفي 1977 .

2- الفن التشكيلي الفلسطيني من 1927م الى 1975م تأليف عز الدين المناصرة منشورات فلسطين الثورة - نوفمبر 1975م ص 56 .

كتابه " حيفا والبحيري" .

ويعيش البحيري الآن وحيدا في بيته بلا زوجة ولا أطفال فقد حالت الاقدار دون زواجه . وهو يحاول تعليل ذلك فيقول : ربما كان مرد ذلك لعقدة نفسية انغرست في فؤادي ، عندما عانيت ما عانيت من ظروف الحياة القاسية ، فخشيت أن يعاني اولادي من ظروف الحياة نفسها . يضاف الى ذلك أن فقري في مطلع الشباب حال دون زواجي ،وكنت عندما اخطب احدى الفتيات أُجابه بالرفض من أهلها بسبب فقري . وكنت أسمع من قساة القلوب عبارات جارحة تعيّرني بهذا الفقر .،وقد اثر ذلك في نفسي تأثيرا عظيما . وعندما تحسنت أحوالي جربت حظي مرة اخرى ، وكدت أنجح في الزواج ، لولا تدخل الاقدار التي حالت دون تمامه . انها مشيئة الله ولا راد لما اراد .

وهكذا لا يؤنس البحيري في بيته الا مكتبته الخاصة ، وقصائده التي يحنو عليها حنو الوالد على اولاده . يضاف الى ذلك اللوحات التي تظهر معالم فلسطين ،وعلى الخصوص معالم مدينة القدس ومدينة حيفا .

ان الزائر للبحيري يشعر أنه داخل الى معرض للصور الفلسطينية . وقد أخبرني الشاعر انه عازم على اهداء بيته بكل مافيه لفلسطين ليكون متحفا فلسطينيا بعد مماته . وهكذا يكون البحيري الشاعر الفلسطيني الملتزم شابا وكهلا وشيخا . لقد غمره حب فلسطين وسيطر على مشاعره سيطرة كاملة ،فما عاد يزن الأمور الا بميزانها حبا وبغضا .

الفصـل الثـالـث

ثقـافتـه وأخـلاقـه

حياة البحيري -كما اسلفت- حياة من نوع خاص قل أن نجد لهـا شبيهـا في حيـاة شاعر أوأديـب . وتحصيـل البحيري لثقافتـه يندرج ضمن هـذا الحكـم . فهـذا الشاعـر الذي لم يزد تحصيله فـي المدرسـة عن الصف الرابـع الابتـدائـي ، استطـاع بعصاميتـه وبجهده الخاص أن يقـرأ الكثيـر الكثيـر ، وأن يسهـر الليالـي الطوال ، حتى كون حصياتـه اللغـويـة والادبيـة التي يـرى سبكهـا المحكم في كل أشعـاره .

ومما لا شك فيه أن هنـاك عوامـل كانـت وراء نبـوغ هذا الشاعر وفي تقـديري أن هذه العـوامـل تعـود الى مايلـي :

اولا : ذكـاؤه وموهبتـه :

كانت ملامح الذكـاء تبدو على البحيري منذ الصغـر ،على الرغم من ظـروف الحياة القاسيـة التي عانى منهـا وكان محط اعجـاب أساتذتـه ، لما كان يتمتـع بـه من ذكـاء يفـوق عمره الزمنـي . والتدليـل على ذلك اورد مثاليـن يوضحان هذا الذكـاء ويكشفـان عنـه . ففي رحلـة تفتيشيـة يأمر المفتش " خليل السكاكيني " وكان يصحبـه المفتش" جميل الخـوري "، وثلة من المعلميـن والمعلمات، يأمر تلاميذ الصف أن يفتحوا على درس " كسرى والفلاح " في كتاب

" القراءة الرشيدة " ، ويطلب أن يقرؤوا هذا الدرس ثم يكتب كل منهم أحسن كلام قاله " الفلاح الشيخ " لكسرى "أنوشروان" ولماذا ؟ . ويعطي التلاميذ فرصة لقراءة القصة والتفكير فيها والاجابة عنها . وتجمع اوراق الاجابة وتفرز منها ورقة كانت الوحيدة من بينها ، انها ورقة حسن البحيري ، وفيها : (قال كسرى : أيها الشيخ ليس هذا أوان غرسك الزيتون ، لأنه شجر بطيء النماء والاثمار وأنت شيخ هرم . فقال الشيخ : أيها الملك قد غرس من قبلنا فأكلنا ، ونغرس نحن ليأكل من بعدنا . وهذا أحسن كلام قاله الشيخ الفلاح لكسرى ، لأنه يبعث المحبة بين صغيرنا وكبيرنا ، ويربط ماضينا بحاضرنا . وقد كان الفلاح الشيخ في عمله مثالا لما ينبغي أن يكون عليه كل واحد منا في عمله ، حتى يعمل الكل لفائدة الكل) . "1"

ان هذا الاختيار وهذا التعليل يبعثان على الاعجاب حقا ، فاذا اضفنا الى ذلك جمال الاسلوب الذي كتبت به العبارة التي علق بها على سبب الاختيار ، تبين لنا ذكاء هذا الطفل الذي كان يومئذ في السنة الثالثة الابتدائية .

وقد حدثني البحيري أنه عندما كان في السنة الرابعة الابتدائية شرح لهم الاستاذ " عارف حجازي " درسا عنوانه " أجواد العرب في الجاهلية " ، وكان من هؤلاء الأجواد ، كعب بن أمامة الذي آثر رفيقه بالماء حتى مات هو عطشا ونجا رفيقه . وقد قيل فيه :

1- حيفا والبحيري ص 78 .

يجود بالنفس اذ ضن البخيل بها   والجود بالنفس أقصى غاية الجود

ويعترض البحيري على هذا البيت قائلا لأستاذه : أن في البيت خطأ .
وعندما سأله الاستاذ عن الخطأ قال البحيري : كان على الشاعر أن يقول : يجود بالنفس اذ ضن الكريم بها ، لأن من طبع البخيل أن يبخل بكل شيء فما بالك بنفسه . ومن طبع الكريم ان يجود بكل شيء حتى بنفسه . ولذا فان استعمال كلمة " الكريم " في البيت ادق دلالة في بيان المعنى المقصود .

ان هذا النقد الصادر عن صبي في مثل هذا العمر يدعو الى الاعجاب . وقد قصدت من هذا الذي أوردت الى تبيان ذكاء البحيري ، هذا الذكاء الفطري الذي يتدفق من الشاعر - متحديا ظروف التعاسة التي عاشها - كما يتدفق النبع من بين طيات الصخور .

وبجانب هذا الذكاء كان الشاعر على جانب عظيم من الموهبة ، فقد قرأت له قصائد مطبوعة في دواوينه يعود تاريخها الى عام 1936م . وهي متينة السبك ، ولم يكن شاعرنا يتجاوز السابعة عشرة ، ومما لاشك فيه انه قام بمحاولات عدة قبل أن يصل الى هذا المستوى من الاتقان .

وقد ذكرلي الشاعر أنه أصدر دواوينه الثلاثة : " الاصائل والاسحار " عام 1943م ،"وأفراح الربيع" عام 1944م و" ابتسام الضحى" عام 1946م وهو لا يعرف شيئا عن أبحر الخليل وتفصيلاتها .

وفي هذا دليل على أن الموهبة هي التي فرضت نفسها ، هذه الموهبة التي كان للناحية الوراثية أثر فيها ، فوالد الشاعر كان يكثر من ترديد المواويل يسري بها عن نفسه ، كما أن أمه كانت ندية الصوت تترنم بين الحين والحين بالاغاني المألوفة بين الناس آنذاك .

ومع أن البحيري لا يعرف اذا كانت المواويل التي كان يغنيها أبوه من ابداعه أم مما يشيع بين الناس ، الا أن ترديد المواويل و والاغاني من والدين أميين ، يجعلني أميل الى أن هناك شيئا داخليا في فطرتهما ، يمكن أن تطلق عليه التربة الصالحة للغرس الشعري . وأرى أن جذور الشاعر البحيري مرتبطة الى حد كبير بهذه التربة .

ثانيا : هيامه بالطبيعة :

لم يكن احساس البحيري بالطبيعة كاحساس معظم الناس ، فان لها في قلبه هوى خاصا . ويعود ذلك الى أن الطبيعة هي التي كانت تجلو همومه وأحزانه بجمالها وصفائها . وما أصعب الحياة التي عاشها البحيري في طفولته وصباه وما أقسى حياة البيت بالنسبة له ، لأن في البيت زوج الأم الذي لا يرحم وفيه الأم العاجزة عن توفير القليل من الحنان والرعاية له .

ولذا فان الطبيعة بالنسبة له هي البديل الاكبر عن الحنان

الذي فقده في البيت وهي مصدر البهجة الوحيد باشجارها وأزهارها وجبالها وأوديتها . وكانت الطبيعة جبل الكرمل الساحرة هي التي اسرته وسيطرت عليه . انه يشعر وهو بين أحضان الطبيعة ،انه طليق ككل الناس يتنقل بين الاشجار دون أن يقيد من حريته أحد ، وتحنو عليه الطبيعة كما تحنو على الاخرين بلا حسد ولا صخب ولا تمييز . ومن هنا فهي أمه الثانية وملهمته ، يستحم بصفائها من أدران الحياة الظالمة القاسية .

ومن ناحية اخرى صدم البحيري في صداقته ، كما صدم في حبه . وكان من الممكن أن يأخذ الصديق والزوجة من وقته شيئاكثيرا ، وأن يجد فيهما متعة تضاف الى متعته بالطبيعة . ومادام ذلك لم يتم ،فقد رسخت الايام في قلبه أن الطبيعة هي نبع الحنان الفياض . لقد نبت حب الطبيعة في ذاته منذ الصغر ،وأصبحت مادة ووسيلة لترجمة افكاره وعواطفه وأحاسيسه . ومع هذا كله لم يكن ممكنا أن يعشق البحيري الطبيعة هذا العشق ، وأن يهيم بها كل هذا الهيام ،لو لم يكن مهيئاً بفطرته لهذا التفاعل وهذا الهيام .

ثالثا : ثقافته :

ليس لأحد فضل على البحيري في ثقافته ،

فهو الذي بنى صرح هذه الثقافة لبنة لبنة حتى سمت وعلت. كان معلم نفسه بعد أن حالت الظروف القاسية بينه وبين مواصلة التعليم . وإذا كانت حياة أحسن الادباء لم تخل من يد رحيمة تيسر طريق الثقافة والمعرفة ، فان حياة البحيري كانت خلوا من ذلك كله ، فقد قطع الطريق الوعر وحده دون ظهير أو معين .

بدأ في صباه يقرأ كل مايقع تحت يده من كتب ، وكانت تستهويه القصص الشعبية التي تروي بطولات الأقدمين ، بغض النظر عما فيها من مبالغات ،كقصة " الزير سالم " و" تغريبة بني هلال" كما قرأ كتاب " ألف ليلة وليلة " ، وكان ينسجم في قراءة الحكايات الواردة فيه ويروّي خياله بأساطيرها .

وعندما تحسنت أوضاعه المالية ،وأصبح قادرا على شراء الكتب ،بدأ يطلع على عيون الأدب العربي كالأغاني "، ونهاية الأرب ،والبيان والتبيين ،وصبح الأعشى وغيرها من الكتب الادبية . كماكان يختار القمم الشعرية عند فحول الشعراء كالبحتري ، وابي نواس،وابي تمام ، والمتنبي ،وابي العلاء المعري ، ويحفظ معظمها . كما اطلع على دواوين الكثيرين من شعراء العصر الحديث ،وهو معجب بشعر شوقي ومسرحياته ، وحدثني انه يحفظ مسرحية " مجنون ليلى " عن ظهر قلب .

وهو دائم القراءة للقرآن الكريم ويكاد يكون حافظا له لكثرة مايقرؤه ويردده . وهو يختم القرآن في شهر رمضان

ويطلع على كتب التفسير ، وما كتب عن القرآن من بحوث .

ان الكتابة أنيس البحيري ورفيق عمره ، وهو يقضي معه نهاره وليله ، ولا يسمح لنفسه ان يهجر الكتاب مهما كانت الظروف . ولقد ادى هذا الى نمو معرفته وتنوعها ، وكان المحرك لهذا كله حافز داخلي ونفس طموحة تدفعه دوما الى الامام .

يجيد البحيري اللغة الانجليزية والعبرية ، وقد تعلم هاتين اللغتين من غير معلم ، بدأ تعلمهما من الشارع حيث كانت اللافتات تكتب بالعربية والانجليزية والعبرية ، ثم عكف على هاتين اللغتين حتى وعاهما بشكل جيد . وقد ترجم عن الانجليزية كتابا بعنوان " أوسكار وايلد " يتضمن عدداً من القصص طبع في دمشق عام 1953م ، كما ترجم عن الانجليزية قصصا كثيرة لعدد من الكتاب والادباء .

والبحيري يتعشق الموسيقا ، ومع انه لم يدرس الموسيقا كعلم له أصوله وأركانه ، الا انه يتذوق روائع الاعمال الموسيقية وبوجه خاص السمفونيات . ويعزو حبه للموسيقا الى اصغائه لزقزقة العصافير ، وتغريد البلابل في سهول قرية " سلمه " وعلى سفوح جبل الكرمل أثناء طفولته وصباه ، بالاضافة الى إصغائه للموسيقا التي كانت تحتوي عليها الافلام القديمة التي عرضت في دور السينما بحيفا ، فقد رقّ خياله بما رأى في تلك الافلام

من صور و معالم كما روّى سمعه بالموسيقا العذبة التي كانت تحتوي عليها تلك الافلام . ويشهد على حب البحيري للموسيقا قوله :

لئن يوما حدا بكمو حنين — لسكان القبور الدارسات
وأوقفكم على قبري اعتبار — أو استعبار عين الذكريات
فناجوني بناي أوكمان — لتسعد في حفائرها رفاتي "1"

ويعزف البحيري على العود عزفا مرضيا ،وكان يقتني عودا أطلق عليه اسم "فريد" كما اطلق على ريشته اسم "أحلام" ، ولكنه منذ ضياع وطنه فلسطين أقسم أن لا يعزف حتى يعود الى أرض الوطن . وها هو ذا يودع عوده بأسف بالغ :

أودع عهدك يامزهري — وداع حزين أسيف ندم
وداعا له في الفؤاد الملوع — وفي جنبات الضلوع ضرم
لقد كنت لي يا"فريد" الصديق — اذا الدهر يوما بخطب دهم "2"

وكان البحيري متفاعلا مع النشاط الثقافي في فلسطين ،فاشترك في كثير من الاندية والجمعيات التي كانت في حيفا" كجمعية الشبان المسلمين " و" جمعية الاعتصام" و" الجمعية الخيرية " و" نادي انصار الفضيلة" ،كما اشترك في "جمعية الشبان المسلمين " في القدس. وكان ينشر قصائده ومقالاته في "(جريدة" الدفاع" اليافية ، وفي الصحف والمجلات الحيفاوية ،وفي " الرسالة " القاهرية و"الاديب" البيروتية) "3" ومازال الى الآن ينشر قصائده في كثير من الصحف والمجلات..

1- ديوان افراح الربيع ص59 .
2- المصدر السابق ص 72 .
3- من اعلام الفكر والادب في فلسطين ص 35 .

رابعا : احداث عصره :

وعى البحيري المؤامرات التي دبرت ونفذت ضد وطنه ، ورأى جنود البغي والعدوان وهم يمارسون اقسى انواع الظلم والارهاب ، وشاهد المسيرات الضخمة لابناء شعبه تحتج على هذا الظلم ، وعايش الاف المجاهدين الذين يقدمون أرواحهم رخيصة في سبيل الواجب . رأى وسمع وقرأ عن تضحيات الابطال الذين علقتهم بريطانيا على أعواد المشانق ، وشاهد السرطان الصهيوني يستشري في جسم وطنه بتشجيع من بريطانيا الدولة المنتدبة والامبريالية العالمية . وخاض هو نفسه معامع الحرب ، فما كان للبحيري الشاعر الكادح ، الا ان يكون مع شعبه الكادح المظلوم . ولذا لم يكن يعيش على هامش الاحداث بل كان من المشاركين في صنع الاحداث بطولة واقداما .

وعاصر البحيري أحداث الحرب العالمية الثانية ، ورأى انعكاسات هذه الحرب على وطنه وأمته العربية ، التي كانت تئن تحت نير المستعمرين من المحيط الى الخليج . وشاهد من موقع الاحداث مهزلة القيادات العربية المتآمرة ، التي مثلت مسرحية تحرير فلسطين عام 1948م ، والتي انتهت باسدال الستار الكئيب على مأساة فلسطين ، بعد تضييع الارض وتشريد الشعب .

كان لهذا كله أثر كبير في رسم المعالم الاساسية لشعر البحيري . لأن هذه الاحداث التي عاصرها هي الارض الخصبة التي تفتقت منها قصائده ، والنبع الثري الذي تتدفق منه شاعريته ، ولولا هذه الحياة القاسية العنيفة التي عايشها البحيري ، وامتزجت بلحمه ودمه لما كانت شاعريته . فالحياة العنيفة القاسية - على حد تعبير المرحوم الدكتور حفني داود - هي الصانع الوحيد لابعاد هذه الشاعرية .

أخلاقه وصفاته

البحيري شاعر ربته مدرسة الحياة منذ طفولته فخبر حلو الحياة ومرها، وهدته فطرته السليمة للتمييز بين الخير والشر. وكان لنشأته القاسية أثر كبير في شخصيته، فنشأ كارها للظلم والظالمين. كره زوج أمه لأنه فظ غليظ القلب، وهو يكره الظلم أيا كان مصدره. وهذا مايفسر محاربته المستعمر الظالم بقوة السلاح من خلال أعماله الفدائية، ووقوفه بشموخ المقاتل ايقول كلمة الحق يصفع بها الحكام الجائرين.

انه لا يداهن احدا ولا يتملق مسئولا، وهو اذا أثنى على احد او هاجم احدا، فانما يكون ذلك نابعا من اقتناعه الذاتي بصحة ما يقول لأنه لا يرضى لنفسه أن يكون إمّعة.

فرضت عليه الحياة أن يعتمد على نفسه، فعال نفسه في وقت مبكرا جدا، كما عال أمه وضمها اليه في وقت مبكر ايضا. وهو بجانب ذلك ذو قلب رحيم، فقد رعى امه أحسن رعاية، على الرغم من انها لم تمنحه من الحنان ماكان بحاجة اليه ايام أن كان زوجها الظالم هو الآمر الناهي، وبقي خادما لها حتى وافتها المنية لا يطمع في غير رضى الله ورضاها.

انه رحيم بالحيوان، وقد شاهدته وهو يمسك بقطة صغيرة

كانت تموء بالقرب من شباك منزله ،فاحتضنها وبدأ يمسح بيده على جسمها حتى استكانت واطمأنت ،ثم قدم لها ما تأكل وتشرب وامارات الرحمة والاشفاق بادية على وجهه .

انه يساعد الناس بمقدار ما تسعفه به الحال ،وهذا دليل على سمو النفس وكرم الطباع . كنت عنده ذات ليلة عندما دخل عليه احد الاساتذة ومعه ابنه الفتي ، وما أن جلس حتى انهال بالشكر العميم على البحيري ، معترفا بأياديه البيضاء التي لن ينساها طيلة حياته . وقد قال الاستاذ لابنه على مسمع مني : يابني ان الشاعر حسن البحيري فضلا على ابيك ولولاه لما وصلتُ الى ما وصلتُ إليه من درجة علمية . فأوصيك أن لا تنسى فضل هذا الرجل ،فجميله دين في عنقي وعنقك .
ومن خلال الحديث تبيَّن لي أن البحيري قد كفل هذا الاستاذ ، ووضع بيته تحت تصرف الكفالة مقابل أن يذهب الى بريطانيا لمواصلة دراسته العليا التي دامت عدة سنوات حصل بعدها على شهادة الدكتوراه . وبلطف جم قال البحيري على استحياء :
يا أخي لقد غمرتني بلطفك ، فأنا لم اقم الا بما يمليه علي الواجب وتمنى الأستاذ الدكتور كل تقدم ونجاح في حياته العملية .

إنه وفيّ شديد الوفاء لأصدقائه ،وقد شاهدت خلال زياراتي له مدى حبه لأصدقائه وحب أصدقائه له .

وقد اصطحبني لزيارة صديقه المؤرخ الفلسطيني "عزة دروزة" وهو رجل مسن نيف على التسعين ، وقد رأيت في بيت هذا المؤرخ الذي يطيب للشاعر أن يسميه بيت فلسطين ، قصيدة شعرية من نظم حسن البحيري يشيد فيها بهذا المؤرخ الكبير وبيته الذي يعتبره بيت مجد وعز . وقد ضم القصيدة المكتوبة بخط جميل اطار يتصدر غرفة الجلوس . وكان الشاعر قد قرأ لي هذه القصيدة قبل ايام من ذهابنا ، ولاحظت انفعالاته وهو يقرؤها مترنما بأبياتها معتزا بمضمونها ، فعرفت ان هذا الشاعر يعيش بقلب طاهر ، يحب الناس ويعجب بالعصاميين العظماء ، ولاسيما اولئك الذين قضوا حياتهم في خدمة وطنهم وأمتهم . وتقابلت عند المؤرخ مع عدد من أصدقاء المؤرخ والبحيري ولمست ما يكنونه لهما من عظيم المحبة والتقدير .

تظهر على وجه البحيري أقل درجات الانفعال سواء كان ذلك في حالة الفرح أو في حالة الغضب . واستطيع القول : انه من النوع الذي لا يستطيع كتم انفعالاته ، فهو اذا ابتسم ابتسامة خفيفة ابتسم وجهه كله . واذا استاء من شيء قرأت ذلك على وجهه بوضوح . وتستجيب عيناه لانفعاله ، فقد قرأ لي مختارات من قصائده ، وكان يقف عند بعض الابيات التي صب فيها عصارة احاسيسه وعواطفه ، يقرؤها بصوت ايحائي وايماءات لها دلالاتها . والمح درجة التأثير في عينيه اللتين يتوارى فيهما الدمع . وتبلغ درجة

التأثير حدها عندما يقبل أبياته بشوق وانفعال . وهذا ان دل على شيء فانما يدل على سيكولوجية الشاعر الاصيل واعجابه بفنه على حد تعبير الدكتور حفني داود -رحمه الله- .

انه تقي محافظ على صلاته وصيامه ، يقرأ القرآن قراءة عابد متبتل . ومن عادته انه يفيق في الصباح الباكر ، وهو يحب أن يرقب انبثاق الفجر ، وغروب الشمس ، ولا ينام الا اذا هيمن السكون الشامل ويقلقه في منامه حتى الخفيض من الاصوات .

وهو يحب المشاوير البعيدة ،لأنه يحب المشي . ومن عادته انه يحب المشي في الاماكن المشمسة صيفا وشتاء . وعندما سألته عن سبب ذلك أخبرني : أنه يشعر بالنشاط وهو يمشي في الامكنة المكشوفة المشمسة . و

وهو يجيد السباحة ،ويستطيع البقاء تحت الماء مدة لا يتحملها الكثيرون من السباحين على الرغم من صغر رئتيه ، ويعود ذلك الى المران من ناحية والى عدم التدخين من ناحية اخرى .

والبحيري ليس عنده ساعات خاصة لنظم الشعر ، فهو يكتب في كل الاوقات وفي كل الظروف .وهو متوسط الطول ، رشيق الجسم ، يمشي معتدل القامة مرفوع الرأس ،سريع في مشيته ، يتنقل بخفة ونشاط لا يقل عن نشاط الشباب . وهو ندي الصوت ، حاد السمع ،

صحيح "البصر، حليق اللحية والشاربين، يعلو وسط رأسه قليل من شعر تمرد على الصلع.

والبحيري يرتاح له جليسه، وهو خفيف الروح يكاملك بكل جوارحه، ويأسرك بمودته كأن بينك وبينه مودة من عهد بعيد. وهو يحترم جليسه اشد احترام، ويشعرك وأنت في بيته بأنك صاحب البيت بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى. وهو أبعد الناس عن التزمت أو الظهور بمظهر المتكلفين. انه يأسر جليسه ببساطته وعفويته، ويكشف له عن ذاته وشخصيته، فيتعرف اليه دون صعوبة أو مشقة. وهو بصراحته يكشف عن أمور قد يعتبرها البعض أسرارا أو أموراً خاصة، لكن البحيري يعتز بذكرها لجليسه. ذلك أن هذه الامور التي قد يخجل البعض من البوح بها، هي في حد ذاتها مفتاح شخصية هذا الشاعر، وهي الطريق الموصل الى جوهر عصاميته.

آثاره الادبية:

للبحيري انتاج شعري ونثري، منه المطبوع ومنه المخطوط . وقد طبع ثلاث مجموعات شعرية قبل النكبة الفلسطينية عام 1948م، ثم طبع عدداً آخر بعد عام 1970م ، وبقي عند الشاعر الكثير من القصائد المخطوطة . كما ان للبحيري أعمالاً نثرية طبع منها القليل .

وفيما يلي بيان اذلك .

آثاره الشعرية :

1- الاصائل والاسحار: (ديوان شعر) نشره نادي انصار الفضيلة بحيفا وطبع في شركة فن الطباعة بشبرا- القاهرة عام 1943م.

2- افراح الربيع : (ديوان شعر) نشره محمد أحمد حجازي بحيفا ، وطبع في شركة فن الطباعة بشبرا - القاهرة عام 1944م

3- ابتسام الضحى : (ديوان شعر) نشره صندوق الأمة العربي بفلسطين ، وطبع في شركة فن الطباعة بشبرا - القاهرة عام 1946م.

4- حيفا في سواد العيون : (ديوان شعر) طبع في مطابع أوفست المعلم بدمشق عام 1973م .

5- افلسطين أغني : (ديوان شعر) طبع في مطابع أوفست دار الحياة بدمشق عام 1979م .

6- ظلال الجمال : (ديوان شعر) طبع في مطابع أوفست دار الحياة بدمشق عام 1981م .

7- الانهر الظمأى : (ديوان شعر) طبع في مطابع دار الحياة بدمشق عام 1982م .

8- تبارك الرحمن : (ديوان شعر) طبع بدار الفكر بدمشق عام 1983م .

9- الوجوبيات او وجوب مالايجب: مخطوط شعري .

10- دعاء السراب : (ديوان شعر) تحت الطبع .

11- جنة الورد : (ديوان شعر) تحت الطبع .

أعماله النثرية :

1- اوسكار وايلد : (أقاصيص مترجمة) نشرته دار اليقظة العربية في دمشق ، وطبع في مطبعة دمشق عام 1953م .

2- رجاء : (قصة شرقية) تحت الطبع .

3- أحلام البحيرة : (شعر منثور) تحت الطبع .

4- ألوان : (آداب وأحاديث) تحت الطبع .

5- أول طيرانه : (أقاصيص مترجمة) مختارة من القصص العالمي ، تحت الطبع .

6- بلادنا لنا : (تعاليق سياسية) كتبها الشاعر واذاعها من اذاعة دمشق عام 1957م تحت الطبع . "1"

وبعد ، فهذا هو الشاعر البحيري الذي يقف في طليعة شعراء فلسطين فنا والتزاما . وأرجو أن أوفق في الكشف عن شاعريته . والله من وراء القصد .

1- انظر ظلال الجمال ص 156 - 158 . وكذلك الانهر الظمأى ص158-159 .

الباب الثاني

شعر البحيري

الفصل الأول

شعر الطبيعة

ليست الطبيعة عند البحيري غرضا من أغراض شعره فحسب ،فهي تمثل علاوة على ذلك الأرضية لمعظم شعره . وفي هذه الأرضية تمتد جذور قصائده التي تتشكل وفق الغرض الذي يرمي اليه . واذا كانت الطبيعة عند عدد من الشعراء غرضا شعريا فانها عند البحيري . أعمق من ذلك بكثير ،لأنها تعمقت في ذاته واحتوته وسيطرت عليه ،فأصبح ينطق بلسانها عما يريد .

ويعود تعلق البحيري بالطبيعة الى نشأته الاولى -كما أشرت في الباب الاول - ،فقد فتح عينيه على جمال الطبيعة في سهول " سلمه "الفسيحة ، ثم عب بعد ذلك من الجمال الأخاذ لأودية جبل الكرمل وشعابه . وتمتع بجمال فلسطين المتنوع المشاهد والمناظر ، يدلنا على ذلك ما ورد في افتتاحية ديوانه" أفراح الربيع" حيث يقول : " في زوارق الأحلام ومراكب الأماني ، وعلى أجنحة الخيال ،

تحت ظلال القمر وبين أحضان الزهر ، وفي شباب الربيع ، وربيع الشباب ، عند مسارب الجداول اللاهية ، وعلى أغاني الطيور الشادية ، وفي أفياء الغصون الحانية ، في سكون السحر ، وابتسام الضحى ، من در الظلال ، وماس الأنداء ، بأسلاك من الاشعة والنور ، نظمت عقود " أفراح الربيع " . "1"

كان لنشأته القاسية أثر كبير في توجهه الى أحضان الطبيعة ، واذا كانت الطبيعة عند البعض مجالا الترفيه والتسلية ، فلأنها عند البحيري ، البيت والملجأ الأمين الذي يحتمي به فرارا من عذاب الناس ، وفرارا من شظف العيش الذي لا يرحم . ومن هنا كان بديهيا أن تكون الطبيعة هي المنهل الذي ترتوي منه قصائده ، وكان بديهيا كذلك أن تلبس المعاني والصور في هذه القصائد أرديتها من الطبيعة .

ويصعب على الدارس أن يجد قصيدة من قصائد البحيري لا تتجلى فيها الطبيعة على نحو من الانحاء ، ففي شعر الحب كما في شعره الوطني والقومي والديني تبدو الطبيعة بجلاء ووضوح . وسأفصل القول في ذلك عند التعرض لهذا الشعر ، ولكنني في هذا الفصل قصرت الحديث على شعر الطبيعة باعتباره غرضا مستقلا . واذا كان البحيري في الاغراض المتعددة في شعره ، قد عبر من خلال الطبيعة عما يريد ، فانه في شعر الطبيعة يعبر عن حبه وتفاعله مع الطبيعة نفسها . فالطبيعة في هذا الفصل

1- أفراح الربيع ص 7 .

غرض يعنى به الشاعر، وليست وسيلة لغرض شعري آخر .

" وقد تناول شعر الطبيعة في العربية ،كما تناول عند الغربيين الطبيعة الحية والطبيعة الصامتة . ويقصد بالطبيعة الحية ما اشتملت عليه من أصناف الحيوان ما عدا الانسان ،وبالطبيعة الصامتة ،مظاهرها ووجودها المتجسد في سهولها ، وبحارها ، وسمائها ، وبواديها ،وحدائقها ،وحقولها ،وما الى ذلك . وقسم بعضهم الطبيعة الى طبيعة طبيعية وهي ما أشرنا اليه ، وطبيعة صناعية ، وهي التي عمل الانسان في تأليفها وتنسيقها كالقصور والبرك والزخارف المرمرية، وما الى ذلك " "1" .

وبغض النظر عن الآراء حول شعر الطبيعة ، فقد كان شعر البحيري عن الطبيعة الصامتة بالدرجة الاولى . " والطبيعة الصامتة الطبيعية أكثر ملاءمة لمفهوم كلمة الطبيعة ، وأكثر ايحاء للحس الطبيعي . فهي التي تحدث في النفس ذلك الحس الشعوري الذي ينبض بجمالها " "2" . على أن البحيري لم يهمل الجوانب الأخرى من الطبيعة ،فتحدث عن الطبيعة الحية كالطيور ،والصناعية كالبرك . لكنه في حديثه عنها لم يصفها لذاتها بل وصفها من خلال مشهد طبيعي متكامل مركزا عدسته عليها في بعض الاحيان لإبراز ما فيها من جمال .

ويمكنني أن أقسم شعر الطبيعة عند البحيري إلى قسمين قسم

1- في الادب الاندلسي - د . جودت الركابي- دار المعارف بمصر سنة 1960م ص 125-126 .

2- المرجع السابق ص 126 .

يصور فيه جمال الطبيعة تصويرا عاما ، حيث تجتمع المشاهد الكثيرة في قصيدة واحدة ، وقسم يصور فيه الجمال من خلال تركيزه على مشهد واحد .

ولنبدأ بالقسم الاول الذي يتحدث عن الجمال المتعدد الجوانب ، ونستطيع تبيين ذلك من خلال النص الآتي الذي يتناول سحر الربيع وجماله .

هل سحر الربيع بعد افتتانه ... فتجلى يمنا على أكوانه
وتهادت بشراه بالبشر تيها ... بين أفواره وفوق رعانه
فهي عطر من باسم الزهر يمشي ... بين أيدي الصبا ومن وسنانه
وازدهى الحسن في وضيء سناه ... فهو سكران من سلاف دنانه
جر بين الزهور ذيل دلال ... فتهادت اثماً على أرجوانه
وهفت بالهوى إليه الأماني ... لتقيم الأفراح في ميدانه
والعصافير مرسلات على الكرمل شدواً يقول رجع حنانه
يالبهر الجمال في موكب الحب ... وسحر الربيع في ريعانه
فهو طيف يطوف من جنة الخلد وراح الارواح في ريحانه
ينشر الوشي في الخمائل والأيك ويرمي الربا بنثر جمانه
نشوة الشعر في طلا السحر ماست ... بين ألوانه وفي ألحانه
وشفيف السنا يمور بأمواج عطور تضوع من طيلسانه
لؤلؤ الطل فوق كم وثغر ... لاح من ورده ومن أقحوانه

نظمته يد النسيم عقودا ... من لجين الندى ومن عقيانه

وظلال الجمال رفت عليه ... فهو من تاجه ومن صولجانه

وابتسام الضحى عليه تلالا ... فبدا كالنجوم في لمعانه

نور النور فانتشاء ودلّ ... وائتلاق يزهو على ألوانه

وتغني السري في الغاب لحناً ... حرك الطير في ذرى أفنانه

فتناجى بوجده وتهادى ... فوق أغصانه جلي بيانه

ماترى الكون روض حسن تلاقت ... فيه ألحان طيره بقيانه

روض حسن يضوع نشرا وطيبا ... مال صفصافه على زعفرانه

وسرت صبوة الشباب وغنت ... باسمات الآمال في أحضانه "1"

من هذا النص يتضح لنا أن الشاعر تحدث عن أثر الربيع في الطبيعة ، وما بثه فيها من جمال وبهجة . تحدث عن مشاهد الطبيعة من جبال ، وسهول ، وأودية ، وعن جمال الزهور وأريجها الفواح ، عن البلابل التي تغني ألحانها العذبة ، والعصافير التي ترسل شدوها من على جبال "الكرمل" . يتحدث عن الجمال في الخمائل والأيك والربا ، وعن الضوء والندى والنسيم ، عن ابتسام الضحى الذي يجلي جمال الزهور ، عن اشجار الصفصاف والزعفران المتمايلة مع أنسام الربيع . ان الشاعر يرسم لوحة ربيعية متعددة المشاهد ، هادفا من وراء ذلك الى تبيان جمال الربيع ، وسحر الطبيعة الفتان .

وها هو ذا يتحدث عن مدينة دمشق ذات الجمال الطبيعي

1- ظلال الجمال ص 75-79 .

الساحر ، فتتعدد المشاهد على نحو ماقرأنا في النص السابق . وهو لا يكتفي بتصوير طبيعة دمشق الجميلة ،بل يتعداه الى جمال المدن والاماكن القريبة مثل " دُمّر " و " الهامَة" و " الربْوَة" . ولذا فان البعد المكاني لهذا النص محدود بأماكن ومعالم مذكورة ، بينما لانجد هذا التحديد واضحا في النص السابق . يقول :

أجنة الخلد فيها الحسن ألوان ... زفت بشائرها حور وولدان
ألقت علينا ظلال الأمن وارفة ... فما علينا بها الدهر سلطان
أم سانح الوهم بالاحلام مثلها ... منضورة فهي للأحلام بستان
لاحت كلمح الأماني في خواطرنا ... ونحن من نشوة الامال جذلان
أم حوّل الحول فاهتزت بنا وربت ... أيام"أيلول"1 نبتا فهو"نيسان""2"
وازّينت بالربيع الأرض فهو لها ... وشي وحلي وأصباغ وألوان
بل هذه" جلّق الفيحاء" ماثلة ... ماحاكها من رؤى الأوهام حسبان
أديمها بابتسام الورد مزدهر ... ودوحها بالشذا الفواح سكران
والكوثر العذب نضاخ بفيجتها" "3" ... شهدا موارده روح وريحان
" ودُمّر" منبع الخمر التي سكرت ... منها الليالي فهن الدهر نشوان
قد ضمها " بردى " شوقا وأرشفها ... من صرفه فثراها منه ريان
جرى لها سلسلا يسقي خمائلها ... فتحتها منه أسياح وغدران
مالت عليها غصون ما هفت ظمأ ... الا انثنت ولها في الريح ألحان
نسيمها نغم أصغى الزمن له ... وكله لفريد اللحن آذان

1- أيلول هو شهر سبتمبر 2- نيسان شهر ابريل
3- الفيجة : نبع معروف يشرب منه سكان دمشق والمدن المجاورة لها .
4- دمر : مدينة قريبة من دمشق مشهورة بجمالها .

فهام في غمرة الآباد ابيس اسه   من غاية فهو عمر الدهر نشوان
ووارف الجور في أرجائها عبق   وباسق الحور الفينان ميسان
كأن أوراقه والريح ترعشها   قلوب حب لها بالخفق امعان
تغدو عليها الصبا بالعطر ناعمة   وغصنها في مهود الصفو وسنان
فتبعث الشوق في أوصالها لهوى   لا يستقر به في الخفق وجدان
يهزها فوق أدواح مهومة   نفح الجوى وهي اغصان وافنان
فهل رأيت قلوبا بالجوى خفقت   ومالهن على الأيام أبدان
والسحر في " الهامة"1 الغناء موئله   فكلها اجلال السحر أحضان
الطير فوق الاعالي من خمائلها   قيان شدو لها الأدواح عيدان
والماء صفحة تبر بالسنى جايت   كأنها صحف والشدو قرآن
و" ربوة"2 الحسن والأحلام مغفية   في صمت أظلالها غيداء مفتان
ألقت بمطرفها عن صدرها فبدا   عريان والكشح كاس وهو خمصان
و" الواد" موءتزر استبرقا نضرا   وشاه في كنف الفردوس" رضوان"
حصباؤه من عقود الغيد قد فرطت   فشاطئاه يواقيت ومرجان
وليس في رهوه المخضر من حجر   الا أنز رحيقا وهو صفوان
فبالوادي لجين فوق عدوته   زمرد يتهاوى منه عقيان
و" الغوطة ""3" البحر رجافا بلجته   لكن لجته نبت وأغصان
تخوضه لمحات الفكر شاردة   وفيه تغرق أحلام وأذهان
فلو تنظرتها من " قاسيون""4" ضحى   ومرجها مشرق الافاق ضحيان
لخلت ماماس مد الطرف من حور   منارات فلك لها الانسام ربان

1- الهامة : مدينة تقع بالقرب من دمشق   2- الربوة : منطقة زراعية بدمشق .
3- الغوطة : منطقة مشهورة ببساتينها تقع بضواحي دمشق .
4- قاسيون : جبل عال يطل على مدينة دمشق .

وخلت افنانهـا الأمواج في اجـج ... ماان اها من أديم الأرض شطـآن

حباكم الله اهل الشام تكرمـة ... بجنة الأرض والرحمن رحمـن

دمشق اولاك ماهل الربيـع ولا ... ازدانت بزخرفه الموشي أوطان

فمنك تستقبل الدنيا بشائـره ... ومنك تمضي به في الأرض ركبان

عجبت الناس يرجون الربيـع اذا ... واي وشرخ صباه فيك ريعان

وعطره من شذا رباك مقتبـس ... وحسنه منك اجمال واحسان

لو لم تكن جنة الفردوس قد خلقت ... اكان فيك عن الفردوس غنيان"1".

يتضح من هذا النص أن الشاعر قد ضمن نصه الكثير من المناظر الطبيعية ، فالورد يغطي أديم الأرض ، ورائحة الزهور عابقة في كل الارجاء ، وازينت الأرض بالربيع ، ونبع " الفيجة" يسيل بمائه العذب ، ومدينة " دمر" يحتضنها " بردى" ، ويسقي خمائلها وورودها ، وأشجار الحور تميس بقدودها الفارعة الفينانة فترتعش أوراقها كما ترتعش قلوب المحبين . ويتحدث عن " الهامة" مدينة الجمال الساحر و" الربوة" موطن الحسن والالهام ، وعن الوادي الأخضر الذي يربط بين " الهامة" و" دمر" و" دمشق" ، وعن " الغوطة" التي تبدو للناظر اليها من جبل"قا سيون " كأنها بحر أخضر اجتـه نبت وأغصان . وهكذا تبدو دمشق ا اجمالها وبهجتها جنة الله في الارض.

ان النص السالف الذكر يوضح مدى مهارة البحيري في الجمع بين المشاهد الطبيعية المتعددة ، التي سخرها جميعا لخدمة الهدف

1- الانهر الظمائي ص123 .

الذي ساق القصيدة من أجله ، وهو تبيين الجمال الاخاذ ادمشق الفيحاء . ولما كان الشاعر حريصا على حشد المكونات الجمالية ، فانه لم يتوقف الا قليلا عند جزئيات المناظر الطبيعية التي أوردها . وهذا شيء طبيعي حيث أن الجمال الذي يراه الشاعر ممتدا على مد البصر ، لا يمكن أن يقف على دقائقه ، ولا بد له من الاجمال ما دام قد هدف الى الإحاطة بما يرى .

وعندما يكون المنظر الطبيعي الذي يتفاعل معه البحيري ضيقا نسبيا ، فان المجال يسعفه في بسط المكونات الجمالية لذلك المنظر ، بشكل لا نراه في قصائد الطبيعة الاستعراضية الشاملة كالنصين اللذين استشهدنا بهما . ولتوضيح ما قصدت اليه أورد ما قاله في "بساتين البهجة بعكا" . وواضح من تحديد الموضوع أن المجال محدود نسبيا اذا ما قيس بمجال النصين السابقين ، وهذا ما ساعده على التركيز والتتبع لعدد قليل من المشاهد الطبيعية . يقول :

مرنم هام من ورد وريحان   يسجع اللحن في مياس أفنان
غنى على غصنه شجوا فيهيّج بي   ما ليس يدرك افصاحي وتبيانني
خوالج النفس من غور الأسى انبعثت   فمار في بحرها الناجي تَحنانــي
ولاح لي من سراب العيش لمح ضيا   هفت اليه صباباتي وأشجاني
لما ترنم في الصفصاف بلبله   بعبقري من الألحان فتان

لا أمن عصفورة بالخفض رافهــــة   في وارف من أنيق الروض ريـــان
وزقها بحنان الحب أفرخهـــا   طلد ا كطلد كمام الرند والبـا ن
صفرالمناقير يهفو الاقحوان لها   حتى كأ ن نداه دمع ولهان
خضر الابأهر من شاد ومستمــع   زغب الحواصيل من كاس وعريان
كأنما طوقت أجيادها بحلــى   حب اليواقيت او اعراق مرجـان
حنا الزمهان عليها فهي وادعة   في دفء عش بلحن الحب مرنان
يضفي عليه برود السعد زاهية   عيش رغيد وظل غيرضحيـان
والصبح في البهجة الغناء عرسنا   يزفه المبرايا عرس ألــوا ن
أنسامها في المحاني الخضرلاعبة   بكل غصن رهيف القد ميسا ن
يحلو خمائل ورد راح يرقصهـا   ترجيع أصداء نايات وعيدان
وظل أدواحها الديباج مفترشا   وظل اكمامها فيروز تيجـان
وزهرها ود والهها معرشــة -   ثغـر الثغر واحضان الأحضان
نضيرة الحسن يرتف النعيم بهـا   ويسحب المسك فيها فضل أرداه
على جداول من ذوب اللجين جرت   تشدو باعذب انغام وألحان
من كل ساقية كالنور صافيـــة   تجر في منحناها عطف حيران
كأن نشر حصاها في قرارتهـــا   ترصيع "عامور" أو تطريز "كنعان"
جرت فشفّت صفاء عن ضمائرهـا   من كل لاه شفيف الغور جذ لا ن
كما يشف غمام يرق في سحــر   عن كل نجم وضيء اللمح حنان
و" بركة القصر" والحصباء رصف حلى   على جوانبها ، مرآة فنــــا ن
والظل والنور ابراد منمنمــة   للازورد بفوح العطر نديا ن
والأماليد في أطراف حافتهـا   رقص المدل وعطف الحادب الحاني
وللزنابق انفاس يؤرجهـــا   طيب سرى نفحه من خلد " رضوا ن"

تذوب شمس الضحى في مائها ألقاً ... ما الماس لو ذاب في صهريج عقيان ؟
كأن صفحتها والريح تنسجها ... فكر تموج في أحداس نشوان
أو فرحة في ضمير الحب أرعشها ... بشرى تداني وصال بعد هجران" 1"

ركز الشاعر في هذا النص على ثلاثة مشاهد : المشهد الاول : البلبل الشادي للعصفورة الحانية على فراخها ، والمشهد الثاني : جداول الماء ، والمشهد الثالث : بركة القصر .

ففي المشهد الاول ، تناول الجزئيات واستقصاها بعناية فائقة وقدرة بارعة ، مما يدل على أنه أعجب بالمشهد أيما اعجاب . ولشدة تأثره به لم يتركه الا بعد أن أفرغ اعجابه به على النحو الذي ورد في النص . وقد تتبع في وصفه الدقائق ، فوصف زق العصفورة افراخها التي وصفها بأنها ملد كملد كمام الزند والبان ، ووصف مناقيرها الصفراء صفرة الأقحوان ، وهي خضراء الاباهر ، بعضها شاد والآخر مستمع ، وحواصلها بعضها كاس ، وبعضها عريان ، كما وصف الريش الذي يطوقها ، فهو في جماله كحب الياقوت والمرجان .

وهذا المشهد يتسق مع اهتمام البحيري بالطيور ؛ فنرى "الكنار" و "الكروان" و "السنونو" و "النوارس" و "الحباريج" وغيرها تتردد في سمفونية قصائده "2" وليس هذا غريباً على من كان يفيق عند الصباح على زقزقة العصافير "بواد النسناس" فيملأ أذنيه بألحانها العذبة . ولشغفه بالطيور فقد أهدى ديوانه "أفراح الربيع" الطيور المسجد الأقصى "3"

-1- فلسطين أغني ص 115-121 .
2- حيفا والبحيري ص155 .
3- أفراح الربيع ص 8

وفي المشهد الثاني تناول الجداول الصافية صفاء النور ،تلك الجداول التي تنساب متعرجة وقد انتشر الحصى في قرارتهما بأشكال بديعة كأنها ترصيع عامور أو تطريز كنعمان . ويصور الماء الذي يشف عما تحته بالغمام الذي يشف عن النجوم الوضاءة .

وفي المشهد الثالث وهو بركة القصر ،يتناول جزئيات المشهد ،فيصف جوانب البركة المرصوفة بالحصباء على نحو بديع ، كما يصف البركة عندما تطرز بظلال الاشجار ، والانوار النافذة من خلالها ،وأطراف الأغصان المتهدلة على حوافيها ، وانعكاس شمس الضحى على صفحتها ، ومنظر النجوم التي انعكست صورتها على ماء البركة ، والنسيم الذي يداعب صفحة الماء فيحدث فيها تموجات دقيقة . " والبحيري مشغوف بالماء ، فكأنما له من اسمه نصيب ،فهو محب للبحيرات ،نزاع اليها ، هائم بالشواطيء ، دائم التنقل عليها ،متعلق بالبرك ،حفي بوصفها . "1"

ولم يهمل الشاعر بقية المناظر الطبيعية في بساتين البهجة ،اذ تحدث عن الصبح وأنواره ، وعن الاغصان التي تتمايل مع النسيم ،عن خمائل الورد ، والعشب الاخضر تحت الادواح الظليلة كما تحدث عن الطل . في الأكمام لكنه مر على هذه المناظر الاخيرة مرور العابر العجل .

من خلال النصوص التي أوردت، تظهر ملامح ذلك القسم

1- حيفا والبحيري ص 156 .

من شعر الطبيعة عند البحيري ، الذي يتناول عدداً من المشاهد الطبيعية في نص واحد ، على الرغم مما بين النصوص نفسها من اختلاف في اتساع دائرة النص او ضيقها .

واتناول الآن القسم الثاني من شعر الطبيعة ، وهو القسم الذي يركز فيه على مشهد طبيعي واحد . ومن النصوص التي تمثل هذا القسم أحسن تمثيل ، تلك القصيدة التي تعكس اعجاب الشاعر الشديد ببركة " فردوس البهجة " بمدينة " عكا "، اذ يقول :

لله بركة ماء بعيدة الانحاء
كأنها بعض بحر في جنة غيناء
مالت عليها غصون مطارة الأفياء
وغسلتها ذكاء بنورها اللألاء
فاعجب لتبر تراءى على لجين الماء
فللشعاع هيام في الصفحة الزرقاء
والأزاهر رقص على أغاني الضياء
زفت عليها أقاح كبسمة الحسناء
تخالها وهي سكرى من نشوة وازدهاء
أحلام عذراء رفت في ليلة قمراء
ألقيت فيها زهورا سكية الأنداء
ابسن من ذوب تبر الأصيل أبهى رداء
فلحسن والماء صاف كأنجم في السماء

أتيتها ذات عصر لجمعة غراء
وللأصيل بكاء على بعيد الفضاء
فدمعه من ورود مذابة ودماء
والظلال نشيد على الضفاف الوضاء
كم جدول متثن يعدو على استحياء
يجري فينساب منها كالحية الرقطاء
ماء كذوب لجين يسر الحصباء
بقبلة الحب رفت على امى الغيداء
شربته فكأني رويت من صهباء "1"

ان البحيري يركز على مشهد طبيعي محدود ، فقد تعقب الجزئيات ، وأجاد في تعقبها ، ولم ينهه القصيدة الا عندما اطمأن الى انه اتى على كل مايحس به نحو هذا المشهد . تحدث عن البركة واتساعها ، والغصون الظليلة التي مالت عليها ، وأشعة الشمس التي تلألأت على صفحتها ، والأزاهر والأقاحي المتمايلة على حوافها . وقد ألقى الشاعر في البركة بعدد من الزهور الصفراء ، فبدت في الماء كالنجوم في السماء ، كما وصف الجداول المنسابة من البركة وعذوبة مائها .

وهكذا فان البركة وماله علاقة بها هي المشهد الذي سيطر على أحاسيس الشاعر ولم يخرج عن هذا المشهد الى مشاهد

1ـ أفراح الربيع ص32 .

أخرى . ونستطيع أن نقول هذا في مقطوعة " تحية " التي يصف فيها الورود والأزهار في جنة غناء . وكذلك مقطوعة " ورد " التي يتضح من اسمها أنه خصصها للحديث عن الورد وجماله الفتان .
ولتشابه الموضوع في كلتا المقطوعتين ،أورد ماقاله في مقطوعة "ورد" :

روض مع الفجر الضحوك وصبحه　　وعلى خرير الماء أيقظ ورده
باكرته والطل في جنباته　　ونسائم الاصباح ترقص قده
والجلنار احتار في عذباته　　نشوان يستهدي النسائم رشده
والياسمين الغض مال موسوسا　　يشكو الى الصبح المنور سهده
والآس ما يدري أيفضي بالجوى　　أم يكتم الورد المفتح وجده
والورد معتز بشوكته على　　عرش زهور الروض كانت جنده "1"

يتحدث الشاعر في هذه المقطوعة عن الروض والفجر وخرير الماء ،والورد والطل ونسيم الصباح . يتحدث عن الجلنار ،والياسمين والآس . والبحيري من أكثر شعراء فلسطين اهتماما بوصف الورود ، ولا أبالغ عندما أقول : ان البحيري في شعر الطبيعة قد أتى على وصف معظم أزهار فلسطين ،وهو يصفها وصف العارف الخبير .

واذا كان الشاعر في مقطوعتة "تحية" ومقطوعته " ورد " يتحدث عن الزهور والورود فقط ،فانه - أحيانا - يقصر وصفه على نوع واحد من الزهور ،كما سنلاحظ في مقطوعة " زهرةالبرتقال" حيث يقول :

1- الاصائل والاسحار ص 84 .

أتسائل عن زهرة البرتقال عن السر في سحر ازهارها
عن الفجر يوقف ركب الصباح ايقتبس فتنة أنوارها
عن العطر تسكب منه النجوم سلاف الدنان اسمارها
وعن قطرات الندى والليالي تصوغ حلاها لأقمارها
عقودا تمنت لآلي الجنان لو انتظمت بين أحجارها
أتسائل عن زهرة نوورت فهام الفتون بنوارها
سمائي سقتها مذاب الضياء وأرضي غذتها باعطارها "1"

وكم كان البحيري مبدعا في التساؤلات العديدة عن أسرار الجمال في زهرة البرتقال ، وكم كان موفقا عندما رد هذا الجمال الى فلسطين سماء وأرضا .

سمائي سقتها مذاب الضياء وأرضي غذتها باعطارها

ان هذه الأبيات تكشف عن أحاسيس البحيري ومدى وقوعه تحت تأثير جمال الطبيعة في بلاده ، فهو عاشق لفلسطين يكشف عن جمالها ايشعل حبها في قلوب أبنائها . يقول :

" يابلادي : انني أكشف الاستار عن بهائك وجلالك ، وأصف مافيك من فتنة وروعة ، لأشعل في قلوب شبابك الغض نار حبك ، وأفتح عيون أبنائك الصيد على نور جمالك " "2"

ومن مقطوعاته التي اقتصرت على موضوع واحد ، مقطوعته التي يصف فيها مغيب الشمس وما فيه من جمال :.

1- الانهر الظمأى ص 12 .
2- أفراح الربيع ص 10 .

جنحت ذكاء الى المغيب فوشعت … جون الغيوم بعسجد وغناء

فكأن تبر أصيلها لما بدا … متوهجا في اللجة الزرقاء

هيمان رف على بساط أزرق … قد جن من شجن ابين ذكاء

د رب من العقيان مُدّ أوانه … اهب تلاعب فوق وجه الماء "1"

وفي مقطوعته" ماس" يصف أشعة القمر المنعكسة على قطرات الغيث العالقة بالغصون :

قطرات غيث بعد ما صاب الحيا … سكنت بها نضر الغصون تعشقا

في ليلة ضحكت عوارض مزنها … وبكت فأمسك جودها وتدفقا

حتى اذا حجب الغيوم تكشفت … عن مطلع القمر المنير فأشرقا

وأطل من بين الغمام بنوره … ألقى على القطرات ضوءا مونقا

فكأن ما أبقته أصواب الحيا … ماس بأطراف الغصون تعلقا "2"

وقد استطاع البحيري أن يمزج بين عناصر الطبيعة المصطنعة والطبيعية ، من خلال وصفه لمدينة حيفا الساحلية المضاءة بالمصابيح الكهربائية . وقد وفق في ذلك حيث بدت الجزئيات الموصوفة متناسقة ضمن اطار الصورة المحددة لمدينة حيفا ، وكأن الطبيعة مسحت عليها بمسحة التناسق فبدت على هذه الهيئة من الجمال والتكامل . ها هو ذا يقول :

اذا نظرت عيناك من بسط الغمض … مصابيح "حيفا" وهي باهرة الومض

رأيت السنى لف الدجى ورأيتها … نجوم سماء قد نثرن على الأرض

1- أفراح الربيع ص 89 .

2- أفراح الربيع ص 30 .

وان جاءت بالطرف اللمح وانت مسن ذرى "الكرمل" الشم الشعاف على نهض
وشارفت أرجاء الخليج بظلها وأمواجه بين التبسط والقبض
وقطر السنى ينهل من قمر الدجى فيغسل وجه الارض بالذهب المحض
تصورته صبحا وحيفا وسحرها بقية ليل عند شاطئه الفضي
بقية ليل قد تجمع نجمها مضى الليل عنها وهي بالنجم لم تمض "1"

وهكذا نرى أن مجال القصيدة كلما كان رحبا فان الشاعر يمر على كثير من المشاهد الطبيعية مرورا سريعا ،وعندما يكون مجال القصيدة محدودا فان الشاعر يجد الفرصة لاستقصاء جزئيات الموصوف. اني اشبه البحيري في هذا بالرسام الحاذق الذي يرسم بريشته المنظر الطبيعي العام ،فتبدو المشاهد الطبيعية المتعددة في الصورة ، دون أن نتبين الجزئيات الدقيقة لمعالمها ،ذلك لأن تبيين الجزئيات ليس هدف العمل الفني وانما الهدف هو اظهار الصورة الكلية العامة . ولكن الرسام ذاته عندما يرسم مشهدا محدودا ،فانه يحرص على جلاء صورة المشهد بكل جزئياته وتفاصيله ،لأن إبراز جزئيات هذا المشهد هو هدف في حد ذاته .

ويطول بنا الاستشهاد بالشعر ،لو مضينا نستقصي كل ما قاله البحيري في الطبيعة . ولكنني سأستعرض ما وصفه من مشاهد الطبيعة في عدد من القصائد وذلك للتدليل على مدى اهتمامه بمشاهد الطبيعة المتنوعة . ففي مقطوعة"تحية""2" يصف النرجس والسوسن والزنبق ، والأقحوان والجلنار، والحمائم المغنية في ذرى

1- حيفا في سواد العيون ص 103 .
2- الاصائل والاسحار ص 74 .

الاغصان ، والانسام المعطرة الندية التي تمر على الروض فتنعش زهوره . وفي قصيدة " زورق الاحلام " "1" يصف الزورق المتمايل على موج بحيرة " طبريا" ، ويصف النسيم الذي يداعب الزورق ، والنجم الذي ينعكس نوره على سطح البحيرة . وفي قصيدته " حبيبتي فلسطين" يصف جمال الضياء المتألق والسوسن والريحان ، وحمر الورود ، وخضر القدود ، وبيض الزنابق حول السواقي ، ويصف الطل "2" فوق الاعشاب ، ووشوشة الموج ، وسحب الغمام . يحدثنا عن الصباح ، والزهور والورود والأريج الفواح وعن الطيور الصادحة في الضفاف . وفي مقطوعته " نشوة " "3" يتحدث عن وادي "رشميا " أحد وديان جبل الكرمل في ضوء القمر ، حيث غطت أنوار القمر مدارج الوادي المكسوة بالخضرة . وفي قصيدته " عيد في عيد" يتحدث عن الازهار ، والاغصان والطير ، عن النرجس "4" وعطر الزهور ، عن الأقاحي ، والجداول الجارية فوق الحصى ، عن الندى والنبت العميم ، عن الغدير والدوح وغناء الطيور .

وفي مقطوعة "رفرف" "5" يصف الازهار على الاغصان في روض بهيج ، وقد هبت الانسام فحملت اريج الزهور . وفي مقطوعة "غصن " "6" يصف غصنا متمايلا بأزهاره ، كما يصف الاطيار المغنية ، والينبوع الصافي . وفي مقطوعة غابة يصف غابة في أعالي جبل الكرمل ، هبت عليها الريح فتمايلت اغصانها

1- أفراح الربيع ص 13 . - 2- ظلال الجمال ص 59 .
3- أفراح الربيع ص29 . - 4- أفراح الربيع ص 17 .
5- أفراح الربيع ص 94 . - 6- أفراح الربيع ص 88 .

كما سرت بها نسمات عابقة بالشذا ، ويصف الأمطار المنهالة على هذه الغابة ، والزهور المتفتحة في أرجائها . وفي قصيدته " مهرجان الرسول " "1" يصف الربيع ، والأطيار المغنية ، والأغصان المتمايلة على الضفاف ، والزنابق المتفتحة كما يصف النسيم العاطر ، والزهر المكلل بالندى ، والعشب المجلل بالضياء ، والنبع تحت الدوح يتحدث عن الصباح والأصيل والمساء .

وفي قصيدته " نشوة الربيع " "2" يتحدث عن الربيع والزهر والانسام والانداء والاعشاب الخضراء ، عن ضوء الشمس ، والينبوع ، والجدول الجاري ، عن زهر اللوز يهب عليه نسيم الصباح ، عن الراعي الذي يعزف على نايه ، عن الطيور المغردة والاغصان المتمايلة . وفي قصيدة " فرحة "3" يتحدث عن البلبل الذي يغني في غصون البيلسان ، كما يصف أشجار البان المهتزة فوق الاقحوان ، وأشجار الكنيا فور والزعفران ، ويصف انشاد الكناري ، والغصون المحملة بالازهار ، والنهر الذي يجري تحت هذه الغصون تحيط به الخضرة .

أوردت ما أوردت لأبين أن الشاعر لم يترك مشهدا من مشاهد الطبيعة التي ألفها الا أتى على وصفه . والبحيري يصف ما يرى ، ولذا فقد خلا شعره من المناظر الطبيعية التي لم يعايشها ، لأنه الشاعر الذي ينطق بما يرى ويحس .

1- ابتسام الضحى ص 53 .
2- أفراح الربيع ص 38 .
3- أفراح الربيع ص 26 .

حيـــويـة الطبيعـــة :

يلاحظ الدارس أن الشاعر ينطق الطبيعة ، ويجعلها تحس بما نحس نحن البشر ، فاذا المشهد الطبيعي بمكوناته متكامل من حيث الاحاسيس والمشاعر . فالطبيعة تبتهج وتحزن ، والاغصان تتمايل فرحا ومرحا والينابيع تنساب جذلة طروبة ، والبدر مبتهج وهو يرسل نوره الهادئ مشاركا في اشاعة البهجة والسرور . وفي تقديري أن البحيري عندما ذاب حبا في الطبيعة التي احتضنته وحنت عليه ، أصبح لا يجد الحياة جميلة الا بين أحضانها ، ولهذا فانه خلع عليها من الصفات الانسانية التي تدل على أنه وجد فيها ما يغنيه عن حياة الناس . فها هي الطبيعة تشعر بما يشعر ، وهو يحدثها فتجيبه ، ويميل اليها فتشهش له ، ويرى بين مشاهد الطبيعة من الانسجام ما لا يراه في دنيا البشر . ان للطبيعة لغة خفية يفهمها الشاعر لفرط ما بينه وبينها من الالفة والانسجام . والتدليل على ذلك أورد ما يقوله في مقطوعته " ينبوع "

وينبوع ماء جرى باسما	يناجي حصاه سقاط الثمر
غدا ضاحكا بين زهر الرياض	يبشرها بطلوع القمر
فمالت عليه صفوف الورود	فأفضى اليها بسر يسر
فاحفظها سره فانثنت	اتفضح للزهر ذاك الخبر "1"

فالينبوع يجري ويضحك ويبشر بطلوع القمر . وحصى الينبوع يناجي

1- الاصائل والاسحار ص 71 .

سقاط الثمر ، والورود تميل لتستمع الاسر وتغتاظ مما سمعت ،
فتفضي للزهر بذلك .

ويقول الشاعر في منابع عيون " الجالود " :

يا أعينا تحت ظل الأيك دافقة   سريت عني أحزاني وأشواقي
هل قام للزهر عرس فالطيور له   غنت وأنت به الندمان والساقي ؟؟
فالعشب ماد ومال الغصن من طرب   والزهر ماس بأكمام وأوراق
والضوء من خلل الاغصان مختطف   كأنه بينها أحداق سراق
أم تسردين على الأغصان حانية   عليك أنباء أحباب وعشاق
طافوا بروضك حينا ثم شتتهم   أيدي زمان كثير الغدر فراق
أم تشتكين قضاء خطبه جلل   قضى عليك باعنات وارهاق
فسرت من فنن نضر الى فنن   حان عليك ومن ساق الى ساق
حيرى تبثين أحزانا رنك بها   سود الليالي بدمع جد دفاق
أم أنت يا أعينا فاضت مدامعها   على حصى كجوى الأحشاء صفاق
أشجاك هذا الذي لاقيت من زمن   قاس وما انا من تصريفه لاق ؟ !."[1]

ان ما ورد في هذا النص من الصفات هو من شأن الناس لا من شأن الطبيعة ، ولكن البحيري عشق الطبيعة حتى أنطقها ، وأسبغ عليها صفات إنسانية حتى ينسجم معها ، فلو كانت الطبيعة عند البحيري جامدة لما رضي العيش في رحابها .

ولشغف البحيري بالطبيعة فانه يحب أن يراها متمثلة

1- الاصائل والاسحار ص 69 .

في أعمال الفنانين ، اذ لا يكفي أن يكون الشعراء وحدهم متفاعلين معها وها هو يدعو الرسامين للتفاعل مع الطبيعة التي تفيض حيوية وجمالا ، حيث يقول :

قم للروابي الزهر تنبت بهجة الأفراح في عرس الزمان فتمرع

للصخر يلثم خده ألق السنى ... والماء من جنباته يتدفق

النجم يأتزر السحاب وميضه ... والكون في حضن السكينة يهجع

القرية النشوى بجمع غلالها ... والصيف يعجله الخريف فيسرع

لمجالس الريحان طاف نديمها ... بالكأس من خمر المراشف تترع

تفاعلت الطبيعة في هذه الابيات مع ذاتها كما يتفاعل البشر فالزهر ينبت بهجة الافراح ، والصخر يلثم خده ألق السنى والنجم يتخذ من السحاب ازارا ، والكون يهجع في حضن السكينة ، والقرية منتشية بجمع غلالها ، والصيف يسرع لأن الخريف يستعجله ، وللريحان مجالس وندامى .

وكما تتفاعل الطبيعة مع ذاتها فانها تتفاعل مع من يتفاعل معها من الناس . وينقل لنا البحيري صورة هذا التفاعل من خلال انسجام الطبيعة مع أحد الموسيقيين . يقول :

أيها العازف ما هذا الوتر ... لعبت ألحانه بالأنفس ؟

صاغ من ارهام أنداء السحر ... نغما أبكى عيون النرجس

وقف البدر على باب المغيب ... يسمع الألحان من هذا الوتر

1- لفلسطين أغني ص 139 .

فبدا الشجو عابه والشحـوب ... كيف ماج اللحن أشجان القمر ؟
وتمنى لو تأنى مضربه ... يسمح العود بقلب شيق
فجرت جمعا وفردى سحبه ... وهي من حيرتها في قلق "1"

ان ما نقروءه من حيوية الطبيعة الدافقة في شعر البحيري هو في الحقيقة حيوية الشاعر الذي يستعير الطبيعة مستلزمات انسانية ، وهيام الشاعر بالطبيعة جعله ينطقها كما يحب وجعله يشعر بأنها تحس كما يحس ، وأن بينها من العلاقات مابين الناس .
فالشاعر هو المؤلف والمخرج وان كانت مشاهد الطبيعة هي التي تقوم بالتمثيل . والدليل على ذلك ان المشهد الواحد من الطبيعة ، قد يرى فيه الشاعر ما يدعو الى السرور والحبور ، بينما يرى فيه شاعر آخر ما يدعو الى الحزن والكآبة . ان المشهد لم يختلف لكن الذي اختلف هو نفسية الشاعرين .

وليس هذا عند الشعراء فقط وهو عند جميع الناس ، فالانسان ينظر للحياة في حالة الرضى والاطمئنان نظرة تختلف عن نظرته للحياة في حالة اليأس والحزن ، فبينما تكون النظرة الاولى ملأى بالاحلام الوردية الجميلة ، نرى النظرة الثانية سوداء حالكة السواد .
ومن البدهي أن تبدو الطبيعة في حالة انسجام الشاعر وهدوئه على مايحب ويرضى . فالورود ضاحكة ، والجداول مرحة طروبة ، والانسام عابقة بالاريج ، والاغصان مياسة تشارك الشاعر فرحه .

1- أفراح الربيع ص 49 .

أما اذا كان الشاعر حزينا ،فان الورود تميل برؤوسها حزنا وأما والجداول تنساب مسرعة هاربة من ظلم الزمان ،ونرى الشاعر تغيظه الاشجار وتزعجه بحفيفها المتواصل .

ان هذا هو الدليل على أن ما يبثه البحيري من مظاهر الحيوية الانسانية في الطبيعة هو انعكاس لحالته الشعورية . وقد صور ابو القاسم الشابي هذه الحالة في قصيدته " أراك " حيث نعم بلقاء حبيبته فابتسمت له الحياة ،وغنت له الكائنات، رقيق الاغاني وحلو النشيد . وينسى في حالة الانسجام هذه أعباء الحياة ومشاكلها . يقول :

أراك فتحلو لديّ الحياة	ويملأ نفسي صباح الأمل
وتنمو بصدري ورود عذاب	وتحنو على قلبي المشتعل
أراك فأخلق خلقا جديدا	كأني لم أبل حرب الوجود
ولم أحتمل فيك عبئا ثقيلا	من الذكريات التي لا تبيد
ويغمر روحي ضياء رقيق	تكلله راشمات الورود
وتسمعني هاته الكائنات	رقيق الاغاني وحلو النشيد
وترقص حولي أماني طراب	وأفراح عمر خلي سعيد "1"

وهذه الحالة هي نفسها التي نقرؤها في شعر البحيري الذي سعد يوما بلقاء حبيبته ،فاذا بالطبيعة كلها فرحة بهذا الحدث السعيد . يقول :

1- ديوان ابي القاسم الشابي - دار العودة - بيروت سنة 1972م ص 315 .

كم ليلة بتنا وقابنا والمنى ... وأعز ما أملت في أحضاني
والماء يروي البنفسج شوقه ... وهيامه بمراشف الأغصان
و"المضعف" الولهان حيره الشجى ... فشكا الجوى للنرجس النعسان
والورد محمر الخدود اخيلة ... يشكو النسائم غلة الظمآن
والآس مسترق أحاديث الهوى ... يأتي بها الزنبق الريان
والياسمين تفتحت أحداقه ... ورنا بها السوسن النشوان
والفل يغني القرنفل بالجوى ... والبان والصفصاف يستمعان
ومباسم الأكمام جال بها الندى ... فترصعت بالدر والمرجان
والعطر قد حملته أرواح الصبا ... وسرت به سير الأسير العاني
الطير يقرأ للهوى سور الجوى ... والماء والحصباء ينتحبان
والجدول اللاهي يرقرق ضاحكا ... في ظل سرحة حبنا الفينان
مدت اليه غصونها فكأنها ... طفل تداعب طفلها بحنان"1"

من خلال هذا كله يتضح لنا أن البحيري شاعر غني للطبيعة حبا بها وهياما، وقد تأثر بها حتى صارت جزءا منه، تحس به كما يحس بها. انه على حد تعبير الدكتور ناصر الدين الاسد: "يستنطق الاشياء ويبث فيها الحياة فتصبح وكأنها نفوس حية تتجاوب معها نفسه وتتعاطف فيفهم عنها مالا يستطيع غيره ان يدركه""2"

ان الطبيعة بالنسبة للبحيري عالم متكامل منسجم، يخلع عليها من الصفات الانسانية ما يجعلها بالنسبة اليه عالم الحب والصفاء العالم الذي لا يطيق عنه ابتعادا. وليس بين الشعراء الفلسطينيين المعاصرين من ينازع البحيري قصب السبق في هذا المجال.

1- أفراح الربيع ص 90.
2- محاضرات في الشعر الحديث في فلسطين والاردن الدكتور ناصر الدين الاسد- مطبعة لجنة البيان العربي سنة 1961م القاهرة ص 190.

الفصـــــل الثـــا نـــي

شعـــــــر الحـــــب

عـاش البحيري في طفولته وصبـاه محروما من حنـان أبيـه الذي توفي قبـل ميلاده ، ومحروما من الكثير من حنان أمـه التي قهرهـا زوجهـا الظـالم . ولم يجد الا الطبيعة تعوضـه عن هذا الحنـان ، فعاش بين أحضـانهـا يجد بين شعـابهـا ووديانهـا ، وتحت أشجارهـا وبيـــن أزهـارهـا مـا لم يجده في دنيا البشـر من الانسجـام والتآلف .

ولكن البحيري - ككل النـاس - يحب أن يجد الصديق الودود الذي يبثه مافي نفسـه ، صديقا يصطفيـه ويمنحـه صافي الـود والمحبـة .
" وألقت الايـام في دربـه برفيق واحد من النـاس ، فاستقبله البحيري بصفـاء روحـه ونقـاء نفسـه ، ووهبـه اعزازا وتقديرا واحترامـا وصفـاء . وظن أن القدر أعطـاه ما يحب : واحدا يحنو بصدق ويرافـــق بأمـانــة ويباشر بمحبـة ويتعلق بـه ويحس أنـه قد وجـد زميلا وأخـا ، وهو الذي افتقد الزميل والاخ . ولكن مـا أسرع ما توقظـــه الدنيـا ، وتنبهـه الايـام الى واقعـه ، عندما تعيب أسـرة الصديق عليـه مرافقة هذا الفتى الفقير المعدم القادم من خشـاش "وادي النسناس" وتحذر ابنهـا من مغبة هذه المعرفـة وعواقب هذه الصداقـة ، فيتركـه صاحبـه ، ويعود الى أمثـالـه من أبنـاء الأغنيـاء ، ويعود هو الى عوالمـه من الشواطئ والأودية والسفوح والقمم يحادثهـا ويحاورهـــا ". "1"

1- حيفا والبحيري ص 98 .

وهكذا صدم البحيري في صداقته ،فعاد الى الطبيعة التي يجد فيها كل مايحب . " وتتوالى الأيام ،ويكبر الفتى ، وتكبر معه أحلامه ، ويرقى في عمله . فمن عامل تنظيف الى وقاد (معاون سائق) ،الى عامل تحويل ،الى عامل اشارة ،الى مأمور قطار ، الى جامع تذاكر .

وتتغير حياته شيئا فشيئا ، فيبدأ بالخروج من عزلته في حيفا ليستجلي دنيا أخرى من وطنه الجميل . فهو في عمله الجديد ينطلق بالقطار من حيفا" الى "عين حارود" الى "شطة" الى " بيسان " الى "جسر المجامع" الى" سمخ" حيث تربض هذه المدينة الحالمة على ضفاف " بحيرة طبرية" المقدسة . وفي أحضان الطبيعة ، وعند تسلسل الينابيع ، وعلى ضفاف البحيرة تبدأ قصة أخرى وصفحة جديدة ،حيث يلتقي الفتى في مرات متوالية عند نزوله في المحطة وتوجهه الى البحيرة بالفتاة التي خفق لها قلبه . وتبتسم له فتشرق دنياه ،وتلتقي يده بيدها فيولد حب " . "1"

كانت حبيبته تلك " جميلة" التي أحبها كل الحب وعاش معها أجمل ايام حياته . وأرجح أن البحيري عاش حبه مابين عامي 1939م و 1942م ،لأن القصائد التي وردت في ديوان " الاصائل والاسحار" وهو الديوان الذي يغلب عليه طابع الغزل ،بالاضافة الى عدد من القصائد الاخرى تنحصر بين هاتين السنتين . ومن جهة أخرى فان ورود عدد من القصائد تبين بعد الحبيبة عن الشاعر وانشغالها عنه ،وذلك في الفترة المحصورة بين هاتين السنتين يؤكد ان عمر الحب

1- حيفا والبحيري ص 99 .

قصير . وعلى الرغم من ذلك فان تجربة الحب تركت في نفس الشاعر آثارا لم تمحها السنين . ويشهد على ذلك ما ورد في دواوينه من قصائد المعاناة التي تحمل بصمات عذابه في حبه الاول .

وقد أحب البحيري بعد "جميلة" وعاش تجربة الحب مع من أحب ، الا أن تجربة الحب التي عاشها مع "جميلة" كانت أعمق تجربة مرت في حياته . لقد أحبها ورأى فيها فتاة أحلامه ، التي يجد عندها مالا يجده عند الناس من حرارة العواطف ومشاعر الحب ، بعد أن اقفرت حياته البائسة من لمسات الحنان . وقد بادلته حبيبته حبا بحب ، وقضى معها أجمل ساعات عمره ، وكان من الممكن أن يتوج هذا الحب بالزواج ، لولا أن أهل حبيبته رفضوه لضيق ذات يده وقسوا عليه .

ومما يدلنا على أن البحيري عاش تجربة الحب بكل ابعادها أنه كتب مخطوطه " أحلام البحيرة" وهو من الشعر المنثور . وقراءة عابرة له تدلنا على مدى تعلق البحيري بحبيبته ، فهو يروي لنا لحظات سعيدة عاشها مع هذه الحبيبة ، بين احضان الطبيعة التي تفاعلت مع حبهما الى ابعد حدود التفاعل . وهو يضفي على الطبيعة ثوبا انسانيا . فحبه ممزوج بلون الزهر ، وخضرة الاعشاب ، وصفاء الماء ، وزرقة السماء ، ممزوج باشعة الشمس وضياء القمر . وسأورد قليلا من الشواهد من مخطوط " أحلام البحيرة" ، حتى نتبين من خلالها مدى هيامه بحبيبته ، مما يساعدنا على

توضيح معالم تجربة الحب عنده . وأهمية هذا المخطوط تكمن في أن البحيري خطه من أجل "جميلة" ٪ " ولذا فهو يعرض علينا تجربة الحب بشكل متكامل . يقول :

اسمعي "1"
الى تلك الطيور
انها تنقل عنا فنون الغزل
الحلو البريء
الى عذبات الدوح
اسقيها بعض ماشربنا من نشوة الهيام
والا ؟ !
ثم انتشت هذه العذبات
فماست وتأودت

+ + +

ثم انظري
انظري ياحبيبة الأمل الى الزهور
انها هفت لتقبيل الاعشاب
قبلا
عاطرة
هل تدرين لماذا ؟؟
لقد عجزت الزهور
عن شكر الاعشاب
لما اختلج في نفسها
من فرح يقصر الوهم عن تصوره . . . !
اذ رأتنا على بساط النبات
فمنحتها قبلها
الندية
الناعمة
وضمتها اليها
ضما رفيقا . . رقيقا

1- راعيت في كتابة هذا الشعر المنثور الطريقة التي اتبعها الشاعر في مخطوطه .

بعد أن انحنت .
اجلالا
واحتراما
لأنها فرشت نفسها لنا
نمرقا من نمارق فراديس الخلود
واجتازت لنا بتأودها
عرائس الخيال !
ولا أظنك ياحبيبتي
يابسمة المنى
على محيّا الأمل
تجهلين لماذا تشابكت سنابل الأيك
وعرشت علينا
وتضامت حوالنا
أليس لأنها تضن بنا على الناس
فودت أن لو تبقينا
كزهرتين ... بين زهورها
أو طيرين ... بين طيورها

وها هو ذا البحيري يعرفنا بحبيبته "جميلة" حيث يقول :

أنت
أنت كوكب لاح في ليل الوحدة
فابددت وحشة ظلامه
أنسا
واقمت في حواشيه للأماني
عرسا
أنت ربيع نضر أيامي ... وعطر لياليي
وبعث الحياة في موات الأمل
فأورق
ثم فرّع
ثم أزهر
ونشر ظلاله الوارفة
على بوء من الحياة

فاذا بشقائها يستحيل الى نعيم
واذا بعبوسها ينقلب الى ابتسام
واذا بأيامها تفيض باليسر .. والبشر "1"

ولم يدم حب البحيري طويلا ، اذ سرعان ما فرق الدهر بينه وبين حبيبته فعاني من صروف الدهر ما عاني وتقلب على جمر الفراق دون أن ترق له القلوب .

ويستطيع الدارس أن يضع شعر الحب عند البحيري تحت عنوانين أساسيين . أولهما : سعادته بالحبيبة وقربه منها . ثانيهما : تعاسته ومعاناته لبعده منها . وتحت هذين العنوانين تندرج تفصيلات متعددة .

سعادته بالحبيبة وقربه منها :

سعد البحيري بحبيبته سعادة عظيمة سحر بجمالها الرائع ، ونعم بوصالها ، فقضى معها أمتع أيام عمره ، وصلى من أجل أن يحفظها الله من كل مكروه . ولما كان الجمال رسول الحب فقد عني البحيري بالحديث عن جمال الحبيبة مستمدا من الطبيعة - وهي مصدر الجمال عند الشاعر - صورا يضفيها على المحبوب . مع أن الجمال ليس كل شيء في المحبوب - والبحيري لا يختلف في هذا - الا أنه يضع الجمال في المقام الاول ، فان لم يكن الجمال فلا حب ولا حبيب ، وهذا ما يتفق مع نهج الشاعر وطبيعته . فهو القائل :

1- مخطوط اعلام البحيرة .

أحب الجمال وأفدي الجمال بروحي وما ملكته يدي
واني لأسعى اذا ما استطعت اليه ولو كان في الفرقد
اذا ما رشدت فقولوا الجمال ووحي الجمال هو المرشدي
وان أنا يوما ضللت فقولوا غواه الجمال فلم يهتد "1"

فالجمال هو مفتاح شعر الحب عند البحيري ، واذا كان وصف جمال الحبيبة يسيطر على الكثير من قصائده . يقول في قصيدته "غزال" :

غزال عام الأغصان كيف تميس بالغيد
بكى الورد أخديه بدمع الغيظ والحسد
وهام بثغره الزهر هيام دواه وجد
فأين الورد من لهب على خديه متقد
وأين الطل من ظلم لموج الدر والبرد
بنفسي زهرة رويت بماء مسكر برد
تمشي حب مالكها بروحي فانبري جسدي "2"

وفي قصيدة "جميل" يفيض في وصف جمال الحبيبة بطريقة أكثر تفصيلا

جميل فاح بالعطر كعود المندل العبق
يذوب الورد من غيظ اوجنته ومن حنق
ويعشق شعره المنثور عشق الواله الومق
كأن شفاهه العناب زين بلؤلؤ برق
ووجه تحسد ليل الشعر تاه البدر في الغسق

1- الاصائل والاسحار ص 22 .
2- أفراح الربيع ص 43 .

تغار الشمس من نـــور | على خديه مؤتلـــق
ونجم الصبح كم بـــات | لطلعتـــه على قلـــق
فيبث الفجر شكـــواه | بقلب مواسع خفـــق
جميل مال من غيـــد | كغصن البانة العـــرق
يشوق البدر بالوجـــه | ويبكي الظبي بالعنـــق
تردى ثوب حسنيـــن | جمال الخَلْق والخُلُق "1"

ومما يلاحظه الدارس أن البحيري يميل في قصائده الى الوصف المباشر أحيانا . فالحبيبة كالغزال ، وهي مياسة كالاغصان ، خدودها كالورد وثغرها - اجماله - يهيم به الزهر ، وريقها كالطل ، وأسنانها كالدر والبرد ، وشفتها كالعناب ، ووجهها كالبدر ، وعنقها أجمل من عنق الظبي ، وهي بالاضافة الى ذلك ترتدي ثوب حسنين : جمال الخلق والخلق .

ان أوصاف الحبيبة التي وردت لا تختلف عن الاوصاف التي أضفاها الشعراء في القديم على حبيباتهم . ويعود هذا الاطلاع البحيري الواسع على الشعر العربي القديم وتأثره به . ويظهر هذا الاثر بوضوح في بداية مسيرته الشعرية الا أن هذا الأثر يتضاءل شيئا فشيئا مع تقدم الشاعر على درب الشعر بحيث تتضح معالم شخصيته .

ومع أن البحيري ينتقي أوصاف حبيبته من الطبيعة دائما الا أن وصف الحبيبة يختلف في عمقه وشموله من قصيدة الى أخرى . انه في النصين السابقين يربط بين جمال الحبيبة ، وجمال الطبيعة ربطا

1- أفراح الربيع ص 35 .

مباشرا ، دون أن يكون خلف الوصف ظلال وابعاد . بينما نلاحظ في بعض القصائد أن الشاعر يضفي على وصفه أبعادا تعمق الاحساس بالجمال . ومع أن الطبيعة هي ميدان المشابهة والتصوير عند الشاعر ، الا أنه يوسع الصورة بحيث تشترك فيها عدة عناصر ، مما يجعل حديث الشاعر عن حبيبته أعمق وأشمل من ذلك الحديث الذي رأيناه في النصين السابقين . ولتبيين ذلك نورد هذه الابيات :

سكب الزهر عطره في ثناياك وصب الندى سُلا فـ الحُمَيّـــا
وعلى وجنتيك لون كمّ الورد امح الضحى أريجا وريـــــا
وتهاوت على ذيول صباك الأنجم الزهر سجّدا وبُكيـــا
لاثمات ما طرز الحب من زهر نضير يضوع نشرا زكيا
تسعد بين الهوى بوصال فيغدو حلك النائبات فجرا سنيا
وتهيم الاشواق بي في دروب زرعتها خطاك زهرا نديا
وتوارت لحظة عن مدى الطرف شؤون في غيبها تتهيا
فيحول الضياء في مقلة الفجر ظلاما جهم العبوس دجيّا . "1"

ومن القصائد التي يبدو فيها الشمول في وصف الحبيبة أيضا قصيدة "هجران" حيث يقول :

طلأتِ الكأس لي نورا وعطرا فعشتُ منهما قلبا وفكـــرا
وهمتُ مجنّح الأحلام فسرا أرى في كل حسن منكِ سكـــرا
فان زرع الدجى بخطى نجوم مسطرة الدروب ترف سحـــرا

1- ظلال الجمال ص 118 .

مشت بركاب أفراح الليالي ترصع طرف الظلماء درا
رأيتك بينها قمرا منيرا يرش على حواشي الغيم تبرا
وان بعث الشجا ترجيع لحن وأفراح الصباح تزف فجرا
تردد فيه منك صدى حبيب تموج بالحنين هوى وشعرا
وان رقصت على صفحات ماء أماليد الغصون تميس نضرا
ومالت بالمراشف ظامئات لتشرب من زلال النهر خمرا
وقد راحت سواقيه الضوافي مذاب لجينها ينساب غزرا
تأود قدك الميسان تيها على مرآتها واختال كبرا
وما انتشت الورود على رباها ومادت في ظلال الدوح سكرى
وداعبت الجداول في ضفاف منضرة النعيم تضوع نشرا
وقبلها فم الاصباح الا رففت على الورود سنى وعطرا "1"

من هذا يتضح أن جمال الحبيبة يسيطر على الشاعر سيطرة تامة ، وتبدو الحبيبة محاطة بهالات الأنوار والجمال وكأنها من عالم غير عالم البشر . ان الشاعر يسوق مجموعات من الصور التي تتعاون مع بعضها لتعبير عن صفات الحبيبة . ولشدة تأثير الجمال عليه فانه يتخيل أن الطبيعة تتفاعل مع جمال الحبيبة على نحو ما يتفاعل البشر . ولشدة اعجابه بحبيبته فانه يرى أن جمالها يفوق جمال الطبيعة . انه القائل :

وتهادت على ذيول صباك الانجم الزهر سجدا وبكيا
لا ثمات ما طرز الحب من زهر نضير يضوع نشرا زكيا "2"

1- ظلال الجمال ص 109 . 2- ظلال الجمال ص 118 .

فمن هذه الحبيبة التي تسجد وتبكي الأنجم الزهر على ذيول صباها لاثمة ما طرزه الحب من زهر نضير يضوع برائحته الذكية ؟. ومن هذه الحبيبة التي يقول فيها :

وما انتشت الورود على رباها ومادت في ظلال الدوح سكرى
وداعبت الجداول في ضفاف منضرة النعيم تضوع نشرا
وقبلها فم الاصباح الا رففت على الورود سنى وعطرا "1"

ان الشاعر يرى أن حبيبته ترف على الورود سنى وعطرا . لقد هام بها واسكره حبها ،فشط به الخيال في شتى الدروب ، يصور هذه الحبيبة صورا بعيدةعن الواقع ،ولكنها تجسد نشوة الحب والهيام عنده ،وتبين بوضوح مدى ما وصلت اليه تجربة الحب . ان الشاعر يسكره حسن حبيبته فيهيم في دروب الحب محمولا على أجنحة الخيال . ويتضح هذا في شعره حيث يقول :

ملأت الكأس لي نورا وعطرا فعشت منهما قلبا وفكرا
وهمت مجنح الاحلام عمرا أرى في كل حسن منك سكرا "2"

ويوضح الشاعر مدى ما وصلت اليه العلاقة بينه وبين حبيبته التي أصبح أسيرا لجمالها الفتان ،حيث قالت له وهما على جبل الكرمل يشهدان مواكب أفراح الصباح : انظر الى الفجر ما أروع انبثاقه . فقال لها مرتجلا:"3"

لا ابن أجيل الطرف في فجر بدا وأنا أسير الحسن بين يديك

1- 2- ظلال الجمال ص 109 - 111 .
3- ظلال الجمال ص 147 .

اتلفت الفجر وهو بنوره يومي من الأفق البعيد اليك
أنا ان وقفت على سناك تلفتي فلأن فجري لاح من عينيك "1"

ولا يكتفي الشاعر بأن يكون أسيرا احبيبته تفعل به ماتشاء، بل يرفع هذه الحبيبة بشكل صريح فوق مستوى البشر، عندما يرى فيها ربة الحسن والجمال. يقول :

فما أنت بالانس بل ربة غلالة حسن كست قدها
بدت فوق عرش الجمال اليتيم فكانت مطامحنا جندها "2"

من هذا تتضح أبعاد الجمال في شعر البحيري ، الذي عاش تجربة الحب وانصهر فيها فاسبغ على جمال الحبيبة أبعادا جديدة ،، وما هذه الابعاد الا تصوير امشاعر البحيري الذي يرى في معايشته المحبيبة مالا يراه عامة الناس، ولذا فانه يسبغ على الحبيبة صفات غير عادية، تتناسب والحالة الشعورية التي يحياها .

وقد لاحظت أن الشاعر عندما يتغزل بفتاة اعجب بجمالها، دون أن يكون بينه وبينها علاقة حب فان شعره يأتي سطحيا بارد العواطف ذلك أن تجربة الحب ليست موجودة فيه، وكل ما هنالك نظرة اعجاب ،لم تتعزز بالمعايشة التي تمتن أواصر الحب . وهكذا تتلاحق الاوصاف في هذا النوع من الشعر دون رصيد من حرارة الوجد والشوق . ومن الشواهد على ذلك قصيدته " أمنية" التي نظمها اثناء نزهته في حديقة الأندلس بالقاهرة عند رؤيته

1- ظلال الجمال ص 147 .
2- حيفا في سواد العيون ص 65 .

لفتاة هيفاء ساحرة حيث يقول :

أخدك أم جنى التفاح يا مخجلة البان
وهذا خصرك الضامر أم هو غصن ريحان
ألا ايتك يا هيفاء كنت قضيب رمان
نماك الغيث والأنداء بين غصون بستان
فأفني فيه أيامي بسام المنى هاني
وأقضي منك أوطاري وأروي ظمء وجداني
وأرشف طلك العاطر رشف عتيقة الحان
فأنسى الدهر والدنيا والآمي وأحزاني "1"

ان هذا الشعر لا رصيد له من المعاناة والتجربة ، وهو قليل جدا في شعر البحيري ولا يقاس عليه .

هكذا نكون قد تعرفنا على وجهة نظر البحيري في الجمال رسول الحب ، فلنتحدث عن حبه لحبيبته وما يتركه هذا الحب في نفسه .

ان الدارس لشعر البحيري يتبين بوضوح كيف أن الحب يغير حالته تغييرا تاما . فمن حالة البوءس والشقاء التي يحياها ، ينتقل الى حياة وردية ناعمة فرشها الحب والحبيبة برائعات الورود .يقول :

لا تسأليني كيف مر الهوى على دروبي القفرة المعتمة
ففتح المنثور أزراره على خطاه الغضة المنعمة
وارتعشت فيها جراح الندى وهي للثم العطر مستسلمة

1- الاصائل والاسحار ص 112 .

هذا حبيب الروح في موعد   عز على الأوهام أن تحلمه
تفتحت عنه جفون الرؤى   في نشوة غيبية ملهمة
والنجم يجري من قميص السنى   تحت ظلال بالشذا مفعمة
ايعبر النهر الى ضفة   جداولها مد انه معصمة "1"

ولمزيد من توضيح هذه الحالة النفسية التي يحياها البحيري ،بعد أن ينعم بحب الحبيبة والقرب منها ،أورد هذه الابيات :

أنا بالهفة الحنين حياتي   قبل دنيا هواك كانت صحارى
فرق النجم من عبوس دجاها   فتردى برد الخفاء ازارا
وتعاوت بها الرياح فكاد الهول من هولها يولي فرارا
ضل خطوي من تيهها في دروب   قلم الغيب خطها أقدارا
فحسرت الدجى فكانت رحابا   وادعات تألقت أنوارا
ونشرت الندى فكانت رياضا   ناضرات تبسمت أزهارا
ثم أرقصت غصنها فتثنى   اذ ترنمت في حماها كنارا
ثم فيأت دوحها دعة السعد   وأوطأتها الورود دثارا
فارتشفت الأمان فيها كؤوسا   واجتنيت الرجاء منها ثمارا "2"

ان البحيري في تصوير حالته النفسية عندما يحظى بلقاء الحبيبة يصور مشاعره أدق تصوير . واذا كان من المسلم به أن الحب يغير نفسية المحب ويولد فيها الأمل ،ويحملها على التفاؤل ،فان أثر الحب يتضاعف عند البحيري الذي عاش حياة قاسية مرعبة" كاد الهول

1- حيفا في سواد العيون ص 112 .
2- حيفا في سواد العيون ص 99 .

من هواها يولي فرارا" على حد تعبير الشاعر نفسه . ولذا فانه من المنطقي أن تكون السعادة التي يشعر بها سعادة تفوق سعادة الآخرين ،سعادة تنسيه حياته البائسة ولو الى حين ،وتصور له أن حياته تألقت بالانوار ،وأن طريقه مفروشة بالرياحين والأزهار . ان الحب يطير بالبحيري على أجنحة الخيال فينقله من عالم الى عالم، وما كان لهذا أن يحدث لو لم يعش البحيري تجربة الحب بكل ما تعنيه هذه الكلمة من معنى . ويضرب الشاعر لحبيبته موعدا، ويمضي اليها بسعادة غامرة وفي يده زهرات بعضها أكمام وبعضها ابتسام. ويجري الحوار الآتي بين الزهرات والشاعر .

نمضي؟ الى أين ترى — في صبحنا المعطر
يحدو بنا عبر الدروب الخضر وهج العنبر
أنحلة أُيقظها — من حلمها المذهب
سكب الشذا تريقه — أكمام دوح مهدب
عطشى وراحت ترتوي — من سكر مذوب
ونحن نعد وخلفها — من طعب لاعب
أم جدول حيره — حنين وجد متعب
الى بعيد في مطاوي غيبه محجب
فضل من جنة — في منحناها المعشب
ونحن نجري مثله — من مَشرب لمسرب "1"

ويرد الشاعر على تساؤل الزهرات بقوله :

يازهراتي هوني — من حيرة التعجب

1- ظلال الجمال، ص 141 .

لا تسائي دوربنا   أين محط الموكب
أنا وأنت والهوى   بالأمل المخصب
نحث طهو في الخطى   الموعد مطيب "1"

ان هذا يكشف عن نفسية الشاعر المرحة الطروبة، وهو يحث الخطى في الطريق الى لقاء الحبيبة . ويلتقي الشاعر بحبيبته فيغتنم هذه الفرصة ليملأ عينيه وقلبه منها . وهو حريص على أن يطول اللقاء، خائف من الزمن الذي لا يبقى على حال . والبحيري سعيد بحبيبته سعادة الخائف من غدر الزمان، وكأن هناك شعورا خفيا يوحي اليه بأن صفو الحياة بالنسبة اليه كلمعان البرق في ليلة ظلماء . وتشاركه حبيبته هذا الشعور. ويصور الشاعر ذلك بقوله :

قال : قم نغتنم الصفو فجل العمر أكدر
لست أدري لا ولا تدري الذي يخفي المقدر
نحن في الايام من غيب الى غيب نسير
ليس في الناس على وهم أمانيهم مخير
فاملأ الكأس سلافا مزجها مسك وعنبر
وأدرها خمرة لو ذاقها الجامد يسكر
علها أن تفرق من الآمنا مالا يصور
فالليالي مكفهرات ووجه الدهر أغبر
والأماني لمحات تُجتلى خلسا وتمضي "2"

1- ظلال الجمال ص 143 .   2- ظلال الجمال ص 152 .

وترى الحبيبة أن الطبيعة قد تجلت في أجمل صورة ، وما هذا الا انعكاس الرضى والراحة النفسية التي تشعر بها عند لقاء الحبيب ، ويتضح هذا في قولها له :

دع هموم النفس في رمس من السلوان تقبر
وتروح باجتلاء الحسن في الليل المجوهر
فالنجوم الزهر في آفاقها در منثر
وضياء البدر في غمر الورى موج تكسر
وأديم الليل رفاف الحواشي وشي عبقر
ونسيم الريح نشوان الخطى يلهو فيعثر
وشذا الليمون خمر من دوالي الخلد تعصر
وهيام الراح بالأرواح أنفاس الصنوبر
والهوى يدعو شبابنا الى الكأس وأكثر "1"

ولكن الشاعر ابى بحاجة الكأس ، انه بحاجة الى خمر الحبيب ولذا فانه يرد على حبيبته قائلا :

أنا أهيمان الى برد ثناياك المعطر
ليس لي من حاجة عند الطلى ترجى وتنظر
فحباني قبلة من شفة تندى وتزهر
ثغرها باللؤلؤ المكنون والأنداء يزخر
أين أوراق خميل الورد منها ؟ فهي أنضر

1- ظلال الجمال ص 153 .

وسقاني رشفة من سلسل الكوثر أخضر

خلت أني حزت سكرا بطلاها ملك قيصر "1"

هكذا يغتنم الشاعر لقاءه مع حبيبته ليمتع ناظريه بها في مهرجان الطبيعة الساحر . ونلاحظ أن الشاعر يذكر الكأس والراح ، وفي تقديري أن الكأس والراح عند البحيري لا يعكس واقعا حقيقيا ، انما هو رمز لخمرة الحب وكئوس الهناءة والصفاء . فالبحيري لم يشرب الخمر في حياته ، وهذا ما قاله لي ، وما أثبته في مقدمة قصيدته " الكأس " حيث يقول :

(في خمارة " الحاخام" " درب البرابرة " من شارع " الموسكي " مع شاعر البؤس " عبد الحميد الديب " وبعض من أصحابه اذ حاول وحاولوا أن أشرب معهم ولو كأسا واحدة ، فأبيت لأني لم أذق طعم الخمرة قط . "2" ويؤيد ذلك قوله :

حاشا لنا فالطلى لم تدن من فمنا

ولم يدر رها علينا قط ندمان "3"

من هنا فان كلمات الخمر والراح والطلى التي تتردد في شعره ، هي تعبير عن نشوة الشاعر الذي يسكره الحب والجمال ويملك عليه أحاسيسه ومشاعره . ولا استبعد أن تكون القبل الواردة في شعر الحب ، قبلا شعرية رمز بها الى حرارة اللقاء بينه وبين حبيبته ، ليتوج بها قمة سعادته ونشوته .

1- ظلال الجمال ص 155 .

2- مقدمة قصيدة " الكأس " وهي مخطوطة . 3- الانهر الظماء ص 100 .

والبحيري يترسم خطى الشاعر الفيلسوف عمر الخيام في رباعياته وذلك في بعض قصائده التي تتحدث عن لقائه بحبيبته . تلك اللقاءات التي يريد أن يغتنم فيها صفو الحياة قبل أن يعكرها الزمان الغادر . يقول :

حسبنا أن صبانا والهوى ملك يدينا
ما علينا لو نهبنا العمر سكرا ما علينا
هاتها حتى يوافينا الردى في سكرتينا
قبلما تذوي أزاهير الصبا من جنتينا

\+ \+ \+ \+

لا يرد الشجو من أعمارنا ما ذهبا
لا ولا يمحو الأسى من غيبنا ما كتبا
فانس ما ولى ودع للغيب ما قد حجبا
واحسها صرفا وأغرق في طلاها النصبا "1"

والبحيري لا يكف عن ذكر الزمان الظالم فهو الذي جرعه أمر الكئوس في طفولته وصباه ، ولذا فانه يخاطب الحبيب بقوله :

فاشرب كئوس الحب صافية الطلى قبل الكدر
قبل انقضاء الزمان وقبل محتضر العمر "2"

1- حيفا في سواد العيون ص 148 - 149 .
2- ظلال الجمال ص 139 .

تعاسة الشاعر ابعد الحبيبة عنه :

حال الزمان القاسي دون استمرار العلاقة بين الحبيبين ،اذ سرعان ما تبدل الصفاء الى كدر ،وبسمة الحب الى عبوس . ويصف البحيري ساعة الفراق المؤلم فيقول :

وقضينا ساعة التوديع في دمع التشاكي
هو يشكو لي وقلبي من جوى نجواه باك
هو من حزن وشوق بين جمر ولهيب
وأنا أشرق بالذكرى وبالدمع الصبيب "1"

ولا يطيق الشاعر صبرا على بعد الحبيبة ،فهو يعاني من آلام البعد والفراق ويرسل الطير لاخبار الحبيبة عن حاله والاطلاع على حالها .

ياطير أنت رسولي	إلى بعيد المقام
بلغه عني حنيني	واقرأه مني سلامي
وصف عذابي ومابي	من شدة واغتمام
ياطير بلغ حبيبي	حفظي عهود غرامي "2"

وهو لايكتفي بالطير بل يرسل تمنياته المحبيبة مع ريح الصبا لتنقل مابه من ألم وعذاب رجاء أن يرق قلب الحبيبة فتعود أيام الصفاء .

ابعدك سحت دموع المقل	وألبس جسمي برود العلل
ولولا التأسي بيوم اللقا	لناء الفؤاد بما قد حمل
بعثت الأماني بريح الصبا	تبلغ فاك عذاب القبل "3"

1- الاصائل والاسحار ص 114 . 2- المصدر السابق ص119 . 3- المصدر السابق ص 20 .

وطال انتظار البحيري ولكن الحبيبة لم تحضر ، وهو هائم بحبها يود لو تسمح لها الظروف بلقائه . وما دام اللقاء صعبا فلترسل طيفها اليه ، فله بالطيف أنس ومراح . يقول :

واذا خفت على سر مصون أن يباحا
ألبسي الطيف من الأحلام سترا ووشاحا
وابعثيه في رؤى الوهم مساء وصباحا
إن لي بالطيف لو تدرين أنسا ومراحا "1"

هكذا بلغت الاشواق مداها ، ولم يستطيع طيف الحبيبة أن يصل . وما دام الامر كذلك فلياجأ الى النوم ، فعسى أن تسعده الاحلام بلقاء الحبيبة . يقول :

تنام عيوني لا اشتياقا الى الكرى ولا طمعا في أن تلين المضاجع
ولكن رجاء أن يمر خيالها بحلم فتشكوه الحنين المدامع
وما تبرئ الاحلام علة مبتل ولكن بها تؤسى العيون الهواجع
وكم تخدع الاوهام لكنها منى تهون بها عند الحزين المواجع"2"

وقد يمر خيال الحبيبة او لا يمر ، والشاعر مدرك أن الاحلام لا تداوي علة العاشقين ، فما عليه والحالة هذه الا أن يعيش على الذكرى يتقلب على جمر الفراق ، فقد لاقى من بعد الحبيبة عنه آلاما كثيرا ، وبقي على الرغم من شدة العذاب وهواجس الشك في اخلاص الحبيب ، مقيما على حبه الذي أنهكه . يقول :

قاسيت فيك من الجوى ما روعا وأطار حبات الفؤاد وأفزعا

1- الاصائل والاسحار ص 23 2- الاصائل والاسحار ص 33 .

وحملت من حرق الصبابة والأسى — ما لو تحمله الصفا لتصدعا
أسهدتني وعصيتني وأطعت كاشحا ادعى — وجنيت إذ ذاك الكرى
ونسيت أيامي وطيفك لم يزل — بين الدموع مسلّما ومودّعا
أملأت قلبك من سواي ولم أدع — يوما لغيرك في الحشاشة موضعا"1"

ويعاني البحيري من علة الحب التي حار فيها الطب والدواء ، والعلة كامنة في بعد الحبيبة عنه ، وعدم قدرة قلب الشاعر على نسيانها . ويصور هذه المعاناة بقوله :

هذي ضلوعي وهذا طي أحشائي — يا آسي الحي هل أعيتك أدوائي
هل حيرتك كلوم ما تداركها — طب ولا نشبت في غير أطوائي
جراح وجد قديم فتتت كبدي — ونار يأس تلظت في سويدائي
وعلة ليس يدري الدهر آخرها — طالت على الدهر بل أعيته اعيائي"2"

ولشدة الوجد وما عاناه من ألم الفراق يخيل اليه أن الطبيعة تشاركه حزنه وألمه وأنها تبكي لبكائه .

حير النجمُ مصابي — وبكى الليلُ لما بي
لولوعي وعذابي — لدموعي وشبابي"3"

ويسمع الشاعر هديل الحمامة فيخيل اليه أنها تنوح على الفها ، كما ينوح على الفه ، فيجد في ذلك ما يواسيه ويعزيه .

صداحة الأيك نوحي أسعدي كلفا — أضناه من ذكرة الأحباب ما لاقى
حالي وحالك يا ورقاء واحدة — فأنت مشتاقة طارحت مشتاقا"4"

1- الاصائل والاسحار ص 32 . — 2- الاصائل والاسحار ص 40 .
3- الاصائل والاسحار ص10 . — 4- الاصائل والاسحار ص35 .

ومر البحيري ببيت الحبيبة فهاجت أشواقه ، وكاد قلبه يفر أسى وشوقا فأغمض عينيه حتى لا يرى بيت الحبيبة خوفا على قلبه المشتاق . يقول :

مررت بدار " نعم " "1" فهيج وجدي   وعاود عهدها غيث الدموع
وناجيت الديار فكاد قلبي   يطير أسى وشوقا من ضلوعي
نظرتك نظرة يا دار "نعمى"   فطلت على الفؤاد من الصدوع
وأغمضت العيون جوى وخوفا   على واه بجانحتي ولوع
فبين جوانحي قلب ملوع   أخاف عليه من نظر الربوع"2"

ويلقي الشاعر تبعات الهوى وأسباب المعاناة على قلبه الذي ورطه في الحب ومشاكله ، فيجري بينه وبين قلبه حوار يتنصل فيه القلب من مسؤولية الحب ، بينما يحمل الشاعر قلبه كل المسؤولية . وأرى أن هذا الحوار في الحقيقة حوار بين العقل والقلب . يقول :

في أسى غربتي وحرقة بيني   عن دياري وعن حمى أوطاني
بت تلقي علي باللوم ياقلب   ومالي بما تقاسي يدان
أأنا موقظ الجراح الدوامي   في طوايالك أم سنان الزمان
أنت احببتها وأنت على أوتار   قيثارها سفحت الاغاني
وتمنيت ظلة وهيامنا   أن يظل الهوى جناح الامان
وارتضيت الحياة يدفعها اليأس   ضياعا في سبسب الحرمان
فاحمل الجرح نازفا وامض في العيش   غريب الهوى غريب الاماني"3"

1- نعمى -: اسم رمز به الشاعر لحبيبته "جميلة" .
2- الاصائل والاسحار ص 35 .   3- ظلال الجمال ص 99 .

ويذكرنا هذا بما ورد في شعر خليل مطران في قصيدته " العين والقلب امام قاضي الغرام " من محاكمة لطيفة جرت للقلب والعين وكان كل منهما يدعي أن الآخر هو السبب في الحب 1. على أن ما ورد عند البحيري يحمل المعاناة والتجربة بينما كانت قصيدة مطران أقرب الى الحكايات المسلية المضحكة .

ويتألم البحيري في بعض قصائده من صدود الحبيبة . وعلى الرغم من حبه الشديد لها الا أنه مضطر أمام سلبيتها أن يدرب نفسه على نسيانها . وما كان للبحيري أن ينسى من أحب ، فهو يستعطف بالنسيان قلب الحبيبة التي أحبها وأحبته ، عسى أن تعود الى سابق ودها معه .

عذبتني بالنوي ظلما وعدوانا … يامن قضيت حياتي فيك أحزانا
طال التفاتي الأيام مضين أسا … آن التفاتك للماضي أما آنا
ياسالها لم أزل بالدمع أذكره … ولم يهج مر ذكري منه وجدانا
اسوف تذكر والافلاك دائرة … عهدا عهيدا وأنسى كل ما كانا "2"

ومما يدل على أن الشاعر لاينسى حبيبته على الرغم مما يلاقيه في سبيلها من متاعب ، وأنه يميل الى التهديد بالنسيان تعبيرا عن حالة نفسية ، هو ما نراه في هذه الابيات :

فريشة نفسي صورتك من السنى … على لوحة الاشراق في مرسم الحب
كستك جلال السحر في معبد الهوى … وأولتك من دمع الصبابة ما يصبي

1- انظر تاريخ الادب العربي لحنا الفاخوري ص 1025 .
2- الاصائل والاسحار ص 45 .

وناجتك في جنح الأسى بدموعها فصامت على بعد وصلت على قرب
فكنت فؤاد الصخر في دعوة الهوى وكانت برود الماء في المنهل العذب
لعل يد الايام أن توقظ الهوى بقلبك او أن تذهب الحب من قلبي"1"

انه هائم بحبيبته هياما لا حدود له ، وهو يصورها بريشة نفسه فيكسوها جلال السحر في معبد الهوى . ومع فرط ألمه من حبيبته القاسية الا انه لا يستطيع نسيانها ، ويترك الامر الايام علها أن تنسيه مما يدل على أنه غير قادر على اتخاذ موقف محدد في مسألة حبه .
وهذا من بديهيات الامور عند المحبين الذين تسيطر عليهم العواطف والاحاسيس . وهيهات أن تخضع القلوب المحبة لمنطق العقل ، واذا كان هذا يصدق على معظم الناس مع الفارق النسبي فكيف بقلب البحيري الذي يرفع الحبيب الى درجة المعبود .

وعلى الرغم من ألم البحيري وآهاته ،فان حب الحبيبة أقوى من الآهات ،فهو متمكن من قلبه لا تستطيع الالام محوه .
أواه لو تبرىء الآهات من كبدي رسيس وجد أساه حير الآسي "2"
وكيف يمحى من قلبه حب ملك عليه مشاعره وأحاسيسه ؟ .
حالت قلبي بيتا كنت واحده حتى تملكت أوهامي وأحداسي "3"
كيف يمحى من قلبه حب من تعبد في محرابها ، وأسجد لها الاحلام في معبدها الرحب ،؟ وقال لها بخشوع المتيم الولهان :

1- ظلال الجمال ص 128 .
2- 3- الاصائل والاسحار ص 46 -47 .

نصبتك للهوى بُدّا والأوهام والحب

وأسجدت اليك الاحلام في معبدك الرحب

وطوّفت حواليك المنى خاشعة القلب

وملكتك من نفسي عنان الرّهب والرغب

وصورتك في الذكرى خيالا مَرّه يصبي "1"

ويزيد الشاعر هذه الصورة وضوحا ،حيث يرفع المحبوب الى درجة المعبود ،وكل ما يريده هو أن ترضى الحبيبة عنه .

معبد للوجد من صنع الخيال فيه تمثالك أوليه ابتهالي

كم تلا آيات حبي

عند محرابك قلبي

فاستمع آهات حزني واقبل الأدمع مني

وارض يا معبود عني "2"

مما تقدم تتضح التجربة التي عاشها البحيري في حبه ،تلك التجربة التي صهرته صهرا. وما كان لهذا أن يكون لو لم يكن الحب عند البحيري أمرا له قداسته . وكم هو غريب ما ذهب اليه الدكتور ناصر الدين الاسد عندما قال عن غزل البحيري : " وشعره الغزلي فيما أحسست به لا يبين عن انفعال وجداني ولا هزات عاطفية . تقرؤه فلا تستطيع أن تتمثل فيه حالة نفسية ، ولا يحملك على أن تتجاوب معه وتنفعل به ،وانما هو وصف خارجي للحبيبة يتناول محاسنها

1- الاصائل والاسحار ص 14 .

2- أفراح الربيع ص 44 .

ومفاتنها . ولست ادري اذا كان شاعرنا قد عاش تجاربه كما يقولون حديثا ، وان كان أغلب ظني أنه كان يمر بالاشياء والاشخاص مرا عابرا ، ويقتصر على الالتفات للمظاهر الخارجية للجمال فيصفها وصفا مباشرا . أما التجربة الحية الحقيقية التي يحيا فيها الشاعر حينا من الزمن فتأخذ عليه مجامع قلبه وأقطار نفسه ، وتستغرق حسه وفكره ، فاذا ما عبر عنها بالشعر غاص الى أعماق العلاقات والروابط النفسية ، وصور فيها حالات من المعاناة يحس بها القارئ في ذات نفسه وينتقل بها الى جو الشاعر ويحيا معه حياته ، اما هذا الضرب من التجربة الحقيقية فيبدو لي أن شاعرنا لم يكن قد عرفه في شعره الذي أشرنا اليه " "1"

اذا كان البحيري الذي يعيش معذب القلب لبعد الحبيبة ، وينتظر علّه يظفر بطيفها ، فعندما يعييه الانتظار يلجأ الى النوم علّه يرى حبيبته في الاحلام ، ويصل به الحب الى حد الذوبان في الحبيبة فيعبدها ويبتهل اليها قائلا لها :

فاستمع آهات حزني وأقبل الأدمع مني

وارض يا معبود عني "2"

اذا كان كل هذا لا يعتبر تجربة فما معنى التجربة اذا؟ . واذا كان الحب الذي يرفع الحبيب الى درجة المعبود ليس بتجربة ، واذا كانت الدموع والآهات والاحزان ليست أدلة على عمق المعاناة ، فما معنى المعاناة؟ .

1- محاضرات في الشعر الحديث في فلسطين والاردن ص 187 - 188 .
2- أفراح الربيع ص 44 .

اني لا اتفق مع الدكتور الاسد فيما ذهب اليه ، انطلاقا من دراستي الشاملة لشعر الحب عند البحيري عبر دواوينه كلها ، وهو أمر ام يتيسر الدكتور الاسد الاطلاع عليه ، عندما ذهب الى هذا الرأى ، وهذا ما أشار اليه 1 . ومع أن الدكتور الاسد اكتفى باصدار احكامه دون الاطلاع على الشعر المخطوط الشاعر آنذاك ، ودون التعرف على حياة الشاعر ايضا ، اذ لم يكتب احد عن حياة البحيري قبل اصدار الاسد اكتابه عام 1961م ، كما أن اول لقاء بينه وبين الشاعر كان عام 1972م في مبنى جامعة الدول العربية بالقاهرة ، كما أخبرني بذلك البحيري نفسه .

مع هذا فاني لا أتفق معه ايضا في الحكم الذي اصدره بالنسبة لشعر الحب في الدواوين المطبوعة التي اطلع عليها .

واستطيع القول ": ان الدكتور الاسد لو اطلع على دواوين الشعر المطبوعة والمخطوطة لغير رأيه .

1- انظر الشعر الحديث في فلسطين والاردن ص 185 السطر الاول .

حب الحبيبة والوطن :

هناك ظاهرة تسترعي الانتباه في شعر الحب عند البحيري ، وهي المزج بين حبه لحبيبته وحبه لوطنه . وقد لاحظت الظاهرة نفسها عند الشاعر الفلسطيني عبد الكريم الكرمي " أبي سلمى" الذي يقول :

وكيف أنساك وانت التي   أحببت فيك الشعب والوطنا "1"

لكن هذه الظاهرة عند البحيري أوضح وأشمل ، وتفسيرها يكمن في أن البحيري حمل الوطن في سويداء قلبه ، وأحبه حبا ملك عليه مشاعره ، فهو يذكر الوطن حتى في لحظة انسجامه مع حبيبته ، وفي لحظة عذابه معها . ويعود ذلك الى أن أحلى الايام التي قضاها مع الحبيبة كانت في وطنه الجميل فلسطين ، حيث طاف معها حول بحيرة الجليل ، وتنقل معها بين الروابي الخضر ، وجلس معها تحت الاشجار الظليلة ، وبجانب الجداول الرقراقة . ان ذكرياته مع الحبيبة وثيقة الارتباط بالوطن وطبيعته الساحرة .

وعندما فجع البحيري ببعد الحبيبة ، عانى من سياط الذكريات معها ، تلك الذكريات التي يمر شريطها في خاطره مقرونا بمعالم الوطن الذي احتضن حبه ، مما جعل حبه لحبيبته وعذابه معها مرتبطين بالوطن تمام الارتباط .

1- ديوان ابي سلمى " عبد الكريم الكرمي " - دار العودة - بيروت - ط1 سنة 1978م ص 184 .

واذا كان الوطن قداسة وجلال من نوع خاص في قلب كل حر شريف ، فما بالك في قلب شاعر فدائي كالبحيري . ومادام يقرن ذكر الحبيبة مع ذكر الوطن فان الحبيبة مقا ما محمودا في قلبه وأن حبه لها حب شريف عفيف . ولو لم تكن الحبيبة في هذه المنزلة من التقدير والاجلال ، لما قرن ذكرها مع ذكر الوطن ، اذ من المستحيل على البحيري أن يقرن مع وطنه مالا يليق . وهذا دليل آخر على أن تجربة الحب عند البحيري تجربة سامية لها أبعادها . يقول :

ولما طال عنك وعن بلادي بعادي غربة وغضني وأسرا

حملتك في وجيب القلب نارا وأرضي في ضمير الحب سرا

فانت وموطني جرحان هذا بإنساني وذا بدمي استقرا

أعيش جواهما عمر الليالي وأحيا فيهما صبرا وصدرا

فلم يثبت لوقدهما احتمالي ولم تبلغهما الاحداث سبرا

ولا وهنا على غير توالت ولا انطفآ على الايام جمرا "1"

ان البحيري يحمل حبيبته في قلبه ، كما يحمل أرضه الحبيبة في ضميره ، والحبيبة والوطن استقرا في عينيه وفي دمه ، فلا يستطيع العيش بدونهما . ومن الابيات التي يمزج فيها بين حبه لحبيبته وحبه لوطنه قوله :

أنا لولاك ولولا وطني لم تشب نار الجوى في مدمعي

عشت محزون الهوى نضوكما ليس لي غيركما من مفزع

1- ظلال الجمال ص 115 .

وإذا ما غيبوني في الثـرى   وانطوى سفر الهوى فيه معي

غيبوا طيفكما في خاطري   وطووا حبكما في أضلعـي "1"

وتبلغ درجة المزج بين الوطن والحبيبة الى الحد الذي يرى في عيني حبيبته معالم وطنه . ماهو يرى مدينة حيفا وجبل الكرمل . يقول :

فلقد رأيت بلحظ عينك اذ رنت   والتيه يكحلها بميل تدلل

" حيفا "وشاطئها الحبيب وسفحها   وذرى تعالت المساك الأعزل

عين رأيت بسحرها وفتونهـا   أحلام عهد بالصفاء مظلل

ولمحت بين سوادها وبياضها   ظل الصنوبر في اعالي"الكرمل""2"

وتتحد صورة الحبيبة والوطن في حنين الشاعر بحيث لا يدري ان كانت الحبيبة هي السبب في هذا الحنين أم الوطن . يقول :

ياحبيبا ودعته بفؤاد   يتلظى من لوعة الحرمان

لست أدري ان هاج عصف حنيني   أنت هجت الحنين أم أوطاني "3"

وهكذا يمكننا القول : ان البحيري محب وفيّ لحبيبته ووطنه ، وقد تعرض لصدمات متعددة في حبه ، لكنه على الرغم من ذلك بقي الوفي لمن أحب ، اذ ليس من طبع البحيري أنْ يقسو على حبيبته . . وهو يتركها الأيام لتأخذ منها عظة وعبرة ، لكنه لا يسمح لنفسه أن يتمنى لها سوء المصير ، وهذا دليل اخلاص وطهارة في الحب . لقد أحب الحبيبة وسعد بلقائها وسعدت بلقائه ، وما دامت الاقدار قد حالت دون الخاتمة السعيدة ، فيكفي ما سعد به الحبيبان وقت

1- ظلال الجمال ص 92 .   2- حيفا في سواد العيون ص 108-109 .

3- ابتسام الضحى ص 83 .

الصفاء . صحيح أن البحيري يتألم لبعد الحبيبة ، ويتمنى لو لم يخالط حبها قلبه ، لكنه سرعان مايستسلم لحكم الاقدار . انه القائل :

لو كنت أعلم قبل حبك أنني   غاد على ندم يفت جناني

لمنعته من أن يملأه الهوى   وعصيت صوت الحب اذ ناداني

لكن للأقدار حكما مبرما   تجري عليه مصاير الانسان"1"

وهكذا فقد ذاق البحيري المرارة في حبه ، كما ذاق المرارة في طفولته وصباه . وعلى الرغم من ذلك فقد بقي البحيري صاحب القلب الكبير يتمنى الخير للحبيبة على الرغم من قسوتها عليه ويتمنى الخير للناس ، فالبحيري هو الشاعر المحب المخير دائما .

1- ظلال الجمال ص 124 .

الفصـــــل الثـالـــث

الشعـــــر الوطنـــي

يتاثـر الانســان بالمحيط الذي يعيش فيــه ، ومن بديهيات الأمــور أن الشعـراء من أكثر الناس احساسا وتفاعلا مع محيطهم، وهم أقــدر من غيرهم على توضيــح مـــدى هذا التفاعل في مجــال الكلمـة . على أن هنـاك فارقا بين الشعـراء أنفسهـم، ومـدى قدرتهـم على التجاوب مع الاحـداث التي تـدور حـولهـم . ففي الوقت الذي نرى فيه شعـراء يتأثـرون بمشاكل الوطـن والتحديـات التي يواجـهـا ، نرى شعـراء آخرين يتفاعلـون مع قضايا شخصية لا تتجاوز حـدودهـم . ويمكننـا أن نـرد هذا الى التكوين النفسـي ، والاخـلاقي ، والاجتماعي ، الذي كون شخصية كل شـاعـر كما أن مرده الى نسبـة الالتـزام الوطني التي يتميـز بهـا شاعـر عن آخـر .

واذا عدنـا الى العـوامل التي كونـت شخصية البحيري ، وجدنا أن الطبيعـة الجميلة في فلسطيـن قد سيطرت عليه منـذ الصغـر . أحـب جبـل الكرمل الذي ولد فيه ، ونشـأ بين شعـابـه ، وشـرب من مائـه العذب، وطعـم من ثماره الشهيـة ، وشنـف أذنيـه بموسيقـا أطيـاره ، كما هـام حبـا بالبحـر الممتـد أسفـل هـذا الجبـل ، وتنقـل بين المـدن الفاسطينيـة الجميلـة فازداد حبـا على حـب .

ومن خلال معرفتنا انشأة البحيري ،لم يكن هناك مايشغله عن الطبيعة ، واذا فان حبه لها ترعرع وازداد .

وقد كان حبه للطبيعة في طفولته وصباه حبا ماديا ، لأنه يجد بين أحضانها المتعة والسعادة . لكن هذا الحب اتسع في شبابه ليصبح حبا للوطن بكل ماتعنيه هذه الكلمة من شمول . وهذا راجع لنضج الشاعر الذي أصبح ينظر لكل معلم من معالم الوطن نظرة الاجلال والتقدير ،اذ لم تعد معالم الوطن محبوبة لذاتها فقط . فهو ينظر اليها من خلال جلال الوطن بكل أمجاده وتاريخه .

ان هذه المعاني والقيم المجردة أصبحت تسيطر على الشاعر الذي أصبح يرى في فلسطين الوطن أرض القداسة والعزة والاباء . ومادام الامر كذلك فان البحيري يحب كل من أحب هذا الوطن ، ويزداد حبه ويتعاظم لكل من ضحى في سبيله . وهكذا أصبح الوطن هو الميزان الذي يزن به الناس ،فمن أحب الوطن أحبه البحيري ، ومن تنكر للوطن ابتعد عنه وشهّر به .

وفي هذا الفصل سأتناول الشاعر من خلال التزامه بفلسطين وطنا ،وجهادا ومأساة . ومع أن البحيري شاعر قومي في تطلعاته العربية الشاملة ،وتمتزج مشاعره القومية بحبه لفلسطين امتزاجا يصعب الفصل فيه اذ يستحيل على من يحب وطنه أن لا يحب أمته ، كما يستحيل على من يحب أمته أن يكون عاقا لوطنه .

وقد آثرت الفصل بين شعره الوطني المقصور على فلسطين ، وشعره القومي الذي يعالج قضايا الأمة العربية ، وخصصت لكل منهما فصلا تسهيلا الدراسة وتوضيحا الجوانب المتعددة التي يتضمنها كل موضوع.

وقد عمدت في هذا الفصل الى توضيح المواضيع التي تشكل في مجموعها أعمدة الشعر الوطني عند البحيري . ومع أن التبويب في في هذا الفصل صعب ، لتداخل المواضيع بعضها في بعض في القصيدة الواحدة ،الا أني حاولت قدر الامكان تبويبها حتى يسهل تسليط الضوء عليها . وهذه المواضيع كما يلي :

مكانة فلسطين عند البحيري :

يحب البحيري وطنه فلسطين حبا يقرب من العبادة ،يشهد على ذلك اهداؤه لديوانه" لفلسطين أغني" هذا الاهداء الذي كتب كل عبارة فيه من أعماق قلبه المشغوف حبا بالوطن . يقول :

" النور الذي تبصر به عيناي اسمه فلسطين . والهواء الذي تتنفسه رئتاي اسمه فلسطين . والدم الذي يجري في عروقي اسمه فلسطين . والخفق الذي يتوالى بنبض فؤادي اسمه فلسطين . والنخاع الذي يسقي عطش عظامي اسمه فلسطين . فيا حبيبتي فلسطين : ياعمق جرح الحق نكأته مدى الباطل مغروسة في ضمير فؤاد الانسانية . ياحبيبتي فلسطين : ياقبلة الهدى وكعبة النور في وطني العربي الكبير ، أقدس وطن في رحاب هذا الكون . ياحبيبتي فلسطين وأحرف اسمك

المقدس مشاعل أمال مشرق رفعتها أكف الحزن ،والعزم ،والتصميم على دروب الكفاح والنصر والعودة . ياحبيبتي فلسطين : ليتكرم ترابك الاطهر بتقبل أغان والحان وقعها على اوتار قيثار الشوق ،ورجعها في انفاس ناي الحنين ،ابن من ابنائك بل عابد من عبادك ،مدله بغرامك،مواله بحبك ،اسمه حسن البحيري " "1"

ويشهد على هذه المكانة كذلك إهداؤه لديوانه " ابتسام الضحى" اذ أهدى هذا الديوان الى صندوق الأمة العربي في فلسطين . هذا الصندوق الذي أخذ على عاتقه الحفاظ على الأرض الفلسطينية ،وهو يسمي فلسطين سوريا الجنوبية انطلاقا من نظرته الوحدوية القومية . يقول :

" الى صندوق الأمة العربي الذي ألف رجاله حب الوطن ،وجمعتهم عروة العروبة ،ووثق رابطتهم عهد العمل على انقاذ "سوريا الجنوبية" الجنة التي لم تر السماء بقعة في الكون أطهر منها ،فجعلتها منصب معراج محمد ،وحاضنة مهد المسيح ،ومقام عرش سليمان ،وفردوس ترانيم داود ،وملجأ هجرة ابراهيم . . الى صندوق الأمة العربي الذي يعمل صناديده لترتفع راية الفخار في أعالي الاعالي خفاقة زهوا واختيالا،عالية عزا وكبرا . . أرفع" ابتسام الضحى " "2"

واشدة اعتزازه بوطنه ،وحبه الرجال العاملين في سبيل رفعة هذا الوطن ،فقد تبرع -وهو المعسر المقل- بريع

1- الفلسطين أغني ص 10 -11 .
2- ابتسام الضحى ص 5 - 7 .

لديوانه " ابتسام الضحى " لصندوق الأمة العربي ،يشهد على ذلك ما يقوله السيد رشيد الحاج ابراهيم رئيس لجنة صندوق الأمة العربي بحيفا ،اذ يقول : " نفح شاعر النهضة الأدبية الاستاذ حسن البحيري صندوق الأمة العربي بهذا الديوان ليطبع وينشر على حساب الصندوق بدون أي مقابل " "1"

ويشير البحيري لهذا التبرع قائلا :" أتقدم بهذا الكتاب لتكون جميع ارباحه لمشروع البلاد الأعظم ،ألا وهو مشروع صندوق الأمة العربي ،وأنا اذ أتقدم بكتابي أرى موءازرة صندوق الأمة وخدمته فرضا محتما علي ، وعلى كل عربي يخاف على سوريا الجنوبية من الطمع الصهيوني ،وغير الصهيوني " "2"

هذا هو حسن البحيري الذي يحتل الوطن مكانة عظيمة عنده ، ويسيطر حب الوطن عليه . وحتى نتبين معالم هذا الحب وهذه المكانة ، نقرأ الابيات الاتية :

في ديار كرفرف الخلد ظلا	يتغنى بحسنها الشعريان
ومغان رف النعيم عليها	ورعتها عناية الرحمان
وربوع أنسامها مثقلات	بعطور الريحان والبيلسان
ورياض أزهارها من درار	ودرار أنداوءها من جمان
لا تلمني على حنيني لأرضي	من ضياها ضاء الورى القمران
ماوءها السلسبيل فاض لجينا	في ثراها وسال خمر دنان

1- ابتسام الضحى ص3 .

2- ابتسام الضحى ص 13 - 14 .

فهو در يذاب في فضة الكأس وعطر يدار بالاحبان
وثراها مسك ونثر حصاها لؤلؤ شع في جيود الغواني
ونجوم السماء من زهرها النضر بدت في اديمها الأرجواني "1"

ان البحيري - في الابيات السابقة - متعلق بفلسطين الجميلة فالدوار كرفرف الخلد ظلا، والمغاني رفّ عليها النعيم، والانسام مثقلات بعطور الريحان والبيلسان، والشمس والقمر استمدا ضياءهما من فلسطين، وماء فلسطين سلسبيل، وثراها مسك، وحصاها لؤلؤ.

ولا يكتفي الشاعر بهذا فان لفلسطين مكانة أعظم من مكانة الجمال، انها مكانة القداسة. وهو يبين مدى حب الشعب لفلسطين المقدسة الطاهرة. وفلسطين عند البحيري هي الارض والشعب، اذ أن العلاقة بينهما ضاربة في أعماق التاريخ، ففلسطين عزيزة بشعبها الذي رواها بدمائه على مر العصور، والشعب الفلسطيني يشرفه الانتماء الى فلسطين المباركة مهبط الوحي والرسالات ويتضح هذا في قوله:

وطن الحب والسنا والأماني والهدى واليقين نور السرائر
يافلسطين يا أجل كتاب قد سطرنا فيه أجل المفاخر
بالزكيّات من هوامي دمانا والأبيّات من رِهاف البواتر
يافلسطين ياأعز تراب قد كحلنا به سواد النواظر
وغرسنا أعمارنا في ثراه فنماه من كل أنْوَرَ زاهر

1- ابتسام الضحى ص 79 .

نحن أهلوك لا شراذم شذاذ البرايا ممن تمج المهاجر

نحن أهلوك عترة وفروعا   مشرقات الإحساب بيضا نواضر

فالنبوات من ذرى النسب الأقدس فينا وشائج وأواصر

وشموس الايمان من أفقنا الرحب أضاءت لكل سار وسائر

أمر الله أن نظل على الدهر ليوث الوغى ولسن المنابر

والمياميين عزة وضاء   نورث المجد كابرا بعد كابر "1"

في هذه الابيات نلاحظ مدى توفيق الشاعر في توضيح التلاحم بين فلسطين الشعب، وفلسطين الارض والوطن. ومن محصلة هذا التلاحم كانت فلسطين عبر التاريخ، وهذا مانوه به البحيري موضحا المكانة العظيمة التي تحتلها فلسطين، ومدى ما يكنه لها من إعزاز.

ويركز الشاعر على قدسية فلسطين التي باركها الله فيقول:

قبلة المشرقين يابنت مجد   تيم الخالد فاصطفاه حبيبا

أنت للطهر كعبة سترها النور   يحج الهدى اليها منيبا "2"

وبشيء من التفصيل النسبي، يبين الشاعر أن فلسطين وطن ضم الانبياء، وكتب السماء، وقد رفع الله شأنها فباركها، ولو فاخرتها النجوم اسمت عليها علا ومجدا. يقول:

وطني سلمت لنا ودمت مكرما   وبقيت موئل مجدنا وعلانا

غرس ابن مريم فيك غصن سلامه   فنما وأينع وارفا فينانا

وسرى اليك من "الحرام" محمد   ايلا وفي "اقصاك" حط ظعانا

وعليك أنزلت السماء تخصصا   ياصنوها "الانجيل" "والقرآنا"

1- فلسطين أغني ص 55 الى 57 . 2- حيفا في سواد العيون ص 44-45 .

ساويت عزتها ورفعة شأنهـا   لما ضممت الرسل والأديانـا

لو فاخرتك من النجوم مكانة   اسمت علاك على النجوم مكانا "1"

وتحتلي مدينة القدس باهتمام الشاعر لأنها بؤرة القداسة في فلسطين وهي ذات مكانة عظيمة في قلوب المؤمنين على اختلاف دياناتهم . يقول :

أخي قبلة القدس او انصفت   ارحنا لها ركعا سجدا

وطفنا بصخرتها كالحطيم   لنستلم الحجر الأسعدا

فآفاقها أطلعت في الزمان   بدور التقى وشموس الهدى

وتربتها أنبتت للأنام   فروع الجدا واصول الندى "2"

ومن الجدير بالذكر أن الشاعر في حديثه عن فلسطين وقدسيتها يتعامل مع حقيقة معروفة وهي أن القدس اولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين ، كما أن فلسطين أرض مباركة مصداقا لقوله تعالى -": "سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله" "3"

من هنا فان مكانة فلسطين ليست مكانة افتراضية خلقتها عواطف الشاعر ، انما هي مكانة حقيقية اتى بها البحيري مضافة بعواطفه وأحاسيسه . على أنه كبقية الشعراء يشده وطنه ويفضله على غيره ، وهو يعليه على ما سواه ، تحدوه في ذلك عواطفه وأحاسيسه . يقول :

1- ابتسام الضحى ص 44 .   2- حيفا في سواد العيون ص 71 .
3- الآية الاولى من سورة الاسراء .

بلادي بلادي لا عدمتك موئلا ... ولا زلت للعرب الأماجد منزلا

سموت على مجد الممالك ممتاى ... وانك فوق المجد والخلد والعلا "1"

ولا يكتفي البحيري بذلك فحبه لفلسطين حب عظيم ، و مكانتها عظيمة عنده ، و هو يرى أنها زينة الأرض و قبلة الأكوان .

هي في الأرض زينة الأرض طراً ... و هي في الكون قبلة الأكوان "2"

هذه هي مكانة فلسطين في قلب شاعرنا ، و من هذه الأرضية انبثق شعره الوطني ، و منها انبثق شعره القومي كذلك . لأن فلسطين جزء من وطن كبير ، والبحيري لا يؤمن بالحدود المصطنعة بين أقطار الوطن العربي الواحد .

لم يكن شاعرنا و هو يشيد بمكانة فلسطين ينطلق من منطلق المفاخرة ، فهذا في تقديري لم يخطر له على بال ، انما كان يفتخر و ما يزال من أجل هدف سام ، وهو أن تبقى لفلسطين مكانتها في قلوب أبناء الشعب الفلسطيني ، وأبناء الشعب العربي جيلا بعد جيل .
يريد أن يشعرهم بعظمتها ، و مكانتها ، وبفداحة الخسارة من فقدانها .
و متى احتلت فلسطين هذه المكانة العظيمة في القلوب ، فان جهود الأمة ستتوجه لتحريرها غير عابئة بالتضحيات مهما غلت ، لأن فلسطين أغلى من كل غال ، وانفس من كل نفيس . و على هذا فان الشعر الذي اوردناه هو اشادة بالوطن من أجل بذل التضحيات الغالية في سبيله . و ما أعظم التضحية في سبيل الوطن ! فكيف اذا كان هذا الوطن فلسطين التي باركها الله و جعلها مثابة الأنبياء والمرسلين ؟ .

1- ابتسام الضحى ص 28 . ... 2- ابتسام الضحى ص 84 .

المؤامرات الاستعمارية على فلسطين :

وعى البحيري المؤامرات

الاستعمارية على فلسطين ،تلك المؤامرات التي بدأت خطواتها العملية بوعد بلفور وزير خارجية بريطانية عام 1917م. وقد أعطى هذا الوعد البريطاني أرض فلسطين الصهاينة ليقيموا عليها دولتهم. ويمثل هذا الوعد التقاء مصالح الصهيونية العالمية مع المصالح الامبريالية.

تعهدت بريطانيا الكيان الصهيوني جنينا ووليدا ، ورعته حتى صار بامكانه أن يهاجم ،وأن يدمر ،وحاربت الشعب الفلسطيني حربا لا هوادة فيها على مدى ثلاثين عاما. وهي الفترة التي رزح فيها الشعب الفلسطيني تحت حكمها البغيض،وهذا ما دفع البحيري للتنديد بها حيث يقول :

ياباحثين عن السعادة الورى ومن السلام بحيرة المرتاب
لن تسعد الدنيا وفيها انجليزي يدنسها بلؤم ذئاب "1"

كانت بريطانيا ترسل لجان تحقيق في النزاع الصهيوني الفلسطيني متظاهرة أنها لا تعرف أسباب هذا النزاع ! ،وكانت امريكا ومازالت تشارك بريطانيا في دعم الصهيونية ،ومحاربة الشعب الفلسطيني.

وأرسلت اللجان البريطانية الامريكية للتحقيق في اسباب الاضطرابات في فلسطين ،وكانت هذه اللجان تتخذ قرارات قبل مجيئها ، وفقا لإرادة الحكومات الامبريالية ،وكان المقصود خداع الفلسطينيين ، وايهام العرب أن امريكا وبريطانيا مهتمتان بحل المشاكل حلا سلميا .

1- الانهر الظماء ص 118 .

وفي عام 1946م جاءت لجنة تحقيق انجلو امريكية ، واتخذت قرارات ظالمة تكبل الشعب الفلسطيني ، ومما جاء فيها : يجب أن يصرح في الحال بادخال مئة ألف يهودي الى فلسطين ، خلال عام 1946م "1" .

وهذا ما حدا بالبحيري الى مهاجمة هذه اللجنة قائلا :

يالجنة كبلتنا قيودها الوحشية
لا تحسبينا عبيدا لا نعرف الحرية
فنحن في الدهر أهل الجهاد أهل الحمية
نحن الألى قد رفعنا منائر المدنية "2"

وتستمر المؤامرات الامبريالية في فلسطين تحت اشراف الدولة المستعمرة ، وعلى الرغم من معسول الكلام الذي كان يصدر عنها بين الحين والحين ، الا أن هذا لم يكن ينطلي على الواعين من أبناء الشعب الفلسطيني .

وها هو الشاعر يعري هذه السياسة المخادعة بقوله :

والانجليز وان آلنوا جانبا فبدا عليه تقية وصلاح
يبدون من طرف اللسان توددا ووراء ابين اهابهم سفاح
قالوا نحارب الضعيف وحقه ولنحن عن آماله نفاح "3"
كذبوا ورب البيت تلك سياسة يخفي بها نير لهنم فداح "3"

ولشدة كره البحيري لبريطانيا فانه لا يرى في الغرب أي صلاح بل إنه يخرج عن الموضوعية لما يعتمل في نفسه من الآم . ويوضح هذا قوله :

1- جهاد شعب فلسطين ص 290 .
2- الانهر الظمائى ص 137 - 138 .
3- لفلسطين أغني ص 106 .

لم ينجب الغرب ابن انثى صالحا ولو اغتدى وبكفه الاصلاح "1"

وتتجمع خيوط المؤامرة الامبريالية من أجل تقسيم فلسطين عام 1947م ويهاجم شاعرنا هذه المؤامرة ، والدول التي وافقت عليها ظلما وعدوانا .

قسمتك الاهواء ياموطن الرسل بسوق النخاس سوق العبيد
مارعت في ذويك حقا صراحا كان كالشمس من سماء الوجود
تبعت بالضلال كل اعتساف وتنحت عن كل رأي سديد
أمم سلحت بناب وظفر وتبدت لنا بأبهى بمرود
ثم انحت اترتوي من دماء سفحتها من كل حر شهيد
كلما انضبت بنهل دماء شاقها العل الدما من جديد
تلك مأساتها على مسرح الكون فصولا تدمي فؤاد الحديد "2"

ويهاجم البحيري هيئة الأمم المتحدة ، التي وافقت على قرار التقسيم تلك الهيئة التي عملت الدول الاستعمارية على تشكيلها بعد الحرب العالمية الثانية ، وكانت مهيمنة عليها ، واذا كان قرار التقسيم الصادر عن الجمعية العامة للأمم المتحدة في 29 نوفمبر عام 1947م ، يمثل محصلة الظلم الذي كان يمارس في أروقتها . ويعتبر هذا القرار مؤامرة من قبل الدول الامبريالية ، أرادت من خلاله إضفاء الشرعية الدولية على خلق كيان صهيوني في فلسطين .

وشبيه بقرار التقسيم ، القرارات الظالمة القاضية بفرض الهدنة الاولى على العرب ، في 11جوان عام 1948م ، والهدنة الثانية في 18

1- افلسطين أغنني ص106 .

2- حيفا في سواد العيون ص 83-84 .

جويلية من العام نفسه . وكان مقر الأمم المتحدة المؤقت في ذلك الوقت في " ليك سكسس" احدى مناطق نيويورك "1" . ويثور البحيري على قرارات الهدنة التي خدمت الصهاينة وأنقذتهم من هجمات الجيوش العربية ، والثوار الفلسطينيين ، وثبتت احتلالهم الظالم للأرض الفلسطينية ويعبر عن هذه الثورة بمهاجمته الأمم المتحدة ومقرها ، فيقول :

ايه "سكسس" ياجحور الافاعي زاعفات ويا ملاذ القرود

لست من طينة الأنام ولكن من تراب الخنى ونتن الصديد

أنت أرض تهيج أخبث زرع قائم الساق في الثرى او حصيد

أنت سوق تباع فيك البرايا فهي منك الانعام تحت القيود

أنت دار تقول ياحق نم بي مستذلا ويامخالب سودي "2"

ان الهدف من مهاجمة البحيري الدول الاستعمارية ، هو شحن قلوب العرب بالحقد على هذه الدول من اجل التصدي لها في وطننا العربي ، والتصدي لعملائها من الحكام الذين يتحكم الاستعمار عن طريقهم برقاب العباد وخيرات البلاد . واذا ثار الشعب على المستعمرين وقضى على الحكام العملاء ، فان الطريق الى تحرير فلسطين وازدهار الوطن العربي يصبح ممهدا . وعلى هذا فان تنديده بالدول الاستعمارية يخدم هذا الهدف الكبير .

1- حيفا في سواد العيون ص 80 .

2- حيفا في سواد العيون ص 84-85 .

التحريض على الثورة :

يشحذ البحيري الهمم ويحرض على الثورة ،

لأنه موقن أن المؤامرة الصهيونية الاستعمارية التي اجتاحت فلسطين ، لا يمكن أن تهزم إلا إذا حشدت طاقات الشعب خلف القيادة الحكيمة الواعية بمدى شراسة التحدي . وما دامت الصهيونية المدعومة من الامبريالية قد سيطرت على فلسطين، فلا يمكن الرد عليها إلا بالكفاح المسلح الذي يرغمها على التراجع عن مخططها الاجرامي .

وهو مؤمن أن التوعية والتحريض على القتال ، أساس من أسس النصر . ومن أجل هذا جند شعره . ويتضح هذا في قوله :

رب شعر رقمته بمداد من دموعي ومن دمي النضاح

ليكون النذير في كل خطب يعتري والنفير في كل ساح "1"

وها هو البحيري يحرض على الثورة فيقول :

أيقظ بعودك الهمم واصرخ عن الحق الظُّلم

واخلع رداء الذل عن جسم منوط بالعدم

أتنام عن نار تضرم وهي منك على أَمَم

انهض لها كالليث عادته العوادي في الأُجم

ودع التفجع والتوجع والتحرق والندم

واركب لها حمم السحاب وكن أشد من الحمم

وخض الخضم ببارجات لا تبالي ما الخضم ("2")

1- حيفا في سواد العيون ص 57 .

2- ابتسام الضحى ص 71-72 .

وهو يحذر من مغبة التهاون وعدم المبالاة ،لأن الخطر الداهم سيعم الجميع ،واذا لم تتحد الجهود من أجل رد المعتدين فان العواقب ستكون وخيمة . يقول :

فانفض النير عن كواهل ذل وارم بالقيد وجه باغ وقاح

وامض بعد الخمول في سبل العيش عزيز الجناب طلق الجناح

قبلما تصرح الليالي فما تنصاح الا عن مدية السفاح

تلك مني نصيحة فادكرها وادخرها لخطبك الرزاح "1"

وفي معرض تحريضه يبين البحيري أن الحياة لا قيمة لها ان لم تكن عزيزة كريمة ، وأن حرية الشعوب لا تنال الا بالدماء . يقول :

ما العمر ان لم ينم في ظل التأبي والشمم

أو تحت تصفيق الدرفس على خميس ملتجم

يرمي الأعادي بالرجال وبالشواظ وبالحمم

فصحائف الحرية الحمراء من نار ودم "2"

ويأتي عيد الفطر سنة 1363 للهجرة ، فينتهز الشاعر هذه المناسبة ليبين للشعب أن يوم العيد هو اليوم الذي يتحرر فيه الوطن ، وليس العيد بلبس الجديد من الثياب ،بل العيد انتفاضة عارمة يقوم بها شباب الوطن ضد الغاصبين .

لا تظنوا العيد براق الثياب من ثمين الخز أو غالي الحرير

انما العيد اذا نادى الشباب وطن أثقله العادي المغير

1- حيفا في سواد العيون ص 58-59 .

2- ابتسام الضحى ص 77 .

أن نابي الموت كالأسد الغضاب يوم يدعونا الى الموت النفير "1"

وفي تعريضه يبين البحيري أن النواح والعويل لا يرجع الوطن كرامة ، لأن كرامة الوطن لا تعود الا بالحديد والنار. انه يوجه الكلام للباكين فيقول :

قم بها للكفاح بعد الكفاح لا تكلها لزفرة أو نواح "2"

ومع أن بكاء الوطن غرض من أغراض الشعر الفلسطيني بعد النكبة ، الا أن البحيري- على الرغم من الآلام التي تعتصره لبعده عن وطنه- يصيح بالباكين أن يكفوا من البكاء لأن الوطن ليس بحاجة الى الاحزان ،بل الى حشد الطاقات.

ياأيها الباكون يجرون الدموع جوى وسهدا
رفدا من الجفنين يستتالي على الخدين رفدا
ما نال ذو حق هوى بالدمع يغرق منه خدا
فالحق يؤخذ بالصفاح تؤدها الابطال أدّا
والمجد يبنيه القوي وما بنى ذو الضعف مجدا "3"

وليس معنى هذا أن البحيري لا يبكي ،فهو يبكي ويتوجع كأبناء الشعب الفلسطيني ،اذ من يستطيع أن يحبس دموع الناس الذين يهجرون ويطردون من وطنهم بقوة السلاح .
ولكن البحيري لا يبكي بكاء اليائسين الذين لا يجدون غير الدموع ، فهو مؤمن بأن النصر آت لا ريب فيه ،ولا يتحقق هذا النصر

1- ابتسام الضحى ص 118 . 2- حيفا في سواد العيون ص 49 .
3- الانهر الظماى ص 70 .

الا بالجهاد وحشد طاقات الأمة . وهذا واضح في قوله :

ضاع حق ليس يحمى بالجنود   انما القوة للحق عماد "1"

وشاعرنا في تحريضه على الثورة يذكر الشعب العربي الفلسطيني ،انه سليل أمة العرب التي حملت أعباء المجد . وتربعت على عرش الخلود .

هبوا استعدوا الغالب   وخذوا ايومكم الأهب

سيروا اليهم كاللهب   وأروهم عزم العرب

هبوا باقدام الأسود   فأمامكم خصم لدود

وابنوا كما بنت الجدود   وتبوءوا أوج الخلود "2"

ومازال البحيري يحرض العرب على القتال . وعلى الرغم من احتلال اسرائيل لأراضي دول عربية ،زيادة على احتلالها الكامل فلسطين ،فان البحيري مازال مشدود الوتر يقوي العزائم ،ويدعو شباب الأمة العربية للتضحية والفداء . يقول :

وفلسطين كلها ملكنا الحق   على رغم أنف كل مكابر

كيف تهنا لنا حياة اذا ما   ضاع منها لغاصب شبر شابر

فنفاحا يهز كل حمى   وكفاحا يروع كل مخاطر

وجلادا يوهي عسير الدواهي   وجهادا يروي فؤاد المخاطر

وايطل في العناد عمر الليالي   كل ليل له مع الصبر آخر

رفضنا رفضنا لأي احتلال   شاءه غاصب دخيل مقامر

سنوالي كفاحنا المر حتى   نرجع الأرض أو نزور المقابر "3"

1- ابتسام الضحى ص 119 .

2- الاصائل والاسحار ص 123 .

3- قصيدة " ريحانة العاصي " مخطوطة .

ومن الملفت للنظر أن يقول الشاعر : " وفلسطين كلها ملكنا الحق"، فهو يرد بهذا على من اخترعوا الحلول الجزئية لقضية فلسطين ، متصورين أن حل القضية يمكن أن يكون بتقسيم البلاد ، هذا التقسيم الذي رفضه شعبنا باصرار ، لأن الوطن الواحد لا يجزأ ، والتفريط بجزء منه خيانة لا تغتفر .

الاشادة بالثورة والثوار :

أشاد البحيري ببطولة الفدائيين الفلسطينيين ، كما أشاد بالثورة الفلسطينية التي عمت أرجاء فلسطين . ولم تكن هذه الاشادة من موقع المراقب للاحداث ، بل من موقع الذي عركته الاحداث ، وكان في معمعانها . فقد كان شاعرنا فدائيا مقاتلا وإذا فهو شاعر ملتزم بالثورة عملا وقولا . انه يشيد ببطولة الشعب الفلسطيني المجاهد دفاعا عن وطنه وأمته، فيقول :

فلسطين في الدهر أم الجهاد وبنت الجلاد وأخت الفدا

ولولا بنوها لنام الكفاح وما مد يوما لنصر يدا

فهم أيقظوا الشرق من غفوة مضى في كراها مدى سرمدا

فهب ينافح بغي الدخيل ويدفع عن حوضه من عدا "1"

وعاش البحيري أحداث الثورة الفلسطينية الكبرى التي تأججت بين عامي 1936م و 1939م . هذه الثورة التي استمرت أربع سنوات متواصلة تمكن الشعب خلالها من اسقاط مشاريع التقسيم

1- حيفا في سواد العيون ص71 .

الاستعمارية . وقد شهد لهذه الثورة الأعداء والاصدقاء ، ويفخر شاعرنا بتضحيات الشعب فخرا يذكرنا بالشعراء القدامى . على أن هناك فارقا بين فخر القدماء الذي لا يتجاوز حدود القبيلة ، وفخر البحيري الذي يعتز بالشعب والوطن . يقول :

اذا دعت الأوطان يوما ابغية ... بأرواحنا الظمائ أجبنا نداءها

نذود عن المجد التليد بصارم ... شمس الضحى منه استعارت ضياءها

ونبني من المجد الطريف صروحه ... وهمتنا القعساء تعاي بناءها

فما العز الا حيث آطامنا بدت ... تشاطر أقمار الليالي سناءها

وما المجد الا ما نشيد ونبتني ... ونحن المعالي قد جلونا رواءها

وفخر الثرى أنا وطئناه رفعة ... وفخر الثريا أن علونا سماءها

ومنا الذي قد روع الدهر بأسه ... وعام أحداث الزمان مضاءها

يدافع عن حق البلاد بهمة ... قضت أن ترى الدنيا تسير وراءها"1"

ويربط الشاعر بين تضحيات الاجداد ، وتضحيات الابناء قائلا :

اذا مادعا الداعي الدفاع عن الحمى ... رأيت قوانا تملأ الأرض والسما

وصيحتنا يوم التقدم مثلما ... روى أرضك الاجداد نرويك بالدما"2"

ويتحدث البحيري عن صمود الثوار أمام تعسف بريطانيا التي سجنت من سجنت ، وأبعدت من أبعدت ، وعلقت على أعواد المشانق الالاف . وعلى الرغم من هذا كله فان عزيمة الثوار لم تضعف . ويعبر عن هذا بقوله :

1- ابتسام الضحى ص48 .
2- ابتسام الضحى ص 29 .

انا غدونا صارمين لا نستكين ولا نلين

السجن والابعاد والتنكيل بل صاب المنون

خير لنا من أن نرى فوق الثرى ~~مستعبدين~~ مستضعفين

أو أن نعيش أذلة في أرضنا مستعبدين

هذي معاقلنا الأبية لا تذل ولا تهون

ثرنا لها كيما نعيد الحق وضاح الجبين

ثرنا لها كيما نرى الأجيال عزم العازمين "1"

وعندما أعلن قرار التقسيم الظالم عام 1947م عمت البلاد ثورة شاملة يشيد بها البحيري قائلا :

ياصخرة الأقصى ومعراج الهدى أغرت بأهليك الخطوب سفيهها

قوالي اصهيونية مأفونة سحبت على ذيل التغطرس تيهها

اليوم قد ولدت بأرضي ثورة ماأبصرت عين الزمان شبيهها"2"

ويشيد الشاعر بالأعمال الفدائية التي يقوم بها الثوار من نسف وتدمير ،كما يتضح في اشادته ببطولة الثوار الفلسطينيين ، الذين أحرقوا مطار" قلندية" بالقرب من مدينة القدس ، وكانت بريطانيا تستعمل هذا المطار لأعمالها العدوانية ضد الشعب الفلسطيني . وقد مر البحيري بمبنى المطار الذي التهمته النيران فكتب على بقية جدار هذين البيتين :

رددي ياريح قولا يعشق الحق سماعه

ما بناه البغي في دهر هدمناه بساعة "3"

1- ابتسام الضحى ص78 . 2- ابتسام الضحى ص 29 .
3- مخطوطة .

وعلى درب الثورة ،تتوالت مواكب الشهداء . ولا يفوت البحيري أن يشيد بعظمة الشهداء ، وتضحياتهم . ها هو يؤبن الشهيد عبد الرحيم محمود الذي استشهد في معركة الشجرة عام 1948م، واحضر جثمانه من ساحة المعركة ليدفن في بلده " عنبتا". ويقف البحيري على منبر مسجد البلدة مؤبنا الشهيد الذي ربطته به علاقة الكفاح والنضال . يقول :

دثروه بالحرير الأخضر	وادفنوه في ثرى من عنبر
واغرسوا ريحانة الطهر على	قبره في فت مسك أذفر
وانضحوها بالندى أو بالشذا	لا بدمع مثل غيث ممطر
فهو في الحق شهيد معلم	كان منه فوق أسمى منبر
ذكروه رن بأصداء العلى	يتمشى في جلال الأعصر
فاذكروه بأنا شيد المنى	لا بنوح من فؤاد مسعر
كيف يبكي موكب المجد اذا	سار الخلد بليث هيصر "1"

وبقي البحيري مشدودا لبطولات الفلسطينيين يتغنى بها ، ويشيد بأبطالها . وعندما أشاع العملاء ، والرجعيون من الحكام العرب أن الشعب الفلسطيني لم يحسن الدفاع عن وطنه ،وذلك ليستروا خيانتهم ومؤامراتهم التي أصبح التاريخ شاهدا عليها ،تصدى البحيري لهذه الشائعات مدافعا عن جهاد شعبه الذي مالان يوما لغاصب، حاملا على الخونة الذين خدعوا الشعب وخانوا الأمة .

1- حيفا في سواد العيون ص 88-89 .

كذب المرجفون فيما أشاعوا ... عنك من باطل مهيل كثيبا

شهد الحق لم يلن لك عود ... في مجال النضال كان صليبا

لا ولا هنت عزة وإباء ... سكرة الدهر منهما ان تثوبا

غير أن الذين كنت منارا ... في دجاهم يهدي الضليل السليبا

لبسوا بردة الخداع وأخفوا ... عنك ناب السباع كلبا و ذيبا

فشربت الأسى بكف ذوي القربى ... كؤوسا تبدي الزعاف حليبا "1"

ومازال البحيري الى الآن تهزه بطولات أبناء شعبه ، وكم تفاعل مع الصمود الاسطوري للفلسطينيين في مخيم تل الزعتر بلبنان الذين صمدوا عدة أشهر لهجمات الانعزاليين الفاشيين ، ولم يسقط المخيم الا بعد كفاح عسير مرير وقد اشار الى ذلك البحيري في قصيدته التي يقول فيها :

ودمانا على ثرى التل طيب ... بشذا الزعتر الندي تتنفس

شهد المجد أن عين الليالي ... وهي في سيرة العلا تتفرس

مارأت مثلها عناد جهاد ... وهي في ساحة الفدى تتبجس

نحن في " التل" لم نمت بيد انا ... قد جعلنا الى الخلود المعرس

ورفعنا على شموخ ذراه ... مشعل الصبر يستضاء و يقبس

وكتبنا على كريم ثراه ... بالدم الطاهر الزكي المقدس

يصرع الحق كل من صارع الحق ... وتأبى راياته أن تنكس

وفلسطين لم تكن لعبة اللاعب ... والنار جمرها كيف يلمس "2"

وهكذا نرى البحيري يتغنى ببطولات الثوار لأنه يرى أن الكفاح

1- حيفا في سواد العيون ص 45 .

2- قصيدة تل الزعتر ، مخطوطة .

المسلح هو الطريق الوحيد لاسترجاع الحقوق . وما دام الأمر كذلك ، فان الثوار هم أشرف الناس في المجتمع ، وواجب الاشادة بهم ، وببطولاتهم ، أمر يقتضيه واجب الالتزام الوطني .

حملته على المتقاعسين من الزعماء والحكام :

حمل البحيري على زعماء الأحزاب داخل فلسطين ، كما حمل على حكام الدول العربية . ففي الوقت الذي كان فيه العدو الصهيوني المدعوم من الامبريالية العالمية ، يعمل بكل جهده وطاقته من أجل السيطرة على فلسطين وطرد أهلها منها ، لم يكن بعض الزعماء الفلسطينيين في مستوى المسئولية ، اذ انتشر بينهم الخلاف وكان لهذا الخلاف أثر سيئ على المصلحة العليا للوطن . كما أن جل زعماء الدول العربية قبل النكبة الفلسطينية عام 1948م ، لم يقدموا لفلسطين غير معسول الكلام . وها هو البحيري يهاجم زعماء الاحزاب في فلسطين ، حيث يقول :

حدثوني عن الزعامة ماذا	أدركته بحلبة الاصلاح
غير جارٍ علا بعسف متتال	ضللته عن مسلك الافصاح
فهو إما سحابة من قتام	لاحتجاج أو بهرج لامتداح
كم سمعنا خوارها يتعالى	وهي حول الصحاف والاقداح
تملأ الجوف بالأطايب سغبى	اترينا جهدا عراك الكفاح
وتدير الكؤوس من كل شرب	اتغني للمشكل الفداح "1"

1- حيفا في سواد العيون ص 52-53 .

هذه الزعامات التي كانت في أحزاب متصارعة ،كل حزب يدعي الاخلاص والحرص على الوطن . ويتهكم الشاعر على هذه الأحزاب بقوله :

ولكل رأي بات حزب هوى   والحق فيه غدا بلا حزب "1"

ولم يطح الشعب الفلسطيني بهؤلاء الزعماء الذين يتهمهم البحيري هذه الاتهامات، مما جعله يخرج عن الموضوعية ،فيهاجم الشعب نفسه متهما اياه بالجهل . يقول :

أيها الشعب ياأخا الجهل هلا   همت بالحق ذي السنا الوضاح
كيف ترضى الحياة عبدا ذليلا   مستكينا ولم تثر الكفاح
كيف تعنو هونا لسوط اقتياد   مستبد ولم تلذ بالجماح
أنت في زورق الزعامة مجداف   تاهت به يد الملاح
أنت في ابجة الأنام قطيع   ساقه من رعاه سوق الأضاحي "2"

وما كان البحيري ليهاجم الشعب الفلسطيني ، لولا حرصه على أن تكون الأمور وفق ما يحب ويرضي خدمة للشعب والوطن . ومع أن مهاجمة الشعب خطأ كبير لأن الشعب لا يمكن أن يكون جاهلا ،ولا يرضى أن يكون مستعبدا . الا أن الذي يخفف من خطأ البحيري هو حرصه الشديد على الوطن . انه يريد أن يتحرك الشعب دفعة واحدة ، وهذا خطأ كبير يقع فيه بعض رجال الاصلاح . لأن الشعب لا يثور الا عندما تتوفر جميع العوامل الموضوعية لهذه الثورة ،كما حدث أثناء الثورات المتتالية للشعب الفلسطيني ، عندما

1- حيفا في سواد العيون ص 122 .
2- حيفا في سواد العيون ص 57-58 .

ضرب أروع الأمثلة بطولة وإقداما . وقد أشاد البحيري بجهاد الشعب الفلسطيني وبطولاته ، فكيف يناقض نفسه ويتهم الشعب بالجهل لأنه لم ينفذ ما يريد . وقد وقع في مثل هذا الخطأ الشاعر التونسي أبو القاسم الشابي ، الذي غنى لوطنه وشعبه أجمل الأشعار ، ولكنه هاجم الشعب التونسي في لحظة انفعال وغضب ، وذلك في قوله :

ليت لي قوة العواصف ياشعبي ... فألقي اليك ثورة نفسي
ليت لي قوة الأعاصير لكن ... أنت حي يقضي الحياة برمس
أنت روح غبية تكره النور ... وتقضي الدهور في ليل ملس
أنت لا تدرك الحقائق ان طافت حواليك دون مس وجس "1"

ومما لاشك فيه أن البحيري كان من أولئك الذين يدركون إدراكا عميقا ما يدبر للشعب في الخفاء ، ويدرك أخطار اختلاف الزعماء الفلسطينيين ، والاحزاب الفلسطينية . ولذا فانه كان يحترق ألما وخوفا على مصير شعبه الذي تحدق به الأخطار من كل جانب .

وقد هاجم البحيري الملوك العرب المتآمرين على فلسطين ، هؤلاء الملوك الذين تمكنت الصهيونية والامبريالية أن تنفذ من خلالهم الى فلسطين ، وأن تسيطر على مقاليد الأمور فيها . وكم كان الشعب الفلسطيني بحاجة إلى يد العون من حكام العرب ، لكنهم لم يمدوا يد المساعدة ، ولا كفوا عن الشعب رياح التآمر ، بل

1- ديوان أبي القاسم الشابي ص 247 .

كانوا هونا عليه خدمة المصالح الامبريالية . وكم من زعيم عربي وقف خطيبا أمام شعبه متباكيا على فلسطين وشعبها ، بينما هو في حقيقة الأمر مخادع كذاب . وها هو البحيري يندد بالملوك الذين استغاثت بهم فلسطين فلم يغثها منهم أحد . يقول :

كيف ناديتهم فهبوا وابوا　　يغزلون الرياء فيك نسيبا
فحسبت الحمي فيهم حميا　　وظننت المجيب منهم مجيبا
واذا هم في دعوة النصر حملان　　تردت اهابها مقلوبا
ياخرافا علت علينا ملوكا　　تلبس التاج زائفا مستريبا
هل تبدلت أرجها وجلودا　　أم تغيرت أضلعا وقلوبا
ويلكم ويلكم عبيد عروش　　سامهم ربهم هوانا ضروبا "1"

ويصرخ البحيري في وجه هؤلاء الملوك ، والحكام ، الذين لم يقدموا لفلسطين الا معسول الكلام . يقول :

كم حول أرضي عروش فوقها نصبت　　بمرة الظلم أصنام وأوثان
تاهوا على العرب يستعلون من صلف　　وتحت تيجانهم للعجم عبدان
وعللوني بألفاظ منمقة　　حتى اذا أوقعوني في الأسى خانوا
ياويح من جاورت أرضي عروشهم　　وغصنهم في رياض الصفو وسنان
أأغتدي لهوى اسرائيل دار منى　　له بأفنائها تاج وايوان
ويهدم المسجد الأقصى وصخرته　　وفي الورى من بقايا العرب انسان "2"

هكذا كان البحيري ، وما زال ، الشاعر الذي يحمل على المتقاعسين ،

1- حيفا في سواد العيون ص 46-47 . 2- الانهر الظمأى ص 103-104 .

والمترددين . كما يحمل على الملوك والروءساء الذين تاجروا باسم فلسطين ، حتى اذا اعتدلوا على كراسي الحكم ، أرهقوا فلسطين وشعبها بموءامراتهم . ومما ساعد البحيري على مهاجمة الزعامات التي لا تعجبه ، سواء كانت فلسطينية أو غير فلسطينية أنه لم ينضو تحت راية حزب ، أو زعيم ، بل عاش يزن الأمور بميزانه الوطني الخاص .

النكبة الفلسطينية :

نكبت فلسطين باحتلال صهيوني استيطاني ، كانت نتيجته أن طرد الشعب الفلسطيني من أرضه ، ليحل محله خليط من يهود أمم الأرض . وقد حدث هذا تنفيذا لمخطط استعماري يهدف الى وضع العالم العربي ضمن مناطق النفوذ الاستعماري ، وتكون فلسطين الجسر الذي تعبر عليه الصهيونية المدعومة من الامبريالية ، الى الوطن العربي بشتى الطرق والوسائل .

وليس هناك نكبة أكبر وأفظع من نكبة الشعب في وطنه . ولم يحدث في التاريخ - على حد علمي - أن طرد شعب من أرضه ، لذلك كان وقع النكبة على الفلسطينيين عام 1948م عظيما الى ابعد الحدود . والقارئ لشعر البحيري يلاحظ فيه ملامح النكبة بوضوح . يقول :

صبرا فلسطين الجريحة في الأسى ولو انه بلهيبه ملحاح
ما مرّ بالدنيا على أهوالها خطب كخطبك فادح رزّاح

خطب إذا هم اللسان بوصفه ... عجز البيان وأقصر الافصاح "1"

كان البحيري صادقا فيما قال ، فما مر بالدنيا خطب كخطب فلسطين ، وهو خطب يعجز اللسان عن وصفه . وليس هذا من قبيل المبالغة ، فهو الحقيقة بعينها . إذ كيف يمكن لشاعر مهما أوتي من بلاغة وبيان - أن يصف مأساة وطن بأكمله ، هذه المأساة التي عمت فلسطين فلم ينج من عواملها أحد . ويحاول البحيري أن يصف هذه المأساة حيث يقول :

أيا فلسطين يا عمق الأسى غصصا ... ويا سهاد الضنى نأيا وحرمانا
على توالي الليالي في تجهمها ... والعمر يمضي بها غما وأحزانا
إني لأ سمع والآلام تصهرني ... فالجرح يسعر في جنبي نيرانا
من كل مافيك من سهل ومن جبل ... مابات يرثي به أهلا وأخوانا
فكل حبة رمل وهي والهة ... تجرع الصاب إذلالا واهوانا "2"

وينتقل الشاعر من الحديث عن الصورة العامة المنكبة ، الى الحديث عن الاماكن المقدسة ، وما يتهددها من الصهاينة الذين لا يقيمون لها وزنا . إنه ينطق هذه المقدسات لتتحدث عن معاناتها وآلامها . ومن القصائد التي تتحدث عن هذه المعاناة ، قصيدته " المسجد الأقصى " وقد قالها في رحاب المسجد الاقصى المبارك ورحاب كنيسة القيامة المقدسة في 28 من رمضان عام 1367 هـ

1- لفلسطين أغني ص 108-109 .
2- حيفا في سواد العيون ص 4-5 .

الموافق للثالث من آب (أغسطس) عام 1948م "1"

بغمة الكرب والأحداث تشتجر ود همة الخطب والأرزاء تعتكر
وقفت بالمسجد الأقصى أسائله والنار في جنبات الصدر تستعر
وأدمع القلب تستتلي مساربها من مهجتي دم عيني وهي تنهمر
مابال محرابك الطهري تغمره ظلال غمّ دجاها ليس ينحسر
وما لمنبرك القدسي مكتئبا فما عليه لصوت الحق منتبر
وللمآذن قد غابت أهلتها فما عليها لإشراق الهدى أثر
فقال مستعبرا والروع ينطقه والأرض من تحته البركان ينفجر
رمى البغاة رحابي رمي منتقم وليس لي من مرامي حقدهم وزر
وليس لي من ذوي القربى أخو شمم وليس لي من طغاة الجور منتصر
إن الغزاة بأقداسي قد ائتمروا ومن تصا كل بعد للوغى نفروا
ومن تجاور داري دارهم نكصوا عن نجدتي وحراب الهول تشتجر
ففي القيامة هامات منكسة يدمي أكاليلها الشوك الذي ضفروا
ياويلتا سكتت أجراسها وغدا يبكي لآلام "فاديها" بها الحجر
وفي ذرا "بيت لحم" فوق مذودها و"مهدها" مدّ من ليل الأسى أزر "2"

ومما نلاحظه أن المسجد الأقصى تولى الاجابة عن أسئلة الشاعر. والمسجد الأقصى أولى القبلتين، وثالث الحرمين الشريفين، وهو معلم اسلامي بارز، واختيار الشاعر له اختيار دقيق قصد منه الى تبيين أن الاسلام هو حامي المقدسات للديانات الثلاث،

1- لفسطين أغني ص 94.
2- لفلسطين أغني ص 85-86.

وأن المسلمين هم الذين يتفجعون ان أصيب أي من هذه المقدسات بأذى . أما الصهيونية الحاقدة ، فهي مدمرة المقدسات منتهكة لحرمتها . ولم يستطع شاعرنا أن يحتمل هول النكبة . لقد أجبر على مغادرة وطنه اجبارا ، ثم عاد الى أرض الوطن ليشارك الثوار الفلسطينيين ، حربهم ضد العصابات الصهيونية . لكن المؤامرة كانت أكبر من كل التضحيات العظيمة ، ولم يستطع البحيري على هذا صبرا . لم يستطع أن يتصور أن وطنه الجميل أصبح حراما عليه ، حلالا للغرباء من كل جنس . وتحت وطأة هذا الذهول ، يفقد صبره ، ويتضعضع إيمانه بالله . ويتضح في قوله :

هبّت على وطن الأقداس عاتية فالعدل مغف وطرف الظلم يقظان
وللسماء انشغال عن مواجعنا فكل أقدارها للجور إذعان
كأنها ماقضت يوما بمرحمة أو أن رحمانها أغواه شيطان "1"

ويصل الأمر به الى حد رفض التسليم بالقضاء والقدر . اذ كيف يقضي الله بطرد شعب وهو العادل البر الرحيم . انه يتساءل في ذهول :

سلوا المقادير هل في الغيب رحمن ألواحها في يديه الدهر إذعان
فكل آن لها من غيبه حدث وكل يوم له في صرفها شان
وان يكن بزمام الأمر محتكما له على القدر الغلاب سلطان
فكيف يقضي بجور ثم ينقمه وكيف يرضى بظلم وهو ديان "2"

1- الانهر الظماء ص 100-101 .
2- الانهر الظماء ص 97 .

ان هذا الذي نقرؤه شعرا عند البحيري،كان يتردد على ألسنة الكثيرين من عامة الشعب؛ ممن فقدوا صبرهم بعد أن أصبحوا بين عشية وضحاها،ينتقلون بين الشعاب مجبرين على ترك البيت والأرض،تحت أزيز الرصاص وقصف المدافع. وكم من امرأة كانت تحمل اثنين من اولادها اضطرت للفرار بواحد وترك الآخر على قارعة الطريق.

واذا كان البحيري قد تزعزع ايمانه لهول النكبة- وهذا خارج عن ارادته- فان ايمانه بالله ايمان عظيم. وهو الايمان الايجابي الهادف الى التغيير نحو الأحسن، وليس ايمان العجزة اليائسين. ايمان البحيري هو ايمان المجاهد الثائر الذي يحترق ألما لما أصاب الدين والوطن. وليس هناك من يدعوه الا الله،فيناجيه بمرارة المنكوب العارف لأبعاد المؤامرة.

الهي زلزل الحق ونـاء فؤاده المجهد
وكادت ناره تخبو وكادت ريحه تخمد
وكادت كف اسرائيل تمحو مابنى"أحمد"
فأيّد عزّة الاسلام تعل بأيدك الفرقد
وثبت من شدا صبر الهدى ما كاد أن ينفد
وان لم ينصر الحق الذي أشفى ولم ينجد
وأمسى وجهه الوضاء أغبر في الورى أربد
فبعد اليوم لن ترجى وبعد اليوم لن تقصد

وبعد اليوم لن تخشى   وبعد اليوم لن تبعد

وبعد اليوم لن يركع اسلاما ولن يسجد "1"

ومازال جرح النكبة غائرا في قلب البحيري ، وهو يتعمق أكثر فأكثر كلما مرت السنين وازدادت حرارة الاغتراب .

الحنين الى فلسطين : -

شعر البحيري طافح بالحنين الى فلسطين التي هام بجمالها فتغنى بخضرة أشجارها ، وشموخ جبالها ، وزرقة بحرها . داعب ورودها ، وعب من ماء ينابيعها ، ونشأ بينه وبين طبيعة بلاده الجميلة علاقة يصعب أن يجد لها نظيرا عند الكثيرين من الشعراء .

كان حب البحيري للطبيعة في فلسطين حبا أقرب الى الذوبان في ذات الطبيعة - واذا فان ابعاده عن وطنه كان اقتلاعا من أرض ضربت جذور حبه في أعماق أعماقها . وها هو البحيري يبين مدى تعلقه بوطنه ، حيث يقول :

" وأنت يافلسطين ، يا ذات التراب الأقدس ، ياأول ماجال في رئتي من أنفاس الحياة . اني لم أغادرك طائعا ولا مختارا ، ولكنها أعاصير المقادير هبت عليّ عاصفة راجفة عاتية : . . فانتزعتني منك انتزاعا . . وطوحت بي في متاهات اليأس والأسى غصنا بلا جذور ، وجسما بلا قلب ، وشبحا بلا روح ، ورحيلا

1- حيفا في سواد العيون ص 78-79 .

بغير عزيمة . فلقد بقيت جذوري في ترابي ناشبة نشوب الصخر ، وقلبي في بيتي نابضا نبض الحياة ، وروحي في أرضي تعانق كل حبة تراب " ."1" وها هو يصور تعلقه بالوطن من خلال شعره ، فيقول :

يالدار صحبت فيها الأماني — وابست الشباب بردا قشيبا
ورأيت الحياة أول فجر — ضاء من خاطري فضاء رحيبا
وسمعت الرجاء في فرحة العمر — يغني الحن الهوى عندليبا
لم يطعني الفؤاد بالبعد عنها — يوم أزمعت عن حماها الركوبا
فجفاني وظل فيها مقيما — يكمل العمر حسرة ووجيبا "2"

ولا يستطيع البحيري أن يعيش بغير فلسطين ، وما دامت الاقدار العاتية قد حرمته من وطنه ، فانه نقل صور الوطن الى منزله ، يعيش معها ذكريات عزيزة على قلبه ، ويمتع ناظريه بصور عاش معها على أرض الواقع أحلى وأمتع أيام عمره .

ولا أعدو الحقيقة عندما أقول : ان بيت البحيري - كما رأيته في دمشق - معرض للصور الفلسطينية . ويبين الشاعر هارون هاشم رشيد مدى تعلق البحيري بفلسطين اذ يقول : " فلسطين عند البحيري شغله الشاغل في ليله وفي نهاره ، في سره وفي جهره ، في صحوه وفي منامه ، في فرحه وفي حزنه . فلسطين التي تسكن سواد عينيه ، وسويداء قلبه ، تحتل كل شبر في منزله ، وكل ركن من أركانه . انها في منزله بكل وجودها : جبالا ، وانهارا ، أودية ،

1- حيفا في سواد العيون ص 13-14 . 2- حيفا في سواد العيون ص43-44 .

وسهولا ، مدنا ، وقرى ، شموسا وأقمارا . انها في منزلة ماء جدرانه وخزائنه ،وأدراجه ،ومعاطفه ، وجيوبه . فلسطين في كل شيء عند البحيري ، ومع البحيري . . انها دنياه وعالمه ، ملكوته وحبه ، عشقه وغرامه ، عمله وجهده ، ثباته واصراره " "1"

وقد جاء حنين الشاعر متناسقا مع حبه العظيم لفلسطين فسطر في شعره أروع آيات الشوق التي يرى القارىء من خلالها دموع الحنين ، ويسمع آهات شاعر أوجعته سياط الغربة.يقول :

فلسطين يالهفة في الضلوع — يحز على الدهر سلوانها
ويا حرقة في سيل الدموع — يفيض من القلب هتانها
ويا حسرة لو غدت في الجبال — لكان تصدع صفوانها
كتمت أساها وحر لظاها — فأوهى التجلد كتمانها
فسالت غيوثا من الدمع والدم تغرق خدي غدرانها
فلسطين يارمضا في جراح — أبت أن تفتر نيرانها
ويا خفقة في حواني الصدور — تسعر كالجمر أحزانها "2"

وقد بلغ به حبه ايا ها أن تخيل أن هناك من يلومه على كل هذا التوجع والحنين ، مما جعله يدافع عن حنينه قائلا :

لا تلمني على حنيني الأرضي — من ضياها ضاء الورى القمران "3"

وكيف لا يحن لوطنه هذا الحنين من يرى فيه جنة حياته وقبس نوره

1- ظلال الجمال ص 37 .
2- ظلال الجمال ص 59-60 .
3- ابتسام الضحي ص 79 .

وايمانه ، كما يجري فيه عمق وجوده ، وغاية عيشه وقصة عمره .
ويكشف عن كل هذا في قوله :

نجية صدري وفيك جذوري | وروض زهوري وبستانها
وجنة ينع ثمار حياتي | واقباس نوري وايمانها
وعمق وجودي وغاية عيشي | وقصة عمري وعنوانها "1"

وتزداد الصورة وضوحا عندما يتعبد في محراب الذكرى وقد شفه الوجد ، وطلك عليه أحاسيسه ، فاذا به يخاطب فلسطين بلوعة من لا يستطيع عنها ابتعادا .

فأنت من القلب دفق الدماء | وأنت من العين انسانها
وأنت من الروح سر الحياة | وأنت من النفس وجدانها
وأنت وراء الحياة حياة | يطول على الخلد ميدانها
ويعيى رؤى الوهم حسبانها | ويقوى على الدهر سلطانها "2"

ويبقى الوطن عزاء الشاعر في كل ما مر به من محن . فالوطن لا يغيب عن خاطره مهما توالت الاحداث ، ذلك لأن الوطن يبقى في نظر الشاعر هو الكبير وهو الأهم .

أيا وطني وأنت عزاء نفسي | على يأس به دجت الخطوب
ضممتك في شغاف القلب جرحا | بعيد السبر ليس له طبيب
وأنت على مبدى عمري صباح | تنير به الى أملي الدروب
فلم يمسحك من جفني ظلام | ولم تضمرك في صدري كروب "3"

1- ظلال الجمال ص 67- 68 . 2- ظلال الجمال ص 69 .
3- مخطوطة .

ومما أوردته من شعر الحنين ، نلاحظ أن الشاعر يحن للوطن بأكمله . وليس شعر الحنين عنده على هذا النحو فقط ، فهو يخصص حنينه في بعض قصائده لمدينة حيفا مسقط رأسه ، وهذا أمر طبيعي ، لأن هذه المدينة التي عاش فيها صباه وشبابه ، سيطر هواها على قلبه . انه يعرف كل ما فيها يعرف شوارعها وأزقتها ودوانيتها ، يعرف وديانها وجبالها وسهولها . ان الذين يعرفون حيفا كثيرون ، ولكن الذين تعرفهم حيفا قلة ، وحسن البحيري من هذه الصفوة القليلة . ان التمازج بين حيفا والبحيري يشبه تمازج الروح بالجسد . ان البحيري يحن الى فلسطين ، وحيفا تقع في بؤرة هذا الحنين . وقد شاهدت في بيت البحيري مناظر مختلفة لمدينة حيفا في غرفة نومه . وهي معلقة على جميع جدران الغرفة ، بحيث يراها أينما اتجه ببصره . وخلال لقاءاتي معه ، كنت أحس أنه عندما كان يتحدث عن حيفا ، كانت الكلمات تحمل ظلالا وأبعادا . وترق الكلمات وتعذب ، وهو يصور جمالها الفتان . كيف لا ! وهي التي تسيطر على مشاعره ولا تفارقه .

ماجن ليل على مغف ولا يقظ الا وحيفا بجفني السهد والحلم
ولا تجلى صباح في مفارحه الا وحيفا بجنبي السهم والألم"1"

ومما هو يناجي " حيفا" مناجاة تهتز لها القلوب ، لأنها مناجاة صادرة عن قلب صهره الوجد والحنين . يقول :

1- مقطوعة مخطوطة .

حيفا وأنت مزاج الروح في رمقي   وعمق جرح الهوى في موجعي الخفق
لأنت في دم أعراقي جوى خفقت   بنبضه لهفة موصولة الحرق
بكل ما مر من عمر الهوى ومضى   وكل ما ظل من عمر الهوى وبقي
يالحن أغنية أصداؤها ارتعشت   في جذر قلب بجذر الأرض معتلق
يعيا به في متيهات الحنين حيا   دمع على صفحات الخد مستبق "1"

ويبلغ الحنين أوجه عند ما يصور البحيري مدى ما يكنه لحيفا من حب . فهي عيناه ، بل هي عمره ، وهي طلعة فجره المنير . ومهما كتب عن حبه لها ، فلن يبلغ قرارة ما ضمته جوانحه من شوق . يقول :

عيناي أنت وأنت العمر أجمعه   وأنت عرس السنا في مأملي الألق
وأنت طلعة فجري نورت سبلي   وأنت غيبة شمسي الهبت غسقي
يشدني لك شوق لو غمست له   يراع شعري في صوب الحيا الغدق
ورحت بالحب والذكرى أصوره   دمعا على الخد أو حرفا على الورق
لجف حبري ولم أبلغ قرارة ما   ضمت جوانح صدري من لظى حرقي "2"

ولا يجد البحيري ما يهديه لحبيبته حيفا ، بعد أن تقدمت به السن غير شعره ، وهو أعز ما يملك ، بل هو كل ما يملك . ما هو يهديها ديوانه " ظلال الجمال" قائلا :

" الى حيفا مدينتي الحبيبة المعبودة الملهمة ، أقدم هذه الظلال المقتبسة من رائع ظلال جمالها ، عساها ان تتكرم

1- افلسطين أغني ص 77-78 .   2- افلسطين أغني ص 79-80 .

بتقبلها من ابنها المنصهر بنار حبها" "1"

وتتلاحق السنين والبحيري يعاني من مرارة البعد عن أرض الوطن وكم تمنى لو تسمح له الأيام بالعودة الى وطنه ، ولكن هيهات هيهات . السنوات تمر وسياط الشوق تزداد ، ويتخيل البحيري أنه التقى بطيف زار الوطن ، فبدأ يسأل هذا الطيف عن الربى والسفوح والقمم الخضر ، عن المروج والشطوط ، عن الديار التي افتقدت أهلها . انه يناجي الطيف عله يسمع منه ما يخفف حرارة وجده وحنينه . هذا الوجد الذي لم تستطع أن تعبر عنه الكلمات فعبرت عنه الدموع . يقول :

أيها الطيف يابن جرح دفين ... لم تزده الأيام الا نشوبا
هات حدث عن خير أرض حديثا ... يجعل الدمع سائلا ومجيبا
بالربى بالسفوح بالقمم الخضر ... بأرض تسنى ذرى وسهوبا
بالمروج الرحاب تطفح حسنا ... بالتراب الطهور ينفح طيبا
كيف وافيت أربعي وديماري ... والليالي بها تمر خطوبا
والزمان العسير يولي بنيها ... بالقضاء المرير وجها قطوبا
والغريب الجليب يحيا كأن لم ... يك يوما فيها الغريب الجليبا"2"

وهكذا لم تغب فلسطين عن خاطر شاعرنا . انها ماثلة أمام عينيه يحيا بها ومن أجلها ، وهو مشتاق للقائها أشد الاشتياق . يقول :

1- ظلال الجمال ص 22 .

2- حيفا في سواد العيون ص 42 .

أيرجع فيك من الدهر عهد صفي الليالي وحسانها
فيطفيء وقد أوار الحنين ولوع الضلوع وهيمانها
بتقبيله بجفون العيون ثرى الأرض دلمه ولهانها "1"

وعلى الرغم من هذا التساؤل فان البحيري واثق من العودة الظافرة الى أرض الوطن الحبيب .

الآمال بالنصر :-

يعيش البحيري على أمله بالنصر ،لكن أمله ليس أمل المتواكلين ،فهو يدرك أن مهر النصر شلال من الدم ولا يمكن أن يتحقق النصر بدعاء الكسالى ،لكنه يتحقق بجهاد المؤمنين الصابرين . ويرسم البحيري صورة معركة المستقبل التي ستحرر كل شبر من أرض الوطن ، عندما يأتي المقاتلون من كل حدب وصوب ،من الجو والبر والبحر،يحدوهم الحنين الى الأرض .
سيأتون مشحونين بالآلام الجراح ولوعة اليتم، سيأتون في قصف الرعود ، وعصف الرياح ، لا يبالون بالخطوب مهما كانت دواهيها . يقول

يا ثرى القدس لن يقربك الباغي ولن تقشعر منك الدوائر
قد بذلنا لك النفوس رخاصا وافتديناك ثائرا بعد ثائر
وسنمضي اليك والليل داج وسنمضي اليك والصبح سافر
من تخوم النجوم من باطن الأرض ومن لجة البحار الزواخر

1- ظلال الجمال ص 68- 69 .

في أزيز الرصاص في صيحة الروع اشرأبت بها اليك الحناجر

في ثلوج الشتاء قصفا وعصفا   في الاعاصير في حرور الهواجر

في هزيم الرعود في غضب الريح   وجمر الوغى وري المساعر "1"

والبحيري واثق من النصر لأن الحق لا بد أن يمحو الباطل.

وهو يقول :" وستظل الحرب سجالا بيننا وبينهم. فمرة علينا ، واخرى عليهم ،الى أن نمحو بنور حقنا ظلام باطلهم وانا عليهم -في نهاية الامر -باذن الله تعالى امنتصرون " "2"

وهو يقسم بفلسطين الطاهرة وبرايات الفداء والجهاد أن اليهود لن يستقروا على التراب الفلسطيني ، مادام في الشعب الفلسطيني عرق ينبض .يقول :

وطني وأمجادي على ثغر الزمان تبسم

ولعودتي يوم به عرس العلا يترنم

والثأر في صدري براكين اللهيب تزمزم

قسما برايات الفداء هفت اليها الانجم

بترابك الطهري وهو على اليهود محرم

لن يستقروا فوق أرضك والعروق بها دم "3"

وهاهو يبشر القدس عاصمة فلسطين بطلوع فجر الحرية ، بعد ظلمة الاحتلال البغيض . يقول :

1- افلسطين أغني ص 53-54 .   2- لفلسطين أغني ص 46 .

3- لفسطين أغني ص 110 .

وارتقبي ياماذن القدس يوما   يطلع الفجر من عبوس الدياجر
فغدا تكشف الليالي دجاها   وتجلي صبحا وضيء المسافر
وغدا نرقص الزمان انتصارا   ونزف المنى بعرس البشائر "1" .

وبمزيد من التفصيل عن عيد النصر، يقول :

وغدا في موكب النصر مع الفجر الوليد
يرجع الحق لأهل الحق خفاق البنود
راقص البهجة والنشوة في أفراح عيد
تنشد الدنيا له في عرسها أحلى نشيد "2"

ومازال البحيري ينتظر يوم النصر والعودة، وعلى الرغم من طول انتظاره فانه يعيش على الأمل، لأن اليأس لا يعرف إلى قلبه سبيلا .

1- قصيدة ريحانة العاصي مخطوطة .
2- فلسطين أغني ص 60 .

الفصل الرابع

الشعر القومي

حسن البحيري شاعر قومي بكل ما تعنيه هذه الكلمة من ابعاد ، فهو معتز بانتسابه الى أمة العرب ،فخور بأمجاد هذه الأمة التي ضربت بسهم وافر في الحضارة الانسانية ،ونشرت العدل في كل مكان رفرفت أعلامها عليه . واذا كان الاعتزاز القومي سمة عامة عند معظم الشعراء الفلسطينيين فان البحيري يقف في طليعة هؤلاء الشعراء . وقد تبلور الشعور القومي عند شاعرنا نتيجة عوامل عدة ،يمكن حصرها فيما يلي :-

أولا : نشأته :-

نشأ البحيري منذ نعومة أظفاره بين صفوف الشعب وتحسس الآمال والآلام التي تعتمل في نفوس الجماهير . ولم تفصله أية حواجز عن التفاعل مع شعبه . ففي صباه وجد نفسه بين الناس يمشي في المظاهرات المناوئة لبريطانيا والصهيونية ، دون أن يعي -لصغر سنه- هدف هذه المظاهرات . كان يردد الشعارات التي تؤكد عروبة فلسطين ، كما يرددها أبناء شعبه ، فجرت هذه الشعارات كلاما على لسانه قبل أن ترسخها الأيام في قلبه وعقله .

ان الشعب العربي الفلسطيني حريص على مجد العرب وعزتهم، وقد عمقت المؤامرات الصهيونية والاستعمارية على فلسطين الوعي الوطني والقومي لدى الجماهير الفلسطينية . فما كان للصهاينة والمستعمرين أن يجرؤا على تنفيذ مؤامراتهم ،لو كانت الأمة العربية متحدة قوية الجانب .

وهكذا تشرب البحيري النابت في حقل الجماهير احساس الشعب الفلسطيني بعروبته وانتمائه القومي ، وشب لا يرى نفسه الا واحدا من ابناء هذا الشعب الذي هو جزء من أمة عربية عظيمة . وعلى الرغم من اعتزازه اللا محدود بفلسطين فان هذا يصب في مجرى الاعتزاز بالأمة العربية ، والتمسك بالوطن العربي ، الذي تحتل فيه فلسطين مكان القلب .

ثانيا : ثقافته :-

ثقافة الشاعر عربية في المقام الأول

اذ اطلع على عيون الادب العربي وأمهات الكتب ، وهو مازال ينهل من الثقافة العربية ، وينمي معارفه من خلال اطلاعه الدائب ، كما أن قراءته ودراسته الدائمة للقرآن الكريم ، تجعله مشدودا بشكل دائم الى اصول اللغة والثقافة العربية ، بكل ما يعنيه ذلك من اهتمام بحضارة الأمة .

وغني عن القول : ان الثقافة المزدهرة الأمة العربية

الاسلامية ،كانت أيام منعة الدولة وقوتها . ولذا فان الاطلاع على الثقافة العربية ينمي الروح القومية عند المطلع عليها ، ويجعله شديد الاعتزاز بأمجاد هذه الأمة وحضارتها .

ثالثاً : احتكاكه بالجماهير العربية :-

تنقل البحيري بين عدد من الاقطار العربية وتلمس مشاعر الجماهير التواقة دائما الى العمل الجاد من أجل خدمة الهدف المشترك للأمة العربية ،وهو الوحدة العربية الشاملة . ومازالت الوحدة أمل الجماهير ،الا أن الحواجز الاقليمية الضيقة التي صنعها الحكام تحول دون تحقيق هذه الآمال .

وقد لمس الشاعر عمق الاحساس الجماهيري بالقضية الفلسطينية ، وهي القضية المركزية للأمة العربية . واذا كانت الحواجز الاقليمية تحول دون المشاركة الفعالة للجماهير العربية فان شاعرنا مؤمن بأن يوم الوحدة آت لا ريب فيه . وقد أحس بهذا في مصر وسوريا والأردن ولبنان ، وهي الاقطار التي تنقل بينها والتقى بالجماهير العربية فيها .

وزيادة على ذلك فان البحيري عاش بعد النكبة الفلسطينية موجها للجماهير العربية ،من خلال عمله في الاذاعة السورية بدمشق طوال ثلاثين عاما ،مما جعله متحمسا لأهم القضايا التي

يجب غرسها في نفسية المواطن العربي ، كما أنه يعيش بين جماهير الشعب العربي السوري ، التي لعبت دورا أساسيا في عملية المد القومي الذي عم المشرق العربي في الخمسينات ، وعملت على ارساء دعائم دولة الوحدة مع الشعب العربي في مصر .

هذه العوامل مجتمعة جعلت من البحيري شاعرا قوميا ، وما كان لهذه العوامل أن تؤثر في شخصية البحيري ، لو لم يكن مهيئا بطبيعته للتفاعل مع هذه العوامل والتجاوب معها .
ومن خلال دراستي للشعر القومي عند الشاعر ، يمكنني أن أبوب مواضيع هذا الشعر كما يلي :

الاشادة بالأمة العربية وأمجادها :-

البحيري ابن الأمة العربية

المعتز بأمجادها التليدة ، وهو يرسم صورة هذا المجد الذي كان لأمة العرب ، يوم أن كانت تقول ، فيصغي لها العالم ، ويوم أن بنت حضارة يعز على الكثير من أمم الأرض أن تضارعها أصالة وشموخا . وهو يشيد بهذا المجد حيث يقول :

فنحن بني العرب من أمة ... موثّبة في العلا محتدا
أراد الخلود بها غاية ... تعز على وهمه مقصدا
ونحن على ذروة الخافقين ... وطئنا بأقدامنا الفرقدا
وفوق السماء وراء النجوم ... تخذنا لنا في العلا مقعدا "1"

1- حيفا في سواد العيون ص 70-71 .

وهو معتز بالآباء والأجداد، الذين سطروا صفحات المجد الخالدة، واعتلوا عرش الزمان بكل عزة وإباء.

ملكوا الليالي واعتلوا أفراشها وغدوا لتيجان العلى تيجانا
أبناء صدق كانت الدنيا لهم والغيب والأقدار في من دانا
تركوا بسفر الخالد صفحة مجدهم فتلا الخلود سطورها غيرانا "1"

وما كان لمجد الأمة أن يحمى من غير قوة، ولذا فان البحيري يشيد بالجيوش العظيمة التي فتحت البلاد شرقا وغربا، اعلاء لشأن دين الله، غير عابئة بالمشقات لأن نفوس جند المسلمين كانت أقوى من كل الصعاب.

أين تلك الجيوش تردي الليالي وعنيد الزمان تحت الدرفس
أين تلك النفوس تأبى الثريا وأعالي السماك موطئ دعس
ابتنت عرشها العزيز المفدى فوق هامات كل بدر وشمس "(2)"

ويلاحظ من خلال التساؤل الذي يطرحه، مدى المرارة التي يعاني منها، وهو يرى الأمة العربية المنقسمة على نفسها، قد طمع بها حتى الأذلاء من الأعداء.

ولا يغفل البحيري وهو يتحدث عن تلك الجيوش مظاهر قوة الجيش في ساحة المعركة. فيصف الخيول المطهمة، وهي القوة السريعة الحاطمة للفرسان، وبها اعتز شعراء العرب منذ القديم.

1- ابتسام الضحى ص 37.
2- الاصائل والاسحار ص 97.

ومع أن البحيري لم ير هذه الخيول ولا فرسانها ،الا أنه لاطلاعه على تاريخ الأمة ،يعرف دقائق الأمور عن جيوش العرب المسلمين عدة وعتادا . يقول :

هذه الخيل والفوارس تعاً   صهوات كانت لعضب وترس
صافنات صواهل تنشد الحرب   سراع الأقدام نشدان مس
ماتبارت كالسيل الا انتصر   فهي أسد عدت افتك وفرس
ما تراها تسري كشهب نجوم   وهي تجتاح جيش روم وفرس
تلك جن من تحت جن لعمري   ثائرات ليست بخيل وانس "1"

والشاعر مدرك أن هذه الجيوش العظيمة التي سارت شرقا وغربا ،لم تقاتل حبا في القتال ، انما كانت تقاتل من أجل نشر الاسلام ، حتى يعم الايمان بالله كل بقاع الأرض . ومن هنا فجيوش أمتنا كانت جيوشا تحمل رسالة الهدى والنور ، ولم تكن تحمل الدمار والخراب ،كما تفعل جيوش الدول الاستعمارية . وهذا ما يحرص الشاعر على تبيينه ،ويتضح هذا في قوله :

أي ركب في منهج الحق سائر   مشرق المجد مستنير المآثر
من ذرى موئتمة الطهور الى القدس   تجلى به وضاء المفاخر
نشرت عزة وزهو جلال   سدرة المنتهي عليه الأزاهر
وحداه الروح الأمين بآيات   جهاد منزهات الشعائر
ذلك ركب الهدى عليه من الله   جلال الرضا ويمن الميامن

1- الاصائل والاسحار ص 93 .

والنبيون فيه أعلام نــور   والنبوات زغردات بشــائــر "1"

والبحيري مدافع عن مجد الأمة العربية ،أمام دعوات التضايل التي يطلقها المستعمرون وأبواقهم . فعندما هاجم الشاعر "رديارد كبلنج" الشرق زاعما أن الغرب لا يلتقي مع الشرق ،رد عليه البحيري بقصيدة طويلة بعنوان " الشرق" ،وصفها الاستاذ عمر الدقاق بقوله : "كان حسن البحيري واضحا وصريحا حين أخذ يخاطب الأديب الامبراطوري مباهيا اياه بحضارة الشرق" "2" . وقد قال البحيري في مقدمة قصيدته : ، نظمت هذه القصيدة ردا على شاعر الاستعمار" رديارد كبلنج" الذي قال : الشرق شرق ،والغرب غرب ،ولن يلتقيا . هذا الدعي الهاذي ، الذي تخرص زاعما أن الشرق شرق وضيع حقير ، والغرب غرب عزيز شريف ، وأنه لن يلتقي ذلك الغرب الشامخ الأنف بهذا الشرق المطأطيء الرأس "على زعمه" .

فياأيها الغربيون الذين خدعتهم الأوهام وغرتهم الأماني ، وأعشى ابصارهم ضوء مدنية زائفة ،فعموا أو تعاموا عن ظلام جهلهم الغابر المزري ،ونسوا أو تناسوا ضلال حاضرهم في جحيم الكبرياء . اسمعوا وعوا : ان التاريخ أنشودة مابرحت تهمهم في صدر الآباد ،ولا تزال تدوي في سمع الآزال مرددة : سحر الشرق ، وجلال الشرق ،وخلود الشرق" "3" ويقول البحيري في قصيدته :

لا تستهن ياغرب إنا أمــة   كتب اسمها لذرى العلا عنوانا

1- الفلسطين أغني ص 47 .
2- الاتجاه القومي في الشعر العربي الحديث - عمر الدقاق - دار الشرق بحلب ط2 سنة 1963م ص 76 .   3- ابتسام الضحى ص 33-34 .

فاذا جهات امارب مدنيـــة سمقت وعـزت في العلا بنيانـــا

فسل الفرات عـن الذين تبوأوه فقـد وعـى ماشنــــف الآذانا

سـل عنهـم " اليرموك" سـل " بـردى" وسـل " نيل الكنانـة" أوسل"الاقيانا"

أوسـل ربوعك فهي أذنى ذكـرة ارأت لهم في دهرهـا أقرانـا "1"

لقـد عـدد الشاعر بموضـوعية وصدق ، ماثر أمـة العرب التي بنت حضارة عظيمـة في اليمـن قبل الاسـلام ،ثم مـآثـر الأمـة العربيـة الاسـلاميـة ،التي بنـت صـروح العلـم والمعـرفـة في العراق والشـام ومصـر، وفي كل مكـان رفـرفـت أعـلامهـا عليـه شـرقا وغربـا . انـه بعـد هذا يوجـه الكلام الى " كبلنج" فيقـول :

" رديارد" هذا الدهر سلـه من ابتنى الهرمين ؟ سلـه من اعتلى الايوانا ؟

قم سلـه من فتحوا الممالك ظفـرا حتى غدت لظلالهم عبــدانا

عـرب اذا شدوا لأمـر واغتـدوا سجدت أمامهم الدنى اذعـانـا

ولقـد صدقت فاننا في شرقنـا أبناء صيد مذنوا الأكـوانـا

لا نلتقي بالغـرب يوم تفـاخـر كلا فأين الليل مـن اضـوانـا

الشرق شرق عـزة ومهـابـة والغـرب غرب خسـة وهـوانـا

انا أنـرنـا غربكم بضيائنـا . أيـام كنتم في الورى قطعـانـا "2"

ومـن الملاحظ أن البحيري يـدافـع عـن الشرق بحـرارة ، وهذا أمـر طبيعـي ،لأن أمـة العـرب تنتمي للشـرق ،بـل ان الشـرق لا يعـني عنـد الشاعـر في الغالب سـوى أمـة العـرب . وهذا ما ذهب اليـه

1- ابتسام الضحى ص 38 ، 39- .

2- ابتسام الضحى ص 40 ، 43- .

الاستاذ عمر الدقاق عندما قال : " بأن الشرق غدا في ذهن حسن البحيري من شعراء فلسطين ، يعني العرب أيضا وذلك في قصيدة أطلق عليها اسم " الشرق " . ونحن نجد هذا الاتجاه - أي مطابقة الشرق العرب - لدى بعض الذين مسوا القضية العربية " "1"

ومع أن البحيري شاعر وطني غيور ، لا يرضى أن ينتقص من شأن أمته أحد الا انه خرج عن الموضوعية في قوله : " والغرب غسة وهوانا" و" كنتم في الورى قطعانا" . فالدفاع عن الشرق لا يعني اهانة الغرب ، ولكن شاعرنا اندفع بعواطفه فتجاوز الحد ردا على غطرسة"كبلنج" الذي هاجم الشرق بعيدا عن كل منطق .

ومن بديهيات الأمور أن العرب الذين فخر بهم الشاعر في قصيدته ، هم عرب الأمس وليسوا عرب اليوم . اذ أن عرب الأمس هم الذين " سجدت أمامهم الدنى اذ عانا" ، أما عرب اليوم فهم كما قال : " أبناء صيد مدنوا الاكوانا" . ولو كانت الاوضاع التي يعيشها الوطن العربي مرضية للشاعر ، لفخر بالأبناء كما فخر بالآباء . ولا يترك الشاعر مجالا للشك في هذا ، حيث يقول :

كانت لنا الأرض مجدا والعلا حسبا   واليوم نحن فلا مجد ولا حسب"2"

صحيح أن الشاعر فخر ببطولة الثوار الفلسطينيين ، والثوار العرب بشكل عام ، الا أن الوضعية العامة للأمة العربية بقيت دون المستوى بكثير .

1- الاتجاه القومي في الشعر العربي الحديث ص100 .

2- ابتسام الضحى ص 47 .

ان الغيرة القومية هي التي أملت على البحيري أن يتصدى "اكبلنج" عام 1364هـ على الرغم من أن الاقطار العربية كانت تحت حكم المستعمرين . وهي التي أملت عليه أن يعتز دوما بالأمة العربية وهذا الاعتزاز نابع من الانتماء الأصيل لهذه الأمة العظيمة التي ستأخذ مكانتها في المستقبل القريب ،كما أخذت مكانتها في الماضي .

تقاعس العرب عن حقوقهم :-

لم يكن من السهل على البحيري أن يرى الأمة العربية تتناوشها حراب المعتدين ، وتقتسمها دول الاستعمار ، وهي الأمة التي رفرفت أعلامها شرقا وغربا ،في الوقت الذي كانت فيه الدول الاستعمارية التي تتطاول عليها اليوم مغمورة منسية . ولا يرى البحيري أي مبرر لاستمرار ضعف الأمة العربية،لأن عوامل قوتها متوفرة ، ومع هذا فانها لا تستثمر بل تضيع وتتبدد في خلافات جانبية . ويصيح الشاعر بقومه العرب قائلا :

فلم أر مثلكم في الناس شعبا ... تبدد فرقة ومضى انشعابا
وأدلج في غوايته ضلالا ... فاغرق في عمايته اضطرابا
ولم أر مثل أرض العرب أرضا ... لغير قطينها كانت رحابا
فروى الذل مالكها هوانا ... وعز الأجنبي بها جنابا
وأين شبابكم يحمون دارا ... لأيدي الغاصبين غدت نهابا "1"

ولم يقف البحيري متفرجا على أمته وهي تعيش هذه الحالة ،

1- الانهر الظمأى ص 89-90 .

بل عمق من منطق الالتزام الى تبصير قومه بعواقب الامور ،يدعوهم الى الوحدة ونبذ الخلافات واعداد القوة لدحر المعتدي الغاصب ، وهذا ما يتضح في قوله :

رأيت الدهر يجري والليالي — توالى بالورى خيلا عرابا
وقومي في مضاجعهم رقود — أضاعوا من تعاقبها الحسابا
فقمت الى شباة يراع حق — تلألأ كوكبا وضى شهابا
لأدفع عن ذمارهم العوادي — وأرفع عن سباتهم الحجابا "1"

ولكن الخلافات تزداد ،كما يزداد فتك المستعمرين بأمة العرب ، حيث قطع الوطن العربي الواحد الى أقطار متنابذة ،وعمد كل قطر الى حدوده المصطنعة يعليها يوما بعد يوم ،فازدادت الاقليمية وازداد الشرخ حتى كأن هذه الاقطار العربية لم تكن في يوم من الأيام منظومة في عقد واحد . فاذا ألمت بقطر عربي مصيبة ما ، كان الموقف منها سلبيا الى أبعد الحدود . وليس أدل على حالة المهانة من أن إسرائيل سيطرت على فلسطين ، وأراضي دول عربية ، ومع هذا فان الواقع العربي لم يتغير الى الأحسن بل ازداد سوءا .

ويتحدث البحيري عن الموقف المتخاذل للأنظمة العربية التي لم تقدم الحد الادنى من الدعم الذي يجب أن يقدم للشعب الفلسطيني الذي يخوض حربا شرسة ضد الصهيونية والامبريالية ،

1- الانهر الظماء،ص 79-80 .

يقول :" نجابهم ويتفردون بنا على مرأى ومسمع من عالم عربي مترف منعم فائض الغنى واسع البقعة كثير العدد وافر العدة قادر على صنع كل شيء ،ثم هو لا يصنع أي شيء ، المهم غير تقديمه الضئيل القليل من مساعدة لا تسمن ولا تغني من جوع ، وغير تظاهره بمساندة لا تحقق أملا ولا تقرب يوم نصر .. كأن الجرح لا يمسه من قريب ولا من بعيد ،وكأن القضية لا تهمه بكثير ولا بقليل " "1"

ولا يطيق البحيري صبرا على هذه الحال التي وصلت اليها الأمة العربية . وما دام احتلال فلسطين ،والأراضي العربية وحريق المسجد الاقصى ،وتدنيس المقدسات من قبل العصابات الصهيونية ، غير كاف لتحريك الأمة العربية ،فأي ذل أفظع من هذا الذل ؟ !. وهو يندد بهذا الموقف المتخاذل قائلا :

اخفضي الهامة اذ لالا وهونا   وامرغي من حمأ الوحل جبينا
يابقايا أمة بائدة   ضيعت جوهرها دنيا ودينا
أيكون المسجد الاقصى حمى   مستباحا للغزاة الغاصبينا
وتنامين على عارك يا   أمة هان عليها أن تهونا "2"

ويعز على البحيري أن تتقدم الأمم شرقا وغربا ، وأمتنا في ظل سلطان الخلافات العربية يعم شعوبها الفقر والتخلف والمرض على الرغم من أمواج المال العربي التي غمرت الدول

1- افلسطين أغني ص 45 .
2- مقطوعة مخطوطة .

الغربيـة . وها هو الشرق العربي يتحدث عن معاناته وفقره وجهاه :

مناجمي وكنوزي تكاد تكفي البريـة

والبؤس مع ذاك يبدو ويلي على ساكنيـه

خيري لبعض قطينـي وثروتي فرديـة

والداء يفري جنـواه حشاشة الأكثريـة

والفقر والجهل غاما واحر قلبي عليـه

ما أينعت في غصوني ثمار روضي الجنيـه

الا اجتنتها أكف غريبـة غربيـة "1"

ان البحيري فيما سبق من أبيات يترجم أحاسيس الانسان العربي المغلوب على أمره ، وقد عاش البحيري في أوساط الجماهير يتحسس ما يختلج في صدورها من مشاعر . وأمام هذا الواقع الذي تعاني منه الأمة العربية ،يحث البحيري جماهير الأمة على الثورة ضد من كبلوها ،وتسببوا في تأخرها . يقول :

فيا أمة كم أهاب الرشاد بها السداد فلم تزدجر

الام التلهي بهين الأمور عن الجد بين الرزايا الكبر؟

لقد بلغ السيل هام الزبى ولم يبق في العيش من مصطبر"2"

ومما يلاحظ أن البحيري يقسو في توجيه كلامه للأمة العربية ، ومع أنه يرمي من وراء ذلك الى استثارة الهمم ،فانني أرى أن

1- الانهر الظامئة ص 134 -135 .

2- حيفا في سواد العيون ص 96 .

هذا الاسلوب في مخاطبة الأمة غير مناسب لأن الكلمات الجارحة التي يوجهها الشاعر لن تكون قادرة على بعث الأمة من جديد ، فنهضة الأمم تقوم على عوامل موضوعية اذا توفرت بنسبة ما فانها تنهض وتتقدم .

وما أشبه شاعرنا وهو يخاطب الأمة العربية ، بالمصلح المعروف عبد الرحمن الكواكبي الذي يحفز قومه العرب الثورة على الأتراك حيث يقول :" أجدادكم ينامون الآن في قبورهم مستويين أعزاء ، وأنتم أحياء معوجة رقابكم اذلاء . البهائم تود لوتنتصب قاماتها ، وأنتم من كثرة الخضوع كادت تصير أيديكم قوائم" "1"

ولكن الذي يغفر للبحيري والكواكبي أنهما ينطلقان من حرص على الأمة لا حدود له . فالبحيري شاعر مقاتل عرض نفسه للمهالك والأهوال فدى لوطنه وأمته ، والكواكبي هجر الدنيا ومتاعها وضحى بكل نفيس وغال من أجل خدمة أهداف أمته .

وشاعرنا مدرك تمام الادراك أن هناك عوامل متعددة أدت الى تأخر الأمة العربية عن ركب النهوض . ومن هذه العوامل الحكام الرجعيون الذين ابتليت بهم الأمة ، فنابوا مناب المستعمرين في ارهاق الشعب وتجهيله وابعاده عن قضاياه المصيرية . وما زال هؤلاء الحكام حريصين على فرقة الأمة العربية خدمة لمصالحهم

1- طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد - عبد الرحمن الكواكبي - المطبعة العصرية - حلب - سنة 1957م ص 144 .

الاقليمية الضيقة . ومن أجل هذا تآمروا على الأمة وتحالفوا مع المستعمرين ، اقمع كل بوادر الخير والاصلاح عند الشعب . ويثور البحيري على هؤلاء الحكام فيقول :

وقل لعبيد أعراش ... بساعد غاصب تسند
فليس بهم سوى الأعمى ... وليس بهم سوى المقعد
أما فيكم ملوك العرب ... ذو هدي ولا مرشد
يخف لنصرة الاسلام ... لما صاح واستنجد
ودوّى غوثه الملهوف ... يحمله الصدى الاسود
وأنتم في ظلال اليمن غصن مناكم مورّد
تعزون الاسى بالقول لا أجدى ولا أنجد "1"

ثم يتحدث عن الجرائم الصهيونية في فلسطين ، هذه الجرائم التي لم يتحرك لها حكام العرب فقد ناموا ونامت معهم جيوشهم .

فلو أبصرتمو "صهيون" لما هب واستأسد
وصال على كريم العرض صولة غاشم أنكد
فخلّى "الرملة"البيضاء بحرا من دم أزبد
وخلّى من مغاني" اللد" قيعة سبسب فدفد
وخلف فيهما هولا يذيب حشاشة الجلمد

1- حيفا في سواد العيون ص 76 . اللد والرملة ، مدينتان فلسطينيتان

وجندكم و نيام في — فراش تقاعس هجد
يسائلهم ونى الأموات — أنتم أما أنا أجمد ؟ ! "1"

ويقارن البحيري بين جد الزعماء الصهاينة في باطلهم ، وتهاون الحكام العرب عن حقهم هؤلاء الحكام الذين زادوا ضعفهم ضعفا بخلافهم وتنابذهم وبعدهم عما يخدم الأمة .

تقولون اليهود قبيل سوء — صدقتم إنهم خلقوا ذئابا
ولكني أراهم قد أقاموا — جلائل نتمو عنها طلابا
وساروا مصعدين علا وأنتم — تناحرتم بموطنكم سبابا "2"

ويحاول الشاعر أن يستثير همم الحكام العرب عندما يصور لنا أن المسجد الأقصى يخاطب ملوك العرب ويوبخهم على تقصيرهم ، وكان ذلك عام 1948م . يقول :

أعندكم أنني في ليل غاشية — ريح القضاء لها واستشعر القدر
وأن قدسي ومعراجي وأرضهما — باتت بدهم الرزايا السود تأتزر
فكادت القبلة الاولى وصخرتها — عن الحطيم وركن البيت تنبتر
وزلزلت أسس الاسلام نائبة — بكت لها في طروس المصحف الصور
وأنتم من ونا ء لا أبالكم — تخزى بكم في مقاصير الضنى السرر
ما بالكم يا ملوك العرب في دعة — وأمة العرب واحزناه تحتضر
كأنكم من جمود في الورى صور — على أرائكها من حولها صور "3"

1- حيفا في سواد العيون ص 76-77 . 2- الانهر الظمأى ص 84 .
3- افلسطين أغني ص 86-88 .

واذا كان هذا رأي البحيري في الحكام العرب عام النكبة الفلسطينية سنة 1948م فان هذا الرأي لم يتغير بعد النكبة لأن معظم الحكام العرب لا يبذلون جهودهم من أجل محاربة الصهاينة وأسيادهم المستعمرين كما لا ينهضون بشعوبهم التي تعاني من التعسف والفقر والتخلف، بينما يمتلك هؤلاء الحكام ثروات طائلة . وفي هذا يقول :

وثراء كأنه ارث قارون | قناطيره النضار المكدس
وقصور تفوق وهم الأماني | أين منها كسرى وأين المقوقس
ماتعات النعيم والشعب ضاو | خبزه في الدماء والدمع يغمس "1"

ومن الامور التي تهز البحيري أن يتولى أمر هذه الأمة حكام باعوا أنفسهم للاستعمار ورفعوا شعارات الوطنية وهم يعرفون أنهم كاذبون . وكم عانى الوطن العربي ومازال يعاني من أمثال هؤلاء الحكام الذين يأمرهم المستعمر فيطيعون ، ويستغيث بهم الوطن فلا يابهون نداءه . وعن هؤلاء الحكام يقول :

مشاوهما على الشعوب روايات | توالت فصولها بالمجازر
فعلى مسرح الدماء وفي سود الزوايا ومن وراء الستائر
حرك الاجنبي منهم دمى شد عليها عنان ناه وآمر "2"

والبحيري يهدد حكام العرب بغضبة الشعب التي ستطيح بهم وتجتاحهم ان لم يعملوا لدفع النوائب عن الأمة . يقول :

1- قصيدة تل الزعتر مخطوطة   2- قصيدة ريحانة العاصي ، مخطوطة .

قوموا ادفعوا عن حماكم ما ألم به ... من نائبات بدجن الهول تعتكر
فامتعلي مابين الآفاق فاختلطت ... سود الدياجي فلا نجم ولا سحر
أو ارقبوا من رياح الشعب عاصفة ... تجتاح من صغروا منكم ومن كبروا
تمضي بكم في متيهات الفناء فلا ... يبقى على وجهها من ريحكم اثر"1"

وهكذا فان البحيري على الرغم من مهاجمته لجماهير الأمة العربية متهما إياها بالتقاعس عن واجبها - وهذه مهاجمة الوطني الحريص - فانه مدرك تمام الادراك أن ثورة الشعب العربي آتية لا ريب فيها، وستعصف بكل الظلم والظالمين .

1- لفلسطين أغني ص 94 .

شحذ العزائم والتحريض على القتال :

لا يطيق البحيري صبرا على

وضع الأمة العربية التي عانت من ظلام الجهل ابان الحكم التركي ، ثم ابتليت بالاستعمار الأوروبي الذي قسمها وهدمها هداه وطمعت الصهيونية في الأرض العربية ، فاغتصبت فلسطين مدعية أن لها فيها حقا منذ القديم ، ثم عم هذا الاغتصاب ليشمل الأراضي العربية المجاورة لفلسطين . حدث هذا كله والجماهير العربية ممنوعة من القيام بدورها في حماية الوطن . وها هو ذا البحيري يدعو المخلصين الى ايقاظ الأمة العربية من غفوتها ، لتمارس دورها بين أمم الأرض . يقول :

قم بنا ننفخ نفير البعث فالشرق قبور
دفنت أنصاف أحياء وقد آن النشور
لا تقل دربي الى البعث طويل وعسير
نحن نذر بعده البعث لو تدري نذور
+ + +
أيها النائم قم وانفض كرى الأجفان نفضا
لترى النور سماء يغمر الشرق وأرضا
والشذا الفواح في أرجائه طولا وعرضا
يبعث الحب وجيبا نابضا في القلب نبضا "1"

1- الأنهر الظمأى ص 48- 49 .

ومن الملاحظ أن الشاعر يسعى لإيقاظ أمم الشرق جميعا ، والأمة العربية واحدة منها ، وهو يحذرها من مغبة الاستمرار في اللامبالاة في الوقت الذي تصطرع فيه الأحداث منذرة بشر مستطير . وهو يدعوها اليقظة قائلا :

أمم الشرق فوق كل صعيد في المكان القريب أو في البعيد
طفح الكيل فالتبصر كفر وطمى السيل فوق هام النجود
فانفضي كلنة النيام وهبي من سبات الكرى وليل الهجود "1"

وقد سمع الشاعر مثبطي العزائم يدعون الناس للتريث والقبول بالأمر الواقع ، فاذا به يثور على هذه الدعوات المشبوهة التي تتخذ من التعقل ستارا لاخفاء الضعف والعجز .

امض ياشرق المجنون وحيا ما أرى اليوم ذا الحجا بالرشيد
إن يك الحلم بالإباء حميدا فهو عند الهوان غير حميد
أنت في حاجة الى كل مس يقدح الزند في صفا الجلمود
فادّرعها قوى تدك الرواسي لا تخف صولة الزمان العتيد "2"

بعد هذه الدعوة العامة لأمم الشرق ، يوجه كلامه الى الأمة العربية يشحذ همم أبنائها ، ويحرضها على القتال ضد المستعمرين الغاصبين .

الوحى للوغى أيا دول العرب جنودا تنساب إثر جنود

1- حيفا في سواد العيون ص 80 .
2- حيفا في سواد العيون ص 85 .

لا الدموع الغزار في النحب تمضي بعدوّ ولا التأوه يـــودي

لا ولا تدرك المنى بضعيـــــف أعزل الكف ذي وناء قعيد

فالبسي النضال بأس الليالـــي وثبي للقتال وثب الفهود "1"

ويدرك الشاعر أن نهضة الشعوب لا تتم برفع الشعارات ، إنما تتم بالمعاناة والعمل . ولا ينهض الشعب الا اذا توحدت طاقاته وقضى على الجهل والتخلف،واتخذ من العلم أساسا للنهضة الشاملة ، وهذا ما عناه البحيري في قوله :

نصحت لكم دعوا الأقوال وامضوا الى الأعمال أجلادا صلابـــا

وشيدوا الملك فوق أساس علـم ينوّأكم يد الحق اغتصابــــا (2)

كما يحض على الجد وترك الهزل ، ويدعو الى التمسك بالاخلاق الكريمة ، لأنها الدرع الذي يحمي الأمة من الانهيار .

فهبوا الى جد الأمور بهمة لها في طمات الخطوب عناد

وشيدوا بعزم كالزمان مضاؤه صروحا بأفناء الخلود تشاد

وربوا على الأخلاق شعبا موحدا تكن خير درع ان يلم فساد "3"

ان كيان الأمة العربية مهدد من قبل الصهيونية والامبريالية ، وما الكيان الاسرائيلي الا قوة عسكرية تعمل على اذلال الأمة العربية وطمس حضارتها وانهاء وجودها . ولذا فانه من المستحيل على الأمة العربية أن تتقدم وأن تتحد مادام هذا الكيان موجودا ،

1- حيفا في سواد العيون ص 82 .

2- الانهر الظمأى ص 91 .

3- قصيدة " أي شعب هذا " - مخطوطة .

بل انه من المستحيل عليها أن تأمن على نفسها . وادراكا من البحيري لهذا كله فانه ينادي الأمة العربية ، ويحرضها على القتال من أجل القضاء على هذا الكيان المصطنع في قلب الوطن العربي.يقول :

يا ديار الاسلام يامشرق النور ومهد الهدى وغاب الاسود
حلم "صهيون" أن تكوني رحابا مفسحات لملكه المفقود
فاعطيها معاولا ذات عزم قد من طفرة القضاء العنيد
واحفريها مهاويا مظلمات ماالداجي أغوارها من حدود
وادفني الحلم والذي حلم الحلم وراء الرجام تحت اللحود "1"

ويحذر البحيري من عواقب التقاعس في محاربة الصهيونية المصممة على ضرب الأمة العربية والسيطرة عليها .

وان لم تثوروا جحفلا بعد جحفل عساكره في الداجيات سواد
تولى "بنو اسرائيل" "بدا" بريحكم فقد أجمعوا في أرضكم وتنادوا "2"

ويمضي الشاعر في تحريضه على القتال ، مصوراً الهجوم العربي الذي يخيل اليه أنه سيحرر فلسطين .

أخي قم بنا مثل حد الحسام اذا هو من غمده جرد ا
" فتل أبيب" لنا موعد وان نرتضي غيرها موعدا
أتبقى يهود بأفيائها تغازل حاما لها أسودا
تريد به محونا من ديار وطدنا بها ملكنا الأمجدا
فهب كليث الشرى واثبا فلم يبق فينا اصبر شدا

1- صيفا في سواد العيون ص85-87 .
2- قصيدة أي شعب هذا - مخطوطة .

وهيّا بمنجل كف الفنـــاء | فاني أرى زرعها أحصدا
ألا مضربنا مثل نسر السحاب | وحوت العباب وريح الودى
على طائرات تروع النجـوم | وفي دارعات تخيف الردى
انهد مهما حجرة حجـرة | ونتركها صفصفا فدفدا "1"

وعلى الرغم من النكسات التي تعرضت لها الأمة العربية فان البحيري لا يكف عن التحريض على القتال ، ولذا فانه يرفض منطق الاستسلام لهزيمة جوان (حزيران) عام 1967م، ويدعو العرب الى الثبات في وجه الهجوم الصهيوني الامبريالي ، وعدم التسليم بالهزيمة .يقول :

اغضب وفجر في حنايا الصدر بركان الغضب
اغضب وخض ساح القتال وأنت أمضى من لهب
اغضب وقل قدري على صفحات أيامي كتب
حقي وأفراح الحياة وكل أمجاد الحقب
في القدس في أرضي الحبيبة في فلسطين العرب
+ + +
أنا لي جذور من صخور في ترابي الأطهر
وذرى من الزيتون لامسها جبين المشتري
ولي النشيد الهادر الدفاق عبر الأعصر
في موكب للنصر مثل حشوده لم يحشر
وبعيد رجع هتافه .. ياأمتي لن تقهري "2"

1- حيفا في سواد العيون ص 72-74 .
2- الانهر الظماى ص 143-144 .

من هذا كله نلاحظ أن البحيري شاعر يحرض الأمة العربية على قتال الغاصبين ، وهذا دليل على مدى التفاعل بينه وبين قضايا الأمة . وفلسطين بالنسبة للشاعر قضية العرب الأولى ، فهزيمة الأمة العربية وانتصارها يتم في فلسطين ، والكيان الصهيوني جسر تعبر عليه الامبريالية لتفتك بالأمة العربية التي يجب عليها أن تجمع صفوفها وتداوي جراحها حتى تقوى على رد المعتدين .

والبحيري - من خلال نظرته الشاملة - يرى بعين اليقين أن النصر حليف الأمة العربية على المدى الطويل ، وأن خسارة معركة لا تعني خسارة الحرب ، فالأمة العربية أعظم من أن تسلم بالهزيمة . وثقة الشاعر المطلقة بالنصر راجعة ايضا الى التكوين النفسي الشاعر ، فقد تغلب على كل انواع القهر التي تعرض لها ، واعتمد على ذاته حتى استوى بجدارة بين شعراء الأمة وأدبائها ، ومن خلال شخصيته القوية المصممة على تخطي الصعاب يرى حتمية النصر طال الزمن أو قصر .

الوحدة العربية :

إيمان البحيري بالوحدة العربية

إيمان عظيم ، فهو لا يؤمن بالحدود المصطنعة بين أقطار الوطن العربي الواحد،انطلاقا من الماضي المجيد للأمة العربية أيام أن كان لها دولة واحدة . وايمان البحيري بالوحدة نابع من ايمانه بأنه لا قوة للأمة العربية الا بوحدتها ، وما دام الشاعر حريصا على قوة العرب ووقوفهم ضد المخططات الصهيونية والامبريالية ، فانه لا سبيل إلى ذلك الا بالوحدة العربية الشاملة .

ومن خلال دراستي،لاحظت أن الشاعر يشيد بسوريا الكبرى وبوحدتها ، فهو لا يؤمن الا بوحدة بلاد الشام التي قسمها المستعمرون الى أربعة أقطار هي : فلسطين والاردن ولبنان وسوريا . وليس البحيري في هذا ممن يؤمنون بوحدة التكتلات الجغرافية ، ولكنه مؤمن بأن سوريا الكبرى بيت واحد وضع المستعمرون قواطع بين غرفه ليحولوا دون لقاء الاخوة . وما إشادته بسوريا الكبرى الا اشادة بالوحدة العربية ، لكن تركيزه على سوريا الكبرى هو تركيز على كيان لم يعرف التقسيم ، الا بعد أن ابتلي بالاستعمار الحديث . وعن المعاناة الناتجة عن هذا التقسيم يقول :

لئن قسموا الدار التي نحن أهلها ... بما حفلت من وذية و مناقب

فما قسموا ما في الجوانح من هوى ... مكامنه بين الحشا والترائب

وكيف تقر "القدس" في حضن هجعة ... و"بيروت" ترميها سهام المصائب

وهل تستقر النار في قلب "جلق" ... و"عمّان" عنها في بروج السحائب

ستبقى ربوع الشام تمطر بالدما ... الى يوم نعليها متون الكواكب"1"

وفي مقدمة قصيدته "سوريا الكبرى" يقول مخاطبا سوريا :

(انني أقذف بهذه الحمم من قلب يتفجر، و روح يتسعر، و نفس تذوب، لترى عيون الملاء أنك العرب وحدهم، وليعرف كل طامع بك اننا لن نتخلى عنك وفينا نفس يتردد وشمم يتمرد وآباء يثور، فإما أن تظلنا سماؤك أحرارا بيدهم زمام أمرهم .. وإما أن يحتوينا ثرى شراك المقدس شهداء أرخصوا في سبيلك الأرواح). "2" وجاء في هذه القصيدة :

رباك سوريا الحبيبة درّة ... بتاج المعالي عزّت على كل ثاقب

فانت انا من شامخ شارف السها ... إلى صاخب من تحته مور صاخب

إلى سارب نفس المعالي نميره ... يخط بسفر الخلد آيّ العجائب

أدلّة مجد تنبىء الدهر أننا ... لسورية الكبرى دروع النوائب"3"

ولا يفوت البحيري أن يظهر تعلقه بالوحدة العربية الشاملة،

1- ابتسام الضحى ص 66 .

2- ابتسام الضحى ص 64 .

3- ابتسام الضحى ص 64-65 .

فعندما يتحدث عن قطر عربي فهذا القطر جزء من كل كبير هو الوطن العربي . ونلاحظ هذا بوضوح في اهدائه ديوانه "حيفا في سواد العيون" حيث يقول :

(الى سورية المجيدة ترابا زكيّا طهورا وشعبا عربيا أصيلا . الى فلسطين المقيمة في طوايا الحنايا جرحا واريا داميا نازفا عميق الغور . الى وطنيّ الاكرمين حبتي عيني : سورية وفلسطين . . وهما جزء يسير من كل كبير من وطني العربي العظيم ، أرفع هذا الديوان) "1"

وفي اهدائه ديوان "لفلسطين أغني" يقول : (ياحبيبتي فلسطين ،ياقبلة الهدى وكعبة النور في وطني العربي الكبير أقدس وطن في رحاب هذا الكون)."2"

وهو المناضل الحريص كل الحرص على عودة فلسطين "(الى رحاب الوطن الكبير جزءا لا يتجزأ من وحدته الشاملة الكاملة) "3"

وعلى الرغم من تمزيق الوطن العربي الى دول عربية متعددة ، فان البجيرمي مؤمن بأن هذا التقسيم مؤامرة ستنتهي ، لأن المشاعر التي تربط الاخوة في كل أقطار الوطن العربي ستجرف كل مظاهر التقسيم . انها أخوّة الدم ، أخوّة الالام والامال والمصير المشترك . يقول :

1- حيفا في سواد العيون ص 10 .
2- لفلسطين أغني ص 11 .
3- لفلسطين أغني ص 14 .

و نحن على الزمان بنوارُ وم — وان فصلت مثانٍ عن مغان

يوءلفنا من الالام د مع — تذوب به المحاجر والمحاني

اذا ابكى فؤاد النيل شجو — اقاني له الدموع الرافدا ن

ويجمعنا من الآمال د وح — يظللنا باغصان الــدا ن

اذا غنى به الأردن شدوا — تبسمت الأماني في "عُمان" "1"

والوحدة العربية مطلب جماهيري متأصل في القلوب على الرغم من الفرقة المصطنعة . يقول :

لئن فرقتنا أكفّ الخطوب — ديارا تقاسمها المقتسم

فان لنا في طوايا القلوب — اشملا تأصّل فيكل دم "2"

وتظهر هذه الوحدة جلية واضحة في الأحداث التي تعصف بالوطن العربية ، حيث تشترك المشاعر فيكون الجميع على الرغم من الحدود الاقليمية الفاصلة أمة تعيش الأحداث بقلب واحد .

انا على كرّ الليالي أمة — وقفت أمام الدهر كالبنيان

لا يُعرف العربي في الأحداث بالمصري والسوري واللبناني

فالشرق تجمعه العروبة عروة — أدنت أقاصي مصر من بغدان "3"

ان الشاعر يتألم لكل مصيبة تحل بأي قطر عربي انطلاقا من مشاعره الوحدوية . ها هو يقف على أطلال مدينة القنيطرة بمرتفعات الجولان السورية التي هجّر أهلها منها نتيجة

1- ابتسام الضحى ص24 .
2- ابتسام الضحى ص62 .
3- ابتسام الضحى ص99 .

العدوان الصهيوني ، فيخاطبها باحساس العربي الذي آلمته الفجيعة .

قنيطرتي ما الذي قد دهاك   فسل ديارك دبّارها
قنيطرتي وصروف الليالي   تشير بساحاتك إعصارها
أزلزلت الأرض زلزالها   ولاقت من الغيب أقدارها
وأخرجت الأرض أثقالها   وراحت تحدث أخبارها "1"

إن مخاطبة الشاعر للمدينة ، طافحة بالعواطف التي تترجم عمق الألم الذي يشعر به فهو يعتبر مدينة القنيطرة قطعة من وطنه ومناداته لها بقوله : " قنيطرتي " يترجم هذه المشاعر الفيّاضة . وفي قصيدته " ريحانة العاصي" تفيض مشاعره وهو يتحدث عن أرضه السليبة في سيناء والجولان وفلسطين ، فأرض العرب أينما كانت هي أرضه ، وأهلها هم أهله وقومه . يقول :

إخوة الجرح في القنيطرة الواهي وجولانها الصبور المصابر
ورفاق الدموع في قلب سيناء وخلجانها الثكالى المعابر
أرضكم أرضنا ستبقى فداء   وإباء وعزة في الضمائر
وفلسطين كلها ملكنا الحق   على رغم أنف كل مكابر "2"

واذا كان الاستعمار قد قسم الوطن العربي وحال دون وحدته ، فان الشعب هو الشعب ، والوطن هو الوطن . وهذا ما عبر عنه الشاعر بقوله :

1- قصيدة " القنيطرة المدمرة" - مخطوطة .
2- قصيدة " ريحانة العاصي " - مخطوطة .

نحن شعب واحد في موطن   مزقت وحدته أطماع جاني "1"

والبحيري يدعو الى الوحدة العربية بعيدا عن التعصب الديني انطلاقا من أن الوطن للجميع يدافع عنه الشعب الذي تجمعه أهداف واحدة دون تمييز بين طوائفه . يقول :

وإذا تنادينا لدفع كريهة   من مهبط الانجيل والفرقان

سرنا لها وهلالنا وصليبنا   في سيد الأعلام يعتنقان

سرنا لها المصري والسوري واليمني والنجدي والشهلاني

مابيننا عند التنادي مسلم   كلا ولا في جمعنا نصراني

فالشرق موطننا ونحن حماته   بنفوسنا والدين للديان "2"

وقد تنبه الاستاذ عمر الدقاق الى ذلك عندما أشار الى أن حسن البحيري قد بشر بوحدة طوائف الأمة ، ونادى بانصهار معتنقيها من المذهبين في بوتقة القومية "3" .

والبحيري في دعوته الى التسامح الديني والالتفاف حول هدف الشعب في التحرر والتقدم ، انما ينطق بلسان الشعب العربي الذي عمل المستعمرون على اذكاء الروح الطائفية بين صفوفه ، وذلك من أجل تدمير آماله في الاستقلال . فقد لعبوا على حبال التفرقة بين المسلمين والمسيحيين ، كما فجروا الخلافات بين صفوف المسلمين أنفسهم ، وفجروا التناقضات بين صفوف

1- لفلسطين أغني ص 69 .
2- ابتسام الضحى ص 100-101 .
3- الاتجاه القومي في الشعر العربي الحديث - عمر الدقاق - ص 380 .

ذلك
المسيحيين أيضا ، كل/من أجل تحطيم كل أمل للوحدة عند الشعب العربي . ولم يكف البحيري - انطلاقا من وعيه القومي وحرصه على الوحدة - عن دعوة الزعماء العرب الى تناسي الخلافات ،وبذل الجهود ، وحشد كل الطاقات دفاعا عن حمى الأمة وشرفها . ها هو يستثير همة الرئيس السوري" شكري القوتلي" الذي استحق عن جدارة لقب " المواطن العربي الأول" اثنازاله عن رئاسة الجمهورية العربية السورية ، اثر اعلان الوحدة بين سوريا ومصر . يقول :

فقم فديت أباحسّان مبتدرا   بالجيش يحفزه عزم وايمان

فليس كالجيش يوم الروع من أمل   ولا كأركانه الحق أركان "1"

وكان اعلان الوحدة بين مصر وسوريا ،وقيام الجمهورية العربية المتحدة عام 1958م، تحقيقا لأمل راود البحيري سنين وسنين . وكان من الطبيعي أن تحظى هذه الوحدة باهتمام الشعراء المخلصين ، وفي طليعتهم شاعرنا لأنها التجربة الأولى التي كتب لها النجاح ، وخرجت الى حيز الوجود ، وعلق العرب عليها آمالا عريضة ، واعتبروها بداية الوحدة الشاملة التي ستعتز بها الأمة العربية وتقضي على أعدائها .

وعن هذه الوحدة التي جاءت تلبية لمطامح الشعب العربي يقول البحيري :

وطن حرّرونا أرضه   بدم يقطر من كل جنان

نحن فيه أمة واحدة   لم تفرق بفؤاد أو لسان

1- الانهر الظمأى ص 105 .

وحدة الشعب التي أضحى بها في شعوب الأرض مرموق المكان
وحدة ثابتة أركانها "بردى"و "النيل" فيها توأمان "1"

ويصور الشاعر مدى فرحة الجماهير العربية في شتى اقطار الوطن العربي بهذه الوحدة .

رقص الأردن في أفراحها وتناغت بهواها الضفتان
وارتدى "لبنان" أبهى حلة وهو يصبو لأمانيها الحسان
وانتشت بغداد من أكوسها وانبرى يحدو لواها الرافدان
ومشت "صنعاء" في موكبها وهي تنضو شفرة العضب اليماني
ودعت "مكة" رب البيت أن ينشر الأمن عليها والأماني "2"

ولشدة فرح البحيري بالوحدة فانه يسبغ الفرحة على الطبيعة التي يرى أنها شاركت الشعب العربي نشوته ، وما هذا الا دليل على أن الفرحة قد تملكت الشاعر وسيطرت عليه الى الحد الذي أصبح يرى فيه كل شيء في الوجود فرحا طروبا . يقول :

لهفة الاشواق في يوم التداني رددت أحلى أغاريد التهاني
فاهتف يازهر شفورا فتحت عن رفيف النور أكمام الجمان
وتأود في ظلال مدها مائس الريحان في نضر الجنان
واله يانهر باعطاف السنى راعش اللجة نشوان المحاني
واجر أمواج عطور قبلت من خدود الورد جرح الأرجوان
واشد ياطير بأفراح العلا ساحر الألحان فتان المعاني

1- لفلسطين أغني ص 71-72 .
2- لفلسطين أغني ص 72 .

وارقصي بشرا وغني طربا   واستعيدي واعيدي يا اماني
انها افراح شعب ظافر   زف فيها المجد افراح الزمان"1"

وانطلاقا من هذه الفرحة الغامرة فان الشاعر يشيد بالرئيس جمال عبد الناصر رئيس الجمهورية العربية المتحدة باعتباره الزعيم الذي التفت حوله قلوب الملايين من أبناء الشعب العربي ورأت فيه القائد الذي يسير بها نحو العلا والمجد .

ياجمال النصر يا فرحته   يامنارا لاح في شط الأمان
بك جددنا علا أمجادنا   فسرت فيها دماء العنفوان
نابض في كل فؤاد مهجة   وهي حب ووفاء وتفاني
وعلى كل فم أنشودة   ما تغنت بهواها شفتان "2"

وهكذا فان الوحدة العربية حلم طالما تمناه البحيري ، وغنى من أجله . فهو يدرك بكل وعي أن تحقيق آمال العرب يكمن في قوتهم ، ولا قوة للأمة العرب الا في الوحدة . واذا كان هذا الادراك قاسماً مشتركا عند كل الشعراء المخلصين ، فان لهذا الادراك بعداً آخر عند شاعر فلسطيني مثل حسن البحيري ، هذا البعد هو بعد المعاناة المرّة التي تجعل من الوحدة العربية قارب النجاة للشعب الفلسطيني الذي تتلقفه الأمواج العاتية في منافي الاغتراب . وهذا ما جعل شاعرنا لا يرى فرحة تعادل فرحة تحرر الوطن

1- افلسطين أغني ص 67- 68 .
2- افلسطين أغني ص 73- 74 .

العربي من المستعمرين ولا عيد العرب الا عيد استقلالهم ، يوم ترتفع رايات الأمة العربية عزيزة مهابة .

عيد العروبة يوم تستقل به   من نير مستعمر أو غل منتدب

ويوم تخفق في أجواء عزتها   على أعالي الأعالي راية العرب "1"

1- ابتسام الضحى ص 116 .

الفصل الخامس

الشعر الديني

لا نجد في حياة البحيري من وجّهه وجهة دينية ، فهو لم يعش في أسرة لها تقاليد معين ،أو نظام حياة ، بل انه لم يعش حياة الأسرة مطلقا . وقد عانى في طفولته وصباه معاناة شديدة قبل أن عانى منها أحد من الادباء .

وفي تقديري أن رجولته المبكرة كانت من أهم العوامل في تدينه ، اذ تحمل المسؤولية وهو في الثانية عشرة ،فأصبح رجل البيت المسؤول عن اعالة أمه . وكان حريصا كل الحرص أن يبدو في عينها رجلا . وليس معنى ذلك انه لم يتحمل الاعباء قبل هذه السن ، فقد اعتنى بخيل زوج أمه يطعمها وينظفها ،كما عمل صبيا أجيرا في أكثر من مكان . لقد ركبته مشاق الحياة دون أن يعد نفسه لها ،واختصرت صباه ، فاذا هو الصبيّ الرجل في تصرفاته وأفعاله . لقد ساقته الحياة لمثل هذا فوطّد نفسه على أن يكون رجلا قبل الأوان ، والزم نفسه بالبعد عن الدنايا وسفاسف الأمور ، ومن كان هذا طريقه فانه يكون الى مرضاة الله أقرب .

كان حريصا على العودة مباشرة الى بيته بعد الانتهاء من عمله ، ليعايش الطبيعة الخلابة في جبل الكرمل . وتمضي السنين والبحيري لا يجد عنده وقتا أجمل من الوقت الذي يقضيه بين أحضان الطبيعة . ولم يوفق شاعرنا في حبه ،كما لم يوفق في صداقته ، ولذا لم يكن هناك مايشغله عن الطبيعة والاستمتاع بها ، والذوبان فيها ،فوقف عليها وقفة المتأمل ، ونفذ من خلال تأمله الى أعماقها ، وخرج من ذلك بعظات وعبر .

لقد قاده هذا التأمل الى التفكير في مبدع الكائنات : جبالا وسهولا أشجارا وأزهارا وثمارا ، تأمل السماء بشمسها وقمرها ونجومها ، وتأمل البحر في ثورته وهدوئه ، تأمل الكثير من المخلوقات فرأى فيها أدلة على قدرة الله بديع السموات والأرض . وقد أثر هذا بشكل واضح على الكثير من قصائده الدينية التي جاءت حافلة بآيات الله وقدرته .

وبجانب هذا التأمل في خلق الله ، وماله من أثر ، فان المناسبات الدينية التي كانت الجماهير الفلسطينية تحييها بين الحين والآخر ، قد أثرت فيه تأثيرا عظيما . فهو يرى ابناء شعبه يحيون هذه المناسبات ، ويلقون فيها الكلمات والقصائد تمجيدا وتخليدا ، فاذا بهذه المناسبات تتحول الى محطات روحية ،يتزود منها الشعب بأنوار الحقيقة ، فتهتز المشاعر وتهتاج العواطف ،

وتحن نفوس الناس الى أيام المجد التي عاشتها الأمة الاسلامية .
ويشارك شاعرنا في هذه المناسبات مستمعا حينا ، ومشاركا بقصائده حينا آخر فيستشرف ماضي الأمة الوضاء عساه أن يضيء حاضرها المظلم .

" والمناسبة الدينية غالبا ما تكون فرصة للالتفات الى الماضي واستحضار مواقفه المجيدة ومقارنتها في هلع وتفجع بالحالة الراهنة التعيسة ،اذ تكون في صورة استصراخ لأبطال التاريخ العربي الاسلامي واستنجاد بأيامهم المشهودة في وجه الظلم والطغيان . . . والشاعر الذي تفجعه حالة شعبه وهو يحتفل بالمولد احتفالا رتيبا صوريا وتمزقه المسافة المريعة التي تفصل بين المولد في حقيقة منطلقه مواقف وبطولات ، وسوء منحدره اذكارا وشطحات ،بين المولد وثبة تاريخية في وجه الضلالة ، وبينه ذكرى مخنوقة لا يطاوعها النفس المطمئن . الشاعر الذي يرتاع لكل هذه الفروق ، لا يعدم مبعثا للأمل حتى في مجرد احياء الذكرى ، بل لا يجد في هذه الذكريات وتعاقبها الا مظهرا لتجديد العهد وتأكيد البيعة وتوثيق الصلة بالماضي " "1"

ويقول الدكتور عبد الرحمن ياغي : " ان من ثمرات الغزو الصهيوني ،ووقوف الاستعمار بجانبه أن تحولت الموالد النبوية الى مهرجانات قومية . . وكان يحضر الحفلة جميع الرؤساء

1- الشعر الجزائري - د . صالح خرفي- مطابع الشروق - بيروت ص 52 .

الروحيين وأعيان النصارى ولم يكن يدعى اليها اليهودي قط
وهكذا أصبحت الموالد .. مولد النبي محمد ومولد السيد المسيح
أعيادا شعبية تقام بمظهر قومي في مدن فلسطين وتسير فيها
المواكب عربية صرفة . وقد كان الشعر سجلا لذلك كله والكبريات
الحوادث ولأهم التطورات الفكرية في فلسطين . "1"

ولما كان شاعرنا لسان شعبه فقد عاش المناسبات الدينية وتأثر بها وعبر عنها بلسان المؤمن الغيور . وعزز البحيري ميله الديني بقراءته الدائمة للقرآن الكريم واطلاعه على كتب الحديث والسيرة النبوية . وقد أثر ذلك في تدعيم عقيدته الدينية وشحذ ملكته البيانية .

ويمكن للدارس أن يصنف شعر البحيري الديني الى صنفين :
الاول : شعر المناسبات الدينية ، والثاني : شعر التأمل في خلق الله .

شعر المناسبات الدينية :

يجد البحيري في المناسبات الدينية مجالا للتعبير عما يجول بخاطره . فعندما تحين ذكرى المولد النبوي نراه يتخذ من هذه الذكرى عظة وعبرة ، ينبه الأمة من خلالها الى ما هي فيه من ضعف وخذلان ، وأن الطريق الى القوة هو الطريق

1- حياة الادب الفلسطيني الحديث ص 179 .

الذي ساكته الأمة الاسلامية ، عندما تمسكت بدين الله وحشدت طاقاتها للجهاد في سبيله ، فعزّ جانبها ورفرفت أعلامها شرقا وغربا . ولذا فان البحيري يطالب الأمة أن تعمل على نبذ الخلافات ، وأن تجند طاقاتها من أجل خدمة الهدف الأسمى المتمثل في حريتها ، وأن تكون عزيزة الجانب مهابة . وها هو البحيري يستقبل المولد النبوي بقصيدة يقول في مقدمتها : " في بواكير الربيع لسنة 1363 هـ قرب موعد اقامة مهرجان ذكرى المولد النبوي الشريف ، فتوالت اجتماعات جمعيات حيفا وأنديتها - وما أكثرها - للاتفاق على اقامة مهرجان واحد مشترك ، فتعددت الآراء متغايرة متنافرة مختلفة ، ولم تسفر الا عن زيادة الشقاق ، فنظمت هذه القصيدة وحييت بها مولد الرسول العربي الأعظم ، والقيتها بقاعة "كوكب الشرق" حيث اقامت " جمعية الشبان المسلمين" بالاشتراك مع بعض الاندية احتفالا .. وذلك يوم الثلاثاء 12 ربيع الاول سنة 1363 هـ "1" . ومما جاء في هذه القصيدة :

يا يوم ميلاد النبي محمد ... يا مفردا في الدهر عن أضرابه

ماكنت ذكرى مأكل أو مشرب ... أو ملبس تفري بروق سرابه

ماكنت الا عبرة لأولى النهى ... كرّ الزمان بها على أحقابه

ماكنت الا ذكرة وضاءة ... ضاءت لذاكرها سبيل صوابه "2"

ويتساءل البحيري عن جدوى الاحتفال بالمولد ، مادامت

1- ابتسام الضحى ص 52 .

2- ابتسام الضحى ص 59 -60 .

ذكراه تمر دون أن يغير الناس ما هم عليه من استعباد المستعمرين لهم ودون أن يكونوا بحق أتباع الرسول الذي ضرب أروع الأمثلة في التضحية والفداء .

أنقيم هذا المهرجان لسيد دان الورى لسيوفه وحرابه
وأنار بالحق المبين غشاوة للجهل كانت في صفيق حجابه
ونكون نحن أذل من وتد الحمى أوعيره المعقول في أجنابه
ماهكذا ياقوم كان محمد ان شئتموا أن تهتدوا بكتابه
ماكان الا الروع في سوح الوغى ماكان الا الفند بين صحابه
ماكان الا الدهر هاب الدهر صولاته فذل وسار خلف ركابه
ماكان منه من ارتضى مستعبدا أهوى عليه بظفره وبنابه "1"

وكما تألم البحيري من عدم الاستفادة من معاني المولد فان الكثيرين من الشعراء تألموا مثله . هاهو الشاعر وديع البستاني نزيل فلسطين يتألم نتيجة عدم الاتعاظ بالمعاني السامية المولد النبوي

أبكل عام حفلة للمولد تُقضى مراسمها وتنسى في الغد
وتجدد الذكرى لمجد تالد والمجد ثاو ايس بالمتجدد
أيامنا تترى تمر ومن لنا منها بيوم مثل يوم محمد "2"

واذا كان الناس يقيمون المهرجانات في المولد النبوي اعزازا منهم لرسول الله ، وتخليدا لذكرى عزيزة على القلوب ، فان

1- ابتسام الضحى ص 60-61 .
2- حياة الادب الفلسطيني الحديث ص 181 .

خيال الشاعر يضيف بعدا جديدا للاحتفال عندما يتخيل الطبيعة قد احتفلت على طريقتها الخاصة بذكرى المولد النبوي ، وأميل الى أن البحيري يعتبر سباقا في افراد قصيدة بأكملها ، تتحدث عن مظاهر احتفال الطبيعة بالمولد النبوي . صحيح أنه لم يكن سباقا في حديثه عن احتفال الطبيعة بالمولد ، الا أن الشعراء الذين سبقوه في هذا المجال،لم يفردوا لهذا الموضوع قصائد كاملة ، وانما وردت بضعة ابيات في قصائدهم ، تتناول بهجة الطبيعة واحتفاءها بمولد الهادي البشير . أما البحيري،فقد تناول مظاهر احتفال الطبيعة في قصيدة كاملة ، هذا الاحتفال الذي كان جمهوره من الازهار والاغصان والطيور والجداول . ان هذا يعني أن ذكرى المولد قد سيطرت على احاسيس الشاعر الى الحد الذي جعلته يتخيل الطبيعة مبتهجة فرحة . ومع أن هذا الخيال لا أساس له من الحقيقة ، الا أن الذي يهمنا هو عمق احساس الشاعر بهذه الذكرى .

وما كان لهذا الاحساس أن يتجذر في قلب البحيري ،لو لم يكن مشغوفا بحب النبي . والمحب ساعة الانسجام يضفي الطمأنينة والسرور على كل ما يراه . وما دامت الطبيعة هي مصدر راحته ومتعته فمحال أن يشعر بلحظات السعادة الا اذا تخيل أن كل ما حوله من أشجار وأزهار وجداول تشاركه الفرحة التي تغمر قلبه .

ومن قصائده في هذا المجال قصيدته " عيد في عيد " التي يقول

في مقدمتها ": " حلّت أفراح المولد النبوي الشريف في أفراح الربيع الباكر ، فنظمت هذه القصيدة وألقيت في نادي أنصار الفضيلة بحيفا ابان الاحتفال الذي اقيم ابتهاجا بهذا العيد السعيد وكان ذلك يوم الخميس 12 ربيع الاول عام 1362 هـ . "1"

أيها الشاعر هذا الموكب ... نالت الاحلام فيه ما تمنت
أرقص الازهار فيه الطرب ... وعلى أغصانها الطير تغنت

ضحك النرجس عن ثغر ند ... وسرت بالعطر أرواح الصبا
وتثنى كل غصن أملد ... مائسا فوق الاقاحي لعبا

وجرى الجدول نشوان طروب ... راقصا فوق الحصى مستضحكا
يبعث النشوة في كل القلوب ... ويؤسّي من بكى عمّا بكى

بسم الزهر لارهام الندى ... بسمة الاكؤس عن درّ الحبب
وغناء الطير امّا أنشدا ... صبغ الورد بألوان اللهب

رفت الانداء في النبت العميم ... كرفيف الدمع هاجته المنى
فبدت في الزهر كالدرّ اليتيم ... نثرته فوقه أيدي الحيا

فلمن رنّم بالسجع الغدير ... وارتدى الكون أفانين حلاه
ولمن غنت على الدوح الطيور ... فتغنى كل قلب بمناه

ولمن سار يرن الجدول ... تحت غصن يتثنى ويميل

1- أفراح الربيع ص 17 .

ولمن غرّد فيه البلبل ... نغما ألهب آفاق الأصيل

ولمن زهر الربيع الطلق نوّر ... وسقى الأيام كاسات العطور

نشوة الفرحة هزّته فازهر ... ثم حيّا مولد الهادي البشير

فهو يوم سعد الكون به ... بعث الفرحة في قلب الحياة

نكص البغي على أعقابه ... وعنت ذلا له هام الطغاة

مولد كالشمس في اشراقها ... ضوّأ الدنيا بأنوار اليقين

مالت الشمس على آفاقها ... ثم حيّته باحناء الجبين

هو عيد النور في عيد الزهور ... سكرت فيه المنى من طرب

لبس الكون به ثوب الحبور ... ثم حيّا مولد الهادي النبي

فانشد ياشاعر في العيد السعيد ... وابعث الانغام من ناي الخلود

أسكر الأرواح باللحن الفريد ... وا ملاء الدنيا بأفراح النشيد "1"

وكما تحدث شاعرنا عن المولد النبوي ، فقد تحدث عن الهجرة النبوية ، وهي المناسبة التي يستغلها الشاعر - على عادته في مثل هذه المناسبات - لشحذ الهمم ، وذلك من خلال رسم الصورة المجيدة لتضحيات رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الذي تحمل في سبيل العقيدة كل أنواع المتاعب والاهوال . انه يريد من حكام العرب أن يضحوا براحتهم لخدمة الأمة أسوة برسول الله ان كانوا حقا مسلمين .

1- أفراح الربيع ص 17- 21 .

واذا كان رسول الله - وهو أفضل الخلق - قد عانى في سبيل الرسالة معاناة شديدة لا يتحملها الا القليلون من أولي العزم ، فان الواجب يقتضي أن تتخذ الجماهير والحكام رسول الله قدوة . يقول :

يا أحمد الافعال والاقوال ألبست العلا تاج الفخار الحالي

فغادت محمودا وأنت محمد ... هديت بك الايام بعد ضلال

وقف الزمان أمام عزمك صاغرا ... وازتد من فزع يولول يالي

أغذ ابن عبد الله عزمي وانتضى ... سيفي وجاء به يريد قتالي

ياقاهر الزمن العتيد وواحدا ... في دهره بجلائل الاعمال

هاجرت من وطن غذيت لبانه ... وسقيت فيه من الصفا السلسال

يا معجب الأيام فيما شدته ... فغدوت منها موضع الاجلال

ماتلك من جيب الغيوب رسالة ... هبطت على متواكل مكسال

لكن أعمالا أتيت خوالدا ... كانت لروعتها كوهم خيال

وطن نمالك على المعالي سيدا ... فملكت فيه صوالج الاقبال

هاجرت من مهد الطفولة مرتع الذ كر العذاب ومبسم الآمال

فلبست من عزم الرجال بجندس الظلماء سربالا على سربال "1"

ويطل على الناس عيد الفطر في غرة شوال عام 1363 هـ ، ويقف البحيري أمام هذا العيد الديني فيذكر الناس أن العيد الحقيقي هو العيد الذي تتحقق فيه امال الأمة . ونراه يتخذ من العيد مناسبة لتوعية الشعب وشحذ همته ، فالحق

1- ابتسام الضحى ص 110 .

لا يؤخذ بغير القوة ، ولا يعود مجد الأمة الا بالتضحيات . هاهو يقول :

ليس هذا اليوم يا قومي بعيد   من رأى في صبحه وجه عداد ؟
انما عيد ليالينا السعيد   يوم تدنو من أمانيها البلاد

لا تظنوا العيد براق الثياب   من ثمين الخز أوغالي الحرير
انما العيد اذا نادى الشباب   وطن أثقله العادي المغير
أن نلبي الموت كالأسد الغضاب   يوم يدعونا الى الموت النفير

فاملأوا عين الليالي بالعديد   من ليوث غابها السبع الشداد
أيكون الجسم في ثوب جديد   وأماني الروح في ثوب الحداد ؟ ا"1"

وقد لاحظت أن قصيدة الشاعر "عيد البلاد" جاءت في الديوان تحت الآية الكريمة " ياأيها النبي حرض المؤمنين على القتال ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مئتين وان يكن منكم مئة يغلبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون" .

ومن الواضح أن الشاعر يستلهم هذه الآية في تحريض الأمة على القتال . ومع أن المناسبة هي الاحتفال بعيد الفطر ، فانه يوظف هذه المناسبة لخدمة الأمة وتحقيق عزتها . أن المناسبات الدينية هي الأبواب التي يلج منها البحيري للوصول الى الهدف الذي يرمي اليه ، وهو توعية الشعب الفلسطيني وأبناء الأمة العربية بما ينبغي أن يكونوا عليه حتى يحققوا كرامة الوطن ومجد الأمة .

1- ابتسام الضحى ص 117 .

ويقبل شهر رمضان المبارك فيتوجه الى الله عز وجل بالدعاء أن ينير بالايمان القلوب وأن يقبل دعاء المؤمنين الصادقين وأن يشمل بعفوه التائبين .

أقبلت يا رمضان نور أمان ... وسنى يرفّ على جفون أماني
فعلى المآذن منك نور مشرق ... وعلى الشفاه ترنّم وأغاني
وبكل بيت نشوة قدسيّة ... فياضة بالبر والاحسان
فاقبل بلطفك ياكريم دعاءنا ... من كل قلب مؤمن الخفقان
وأنر بنورك يا عظيم دروبنا ... وأدم علينا نعمة الايمان
واشمل بعطفك كل توبة تائب ... يا منزل القرآن في رمضان "1"

وهكذا نرى الشاعر يستلهم من المناسبات الدينية روحها ولا أشد والحقيقة عندما أقول : ان البحيري يوظف المناسبة الدينية في خدمة الاهداف الوطنية ، انطلاقا من أن الدين في جوهره يمثل ثورة شاملة في كل مناحي الحياة ،وفي مقدمتها حياة العزة والكرامة . واهتمام البحيري بالمناسبات الدينية اهتمام عام سار عليه الشعراء وفي مقدمتهم شوقي الذي تعتبر اسلامياته علامة بارزة في الشعر الديني باعتباره " أكثر شعراء العصر الحديث تناولا لموضوعات دينية " على حد تعبير الدكتور أحمد الحوفي . "2"

1- ديوان تبارك الرحمن ص 133- 136 .
2- الاسلام في شعر شوقي - د . أحمد الحوفي - مطابع الاهرام التجارية عام 1972م ص 4 .

ولا بأس من مقارنة عابرة بين البحيري وشوقي في هذا المجال .

فشوقي يتناول المناسبة الدينية مستنيا بتفاصيلها ، مستقيا هذه التفاصيل من القرآن والسنة وكتب السيرة . ويتضح ذلك في قصائده التي تتناول المولد النبوي والاسراء والمعراج ، وصفات الرسول ، وفضائل الاسلام ، مما يعلم القارئ كثيرا من الجوانب التي تتعلق بالدين سواء كان ذلك في مجال العقيدة أو الفرائض أو الاخلاق . كما يطلع القارئ من خلالها على سيرة الرسول وسيرة الدعوة الاسلامية . ولا نجد مثل هذا عند البحيري الذي لا يحرص على التعرض المناسبة الدينية بالكيفية التي يتعرض لها شوقي ، ولا يمس التفاصيل التاريخية والدينية للمناسبة الا مسا خفيفا ، بينما يعتني اعتناء كبيرا بالعظات والعبر التي ينبغي الاستفادة منها .

وهكذا فان البحيري على الرغم من حبه لرسول الله واعتزازه باسلامه ، وصدوره في كل ما يقول عن عاطفة صادقة ، فانه يتخذ من المناسبات الدينية وسيلة لايقاظ الأمة ودعوتها الى النهوض ، وتذكيرها بما يتهددها من اخطار على يد الصهيونية والامبريالية . ان البحيري يعطي المناسبة الدينية بعدا وطنيا بالاضافة الى بعدها الديني .

ومن الشعراء الفلسطينيين الذين يتفقون مع البحيري في منهجه ، الشاعر محمد العدناني الذي يعتبر في طليعة الشعراء العرب

التزاما بقضايا الوطن والأمة . وهو يتخذ من المناسبة الدينية مدخلا للحديث عن آلام الأمة وآمالها . وقصائده وحي العيد ، وحي المولد ، تحية العيد ، رأس السنة ، ذكرى بدر ، شاهدة على ذلك . ففي قصيدته "وحي العيد" يقول :

أيها العيد هذه وحدة العرب أطلت وأبرزتها الغيوب
حلقت في الفضاء نسرا فيا قوم اقصوه فربما لا يؤوب
لا تخافوا من خيبة تتراءى　　بعد جهد أن تصبروا لا تخيبوا
واطردوا اليأس ان هي فالذي لا　　يخطيء اليوم ، في غد لا يصيب "1"

وفي قصيدته "وحي المولد" يقول :

تأسّوا بخير الانبياء محمد　　ولا تحفلوا الأرزاء فاغرة الفم
ولا تهنوا يوما ولا تحزنوا لما　　دهاكم فقد تباهي الشعوب بأعظم
وانكم الأعلون في كل معرك　　به الدهر يغزوكم بجيش عرمرم "2"

وفي قصيدته " تحية العيد " يقول :

عواصم الضاد كوني في الخطوب يدا　　على البلاء تذودي الويل والحربا
قد كان مجدك ملء السمع فابتعثي　　مجدا يحلق حتى يبلغ الشهبا
وحققي الوحدة الكبرى تعززها الاخلاق ناصعة والعلم مرتقبا
يا قومي احتفلوا بالعيد وابتسموا　　النائبات تروا صبح المنى اقتربا
من لم يثب فوق صدر الدهر مجترئا　　عليه الذي أخا الويلات قد وثبا "3"

1- فجر العروبة-محمد العدناني- المكتبة العصرية صيدا 1960م ص 100-101 .
2- فجر العروبة ص 110 .
3- الوثوب- محمد العدناني المكتبة العصرية صيدا - 1965م ص 48- 51 .

ومن الشعراء الفلسطينيين الذين استغلوا المناسبات الدينية لشحذ العزائم ، ولكن على نحو أقل من البحيري والعدناني ، الشاعر أبو سلمى (عبد الكريم الكرمي) ، ويظهر ذلك في قصيدته " طيف العيد " التي يقول فيها :

ما العيد الا أن ترى أمة خفاقة الاعلام طول المدى

تعيش في أوطانها حرة ولا ترى الأبيض والاسودا

تمحو الجهالات وأربابها وتمسح الفقر وظلم العدا

والناس اخوان على أرضها لا تعرف العبد ولا السيدا

العالم الحر لنا موطن يا موطن الأحرار نحن الفدا "1"

ويخلو ديوان "ابراهيم طوقان" من شعر المناسبات الدينية باستثناء قصيدته " الحبشي الذبيح " التي يتحدث فيها عن ذبح الديوك الهندية في احتفالات العيد عند المسيحيين . وقد اتخذ الشاعر من الديوك الذبيحة رمزا للشعوب المنكوبة بالمستعمرين . وعلقت جريدة "البرق "على هذه الاحتفالات بقولها :

" هذه الديكة الحبشية أو الديكة الهندية - اذا شئت - التي يذبحونها على رنين الاجراس وأفراح المعيّدين ، لتكون عروس المائدة تعمل فيها المدى تقطيعا وتشذيبا ، لتملىء بها البطون مروية بكؤوس الخمر من بيضاء وحمراء . كذلك هي الأمم المغلوبة على أمرها ، كانت وما برحت عروس الموائد شأن الحبشي الذبيح . أما ريشه

1- ديوان ابي سلمى - دار العودة بيروت - ط 1 عام 1978م ص66 .

فتحشي به الوسائد وأما لحمه فتحشي به البطون "1" ومما جاء في هذه القصيدة :

بورقت له مسنونة تتلهب ... أمضى من القدر المتاح وأغلب

حزت فلا حد الحديد مخضب ... بدم ولا نحر الذبيح مخضب

وجرى يصيح مصدقا حينا فلا ... بصر يزوغ ولا خطى تتنكب

حتى غالت بي ريبة فسألتهم ... خان السلاح أم المنية تكذب

قالوا حلاوة روحه رقصت به ... فأجبتهم ماكل رقص يطرب

أعذابه يدعى حلاوة روحه ؟ ... كم منطق فيه الحقيقة تقلب

أن الحلاوة في فم متلمظ ... شرها ليشرب ما الضحية تسكب

هي فرحة العيد التي قامت على ... ألم الحياة وكل عيد طيب "2"

بعد هذا نستطيع القول : ان البحيري يعتبر في طليعة الشعراء الفلسطينيين الذين اتخذوا من المناسبات الدينية وسيلة لايقاظ الشعب وتوعيته . وهو يرى أن أية قصيدة أو خطبة تقال في مناسبة دينية ، تفقد الكثير من قيمتها اذا لم تراع واقع الأمة ، فتتناوله بالمعالجة انطلاقا من روح المناسبة . ذلك لأن الدين ليس صلوات وأدعية وابتهالات فحسب ، فهو بالاضافة الى ذلك جهاد وتضحية في سبيل الله . وأي جهاد أعظم من كلمة الحق التي تبدد ظلام النفاق وتجابه جبروت الباطل ؟ ! .

1- ديوان ابراهيم - دار الشرق الجديد بيروت ط1 عام 1955م ص 142 .

2- ديوان ابراهيم ص 142-143 .

الشعـــر الـديـنـي التـأ مـلـي :

استحوذ هذا النوع من الشعـــر

على معظم شعر البحيري الديني ، وهو يبدع فيه بشكل ملحوظ .
ومع أن التأمل في خلق الله قد ورد في شعر الشعراء قديمـا
وحديثا الا أني لم اجد - في حدود اطلاعي أحدا كالبحيري يفرد
قصائد مطولة يتتبع فيها مخلوقات الله في السموات والأرض ،
متخذا من نتيجة التتبع والاستقصاء دليلا على قدرة الله عز وجل .
وقد أشار الشاعر الى ذلك فيما قاله عن ديوانه " تبارك الرحمن"
الذي يتضمن شعره الديني التأملي . يقول :

آخر ما اخرجته من كتبي المحجبة
"تبارك الرحمن" في أسراره المغيبة
وفي براياه وفي أبداعه المستعجبة
وانه الروضة أدواحها موشبة
علوية الانسام والارائج الطيبة
لم يخل في الدهر لها أي مثيل أوشبه
منذ جرى المداد في موهبة مستكتبة "1"

والشاعر في قصائده الدينية التأملية ليس فيلسوفا ، وانما هو شاعر
تعلق قلبه بالله وآمن به ايمان العابدين الذين يتفكرون في

1- ديوان تبارك الرحمن - صفحة التعريف بالديوان .

في خلق السموات والأرض . والمنهج الذي سار عليه في شعره يتمثل في قول الله سبحانه : " ان في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار " "1" .

ويستطيع الدارس أن يتبين مضامين الكثير من الآيات الكريمة في قصائد البحيري ، والشاعر يقود القارئ للتعرف على آيات الله في خلقه ويتتبعها آية آية حتى تنتهي القصيدة بالهدف الذي يرمي اليه وهو التسليم بقدرة الله عز وجل . وهو يجمل في قصائده فيأتي في القصيدة الواحدة بكثير من الآيات الدالة على قدرة الله دون تفصيل فيها ويخرج من خلال استعراضها الى الهدف الذي يرمي اليه دائما وهو الاقرار بعظمة الله وقدرته . وقد تقتصر القصيدة على آية واحدة يفصل القول فيها ويأتي على دقائق جزئياتها يهدف من وراء ذلك الى التأكيد على الهدف الذي اشرنا اليه من خلال الابداع الذي يلاحظه في هذه الجزئيات التي ماكان لها أن تتناسق لولا قدرة الله . وستتضح معالم هذا الشعر من خلال دراستنا . يقول الشاعر في مقطوعته" وجه الله" :

انني أجلت الطرف وأرسلته	في الكون بين سهوله ووعوره
وكررته من عاليات جباله	لمدى صحاريه وعمق بحوره

1- الآية 190 و 191 من سورة آل عمران .

و نقاته من صيفه لخريفه ... ومن الشتاء الى ربيع زهوره

ورجعته من أرضه اسمائه ... بنجومه وشموسه وبدوره

أبصرت نور الحق يشرق زاهرا ... مابين خافية الى منظوره

ورأيت وجه الله في إصباحه ... ورأيت وجه الله في ديجوره "1"

نلاحظ من الأبيات السالفة أن الشاعر استعرض على عجل مخلوقات الله المتعددة فمن السهل الى الوعر ومن الجبال العالية الى الصحاري وأعماق البحور ومن الصيف الى الخريف،الى الشتاء ، الى الربيع ومن الأرض وما عليها الى السماء وما فيها من نجوم وكواكب وينتهي من ذلك الى أن قدرة الله بادية في مخلوقاته يراها كل ذي حس وبصيرة . ومن الملاحظ أن الشاعر نتيجة هذا التعدد لم يقف على التفاصيل والجزئيات وقد يقف في بعض القصائد وقفات قصيرة ولكنها وقفات يغلب عليها الاستعراض كما يظهر ذلك في قصيدة " هو الله" حيث يقول :

من زيّن الاقمار بالأنوار حالمة رؤاها

من أنطق الاطيار بالألحان تصدح في رباها

من أرقص الأزهار بالأنسام فوّاحا شذاها

من أنضر الأغصان أورق ظلها ودنا جناها

\+ + +

من سلسل النبع الغزير جداولا في كل غيل

وبفوح أنفاس الخزامى صب مسكرة الشمول

1- تبارك الرحمن ص 23 ، - 30 .

وهدى الطيور فهاجرت عبر الجواء بلا دليل
وقضى الى شمس الصباح فورّدت خد الأصيل
+ + +
هو مبدع الأكوان منزل معصرات حيا السحاب
المانح المعطي الوهوب لمن يشاء بلا حساب
مجري العيون من الصخور الصم بالنطف العذاب
تسري بها روح الحياة تدب في نبض التراب
+ + +
ملك الملوك تقدست أسماؤه وسمت جلالا
خلق العوالم ما رأت قبلا لها عين مثالا
وأفاض نور الحق في الأكوان فائتلقت جمالا
وأتمها نعما فما وفّى لها شكر مقالا
+ + +
آلاؤه لا الوهم يحصرها ولا الفكر الثواقب
من كل سابغة تعم مدى المشارق والمغارب
وتجل أن تحصى ولو أن البحار مداد حاسب
أو أن مافي الأرض من شجر غدا أقلام كاتب
+ + +
رب السموات الطباق بها تحيرت العقول
وكواكب الأفلاك من برج الى برج تدول
وعلى مطاوي سرها تنداح من غيب سدول
يفنى الوجود وأنت حي لا تحول ولا تزول "1"

1- تبارك الرحمن ص 147-152 .

وفي قصيدته " بديع السموات والأرض" ينهج ما نهجه في قصيدة " هو الله" اذ يستعرض فيها آيات متنوعة على قدرة الله . فالله خالق الأصباح بالنور المبين وخالق الناس من ماء وطين وهو الذي جعل الليل لباسا والنهار معاشا . وهو الذي خلق هجير القيظ وهزيم الرعد . وهو الذي سيّر السحاب في السماء وفجر النبع بالماء المعين . هو الذي خلق البحر وشكل وجه الأرض كيف يشاء وجعل في جوفها براكين اللظى تتسعر على مر القرون . وينهي قصيدته بالمحصلة العامة التي يهدف اليها :

جل من أبدعها في كونه   قدرة تعيي لسان الواصفين

وله الحمد على آلائها   ما توالت في الورى عمر السنين "1"

وللبحيري قصائد كثيرة ، يتناول فيها آية من آيات الله ، يستقصي جزئياتها ويتتبعها ببراعة كبيرة ، مبينا عظمة الله التي تحيط بكل صغيرة وكبيرة ، ومبينا قدرة الله التي تتجلى في كل ما خلق ، مهما كانت دقة المخلوق .

والبحيري في هذا الاستقصاء للجزئيات انما يريد توجيه الأدلة على قدرة الله بعدة وجوه . ان الشاعر يريد أن يقول : هذه قدرة الله تتبدّى ظاهرة لكل انسان فما عليه الا أن يتحسسها ويلمسها . وأي دليل أوضح من ذلك الدليل الذي نراه ونلمسه؟

1- تبارك الرحمن ص 106 .

هكذا كانت قصائد البحيري الدينية ذات نهج جديد في الدعوة الى توحيد الله والاقرار بقدرته . هما هو ذا يحدثنا عن الزهر والثمر، وما يتجلى فيهما من أسرار الخلق والابداع،فالزهر يأتي في موعده لا يتقدم ولا يتأخر،ورائحته هي رائحته لا تتبدل ولا تتغير،والثمر كذلك يأتي في موعده،وينضج في موعده ،فمن غير الله يقدر على ذلك كله؟ ومن غير الله يعطي الثمر طعمه ولونه؟ . يقول :

تثني نديّ الزهر مبتسم الثغر على أيكه الميّاس في صحوة الفجر
وقد أيقظت ريح الصّبا نشوة الصبا بما اختال من هافي رفارفه الخضر
فقدس باريه وسبح حمده وقال وفي انفاسه ضائع العطر
تباركت قد وشحت بالنور بسمتي ورصّعت أيتام الدراري في ثغري
وتوّجت بي بحرا تأرج طيبه على سندس الاعشاب والورق النضر
اذا حركته الريح مار بموجه سني الجوهر المكنون واللؤلؤ النثر
وزينت بي للناظرين مرابعا بألوانها تربو على فتنة السحر
فظلت وجوه الارض عمر ربيعها ترف بأنوار الطلاقة والبشر
واثقلت غصني بالثمار ينيعة فكنت على نعماك من آية اليسر
وأودعت بذري كنه سر محجب يقول : تعالى مالك النهي والأمر
وعز جلالا كيف أبدع قادرا غيوب نواتي ثم أودعها صدري
فمذ كان خلقي لم يزل في قرارتي من السر ما يحيي مصاحبة الدهر
فلم أنس ميقات التفتح مرة على مدّ أيامي الى منتهى عمري

وإثمار كمي بعد ازهار برعمي يجيء على قدر و يمضي على قدر
وما بدلت كنهي مغايرة الثرى ولا غيرت ذاتي مخالفة القطر
وكم لبديع الخلق من آي قدرة تقاصرَ عن ادراكها نهية الفكر
جرت منذ بدء الكون غيبا محجبا وتبقى بقاء الكون في غيبها تجري "1"

وما من شك أن البحيري في شعره الديني متأثر بالقرآن الكريم ويظهر هذا في الادلة التي تستند اليها فهي في جوهرها و مضمونها تتفق مع الآيات الكريمة، والشاعر يرفد المضمون ويزيده توضيحا بما يضفيه من تفصيلات وايحاءات وظلال. ان الكثير من مضامين الأبيات في قصيدته السالفة" الزهر والثمر" يظهر في الآيات الكريمة الآتية حيث يقول سبحانه :

" وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه انظروا الى ثمره اذا أثمر وينعه ان في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون""2" ويقول تعالى: "ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ""3" ويقول تعالى: "فلينظر الانسان إلى طعامه انا صببنا الماء صبّا ثم شققنا الأرض شقّا فانبتنا فيها حبا وعنبا وقضبا وزيتونا ونخلا وحدائق غلبا

1- تبارك الرحمن ص 41- 50 .
2- آية 99 من سورة الانعام .
3- آية 27 من سورة فاطر .

وفاكهة وأبّا متاعا لكم ولا نعامكم "1"

ويتحدث البحيري عن قدرة الله في النحل وما اودع فيه من اسرار يقف العالم أمامها حائرا فالنحلة تبني بيوتها البديعة وتهتدي الى الأزهار تتنقل بينها وتمتص رحيقها وتخرجه من بطنها شرابا سائغا فيه شفاء الناس . يقول :

تتهادى فوق أزهار الربى ... تجتني من كل ثغر ما تشاء

فجلت للروح اشراق الهدى ... بمعانيها السنيّات الوضاء

فهي ان ثارت فوقد من لظى ... واذا جدّت فسهم من مضاء

واذا شادت ذرى مملكة ... أعجزت بالفن أرباب البناء

واذا راحت لرزق واغتدت ... سبقت للرزق من راح وجاء

واذا ما بكرت في سعيها ... قبل جر الشمس ذيل الخيلاء

سلكت للكسب سبلا ذللا ... ثم آبت بعد جد وعناء

بغبار الطلع من أكمامه ... أو رحيق الزهر أو شمع الضياء

أو رضاب الينع معسول اللمى ... أو لعاب الشهد أو عذب الرواء

ثم مجّته شرابا سائغا ... فيه للناس دواء وشفاء

جلّ هادي الخلق أنّى سلكت ... بهدى الرشد سبيل الرشداء

فغدت غالية سلعتها ... ثم راحت وهي ملأى بالجناء

ومضت قاصدة أمرا فما ... أخطأ القصد ولا ضلّ الرجاء

يالها من آية صامتة ... صمتها يعيي بيان البلغاء "2"

1- الآيات 24-32 من سورة عبس.

2- تبارك الرحمن ص 65 - 69 .

وواضح أن البحيري في قصيدته هذه يعتمد على آيات القرآن الكريم بشكل أكثر وضوحا اذ أن قول الله في النحل يبدو واضح القسمات في الأبيات والتداخل على ذلك نورد قوله تعالى :

" وأوحى ربك الى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا و من الشجر و مما يعرشون . ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللا يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس ان في ذلك لآية لقوم يتفكرون " "1"

ان بعض الأبيات في قصيدة "النحل" تقترب من الآيات الكريمة حتى في الفاظها . يقول تعالى : " فاسلكي سبل ربك ذللا " ويقول الشاعر: " سلكت للكسب سبلا ذللا ... " ويقول تعالى : " يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس" ويقول الشاعر:

ثم مجّته شرابا سائغا فيه للناس دواء وشفاء

ان في هذا دليلاً كافيا على أن البحيري اطلع على القرآن حتى استوعبه وحفظ الكثير منه وتأثر بأسلوبه . ويتضح للباحث أن الكلمات القرآنية تشكل جانباً مهماً من المعجم الشعري للبحيري ، ويحتل الشعر الديني مكان الصدارة في ذلك .

ان الشاعر يحرص على أن يختتم قصيدة "النحل" بالهدف الذي يرمي اليه وهو أن آيات الله تقود الى الايمان والاقرار بقدرة الله سبحانه .

1- الآية 68-69 من سورة النحل .

رب قد احكمت خلقنا با مرا — لم يزل يتلو بتمجيد الدعاء
سور الحمد وآيات الثنا — مرسلا تسبيحه صبح مساء
قائلا التائه الفكر والمغمض العينين عن فيض السناء
كل ما في الأرض آيات هدى — فسرت اعجاز آيات السماء "1"

ويتنقل الشاعر الى آية أخرى وهي الطيور فيحدثنا عن قدرة الله الذي كساها الريش ومكنها من الطيران في اجوا ز الفضاء وهداها الهجرة من أقصى الشمال الى أقصى الجنوب . يتحدث عن جمال خلقها وزركشة ألوان ريشها البديعة ، يتحدث عن هواها وعشقها ومناجاة بعضها لبعض وينتهي من هذا كله الى تنزيه الله الذي الهم الطير هواها وأبدع في خلقها . ويدعو الشاعر الى التأمل والتفكير بعمق من أجل الوصول الى الحقيقة ، ولذا فانه يستهل قصيدة "الطيور" بقوله :

تملّ بعينيك خلق الطيور — وأمعن بفكرك في خلقها
وسبّح علا من كساها الرياش — وأضفى عليها سنا روقها "2"

بعد ذلك يتحدث عن الطيور ليبين عظمة الله الذي هيأها وهداها الى كل ما تفعل ، كما يتحدث عن طيرانها وهجرتها التي مازالت تحيّر العلماء الذين يبحثون عن أسرار هذه الهجرة . يقول :

تباري الرياح بخفق الجناح — وتعلو على الغيم في وسقها
وتنسق في عاليات الجبال — وكونا تأنق في نسقها
فما تبلغ السحب أجوازها — وقد شمخت في ذرى عرقها

1- تبارك الرحمن ص 71-72 .   2- تبارك الرحمن ص 53 .

ولا يدرك الطرف أبعادها | وقد جاوزت منتهى أفقها
تهاجر من قاصيات الشمال | فتأتي الجنوب على عمقها
ومن وهدة الأرض أو نجدها | الى مغرب الشمس أو شرقها "1"

ثم يتحدث عن جمال الطيور وسحر ألوانها الجذابة، يتحدث عن وداعتها ووجدها بأسلوب شعري غاية في الرقة والعذوبة انه يرسم لوحة للطيور تنبض بالحيوية وروعة التصوير، ويصف حركات الطيور وصف العارف الخبير. وبجانب ذلك فاننا نحس بعواطفه تتدفق من ثنايا الأبيات فتعطيها نفحة وجدانية رائعة يوظفها الشاعر ببراعة من أجل بيان قدرة الله في ابداع مخلوقاته، وهذا الجانب الوجداني علامة واضحة من علامات الشعر الديني التأملي الذي أبدع فيه البحيري. يقول:

وتبني على الدوح أعشاشها | وفي سعف النخل أو عذقها
وتسقي الحنان بكأس الحنان | لزغب الحواصل في زقها
وتجلو على الغصن سحر الجمال | وترقصه بشجي نطقها
فيا فتنة الرقش في خضرها | ويا روعة النقش في زرقها
وصفر الحساسين أو حمرها | وبيض الحمائم أو ورقها
وزهو التألق في تاجها | وحسن التزوق في طوقها
ويا المجوى في هيام الهوى | اذا هي بشت صبا عشقها
تروح خماصاً وتغدو بطاناً | ولا تحمل الهمّ في رزقها "2"

1- تبارك الرحمن ص 54- 55 . 2- تبارك الرحمن ص56-59 .

ان هذه اللوحة المتناسقة للطيور وهذا التفاعل العاطفي بين الشاعر وبينها يوظف لخدمة الهدف الذي تسعى القصيدة من أجله فهذا التناسق الرائع في خلق الطيور ما كان له أن يكون لولا قدرة الله والشاعر يكشف عن هذه الحقيقة بوضوح عندما يقول في ختام قصيدته :

فسبحانك الله ألهمتها هواها وأبدعت في خلقها "1"

ويفرد البحيري قصيدة للشمس باعتبارها آية من آيات الله . فالله أنزلها منازل محكمة ، وجعلها مصدراً للحرارة لا تستغني عنها الكائنات الحية ، وهي دقيقة في غروبها وشروقها ، فسبحان من خلق كل شيء بقدر .

يبدأ الشاعر قصيدته بالدعوة الى التفكير والتدبر وهذا هو المحور الذي دارت حوله هذه القصائد الدينية فالبحيري يريد الوصول الى الله عن طريق العقل لا أن ينقل الأبناء دينهم عن آبائهم وأجدادهم من غير معرفة وادراك . وهذه الدعوة موجهة لأولئك الذين عميت قلوبهم عن الايمان بالله ولا يؤمنون الا بما تقع عليه حواسهم ولذا فان البحيري يطالبهم باستعمال هذه الحواس حتى يروا ويلمسوا قدرة الله التي شملت هذا الكون وأحاطت به . أما بالنسبة للمؤمنين فان التفكير في خلق الله يزيدهم ايماناً . يقول :

1- تبارك الرحمن ص60 .

تدبر بفكرك شمس النهـــــار	لتحمد خالقها المبدعـــا
ومنزلها من مدار البروج	منازل أحكمها موقعـــا "1"

بعد هذا الافتتاح يوضح ما للشمس من آيات يقف أمامها العقل حائرا .

وعت منذ كانت حدود الزمان	حدود الزمان بما قد وعى
فكانت حياة الكل حيـــاة	وكانت الكل سنى منبعـا
وهذا المدار الطويل الطويل	بها ما أضل ولا ضعضعـا
فما أخرت ساعة مغربـا	ولا قدمت ساعة مطلعـا
ولا غيرت دربها غايـــة	ولا استبدلت أفقها موضعـا
مسيرة في فضاء السمـاء	تجوب به الأمد الأوسعـا
فليس لها أن تدف مسيـرا	وليس لها فيه أن تسرعـا

وينهي الشاعر القصيدة بما يريد الوصول اليه دائما حيث يقول :

فسبحان من هي من صنعه	وفي كونه بعض ما أبدعـا "2"

ومما لاشك فيه أن البحيري اطلع على الآيات الكريمة التي تتحدث عن الشمس والقمر وتأثر بها ، وهذا واضح في مضمون الأبيات . يقول تعالى : " وسخر الشمس والقمر كل يجري الى أجل مسمى" "3" ويقول : " لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون " "4" ويقول : " والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم" "5"

1- تبارك الرحمن ص125 .
2- تبارك الرحمن ص 126-130 .
3- الآية 29 من سورة لقمان .	4- الآية 40 من سورة يس .
5- الآية 38 من سورة يس .

وتحدث شاعرنا عن البحر وهو آية من آيات الله، تحفل أغواره بكل عجيب غريب، وتتصاعد منه الأبخرة لتتجمع غيما يجود بمطره فتعم الخضرة بقاع الأرض. يتحدث عن مده وجزره، عن أمواجه العاتية وصفحة مائه الهادئة، عن فضل الله الذي سخره ليتنقل الناس على متنه من مكان الى مكان، عن الخيرات التي يضمها، اذ يستخرج الناس منه حلية يلبسونها ويأكلون منه لحما طريا.

وفي ذلك كله آيات على قدرة الله ويسوق البحيري افكاره وتأملاته في قصيدته "البحر" فيؤلف بينها تأليفا حسنا، مسبغا عليها من مشاعره وعواطفه ما يزيدها تأثيرا ووضوحا. ومما قاله:

هو البحر آياته البينات ... تجلى بها واعظات العبر
ففي بعد أغواره عالم ... تحير فيه مجال الفكر
عميق الوهاد سحيق العماد ... بكل عجيب غريب زخر
فأين روائع بر الوجود ... وأين بدائع دنيا البشر
وأين عجائب ما أبصرته ... النواظر مما اختفى واغتمر
غرائب لا يدرك الوصف أدنى ... مداها وليس لها منحصر
فمنه تدفق نبع الحياة ... وفيه انطوى سرها واستتر
ولولا تصاعد أنفاسه ... لما أغزر الغيم د مع المطر
ولا ازدانت الأرض بالباسمات ... من الزهر فوق بساط نضر "1"

1- تبارك الرحمن ص 75- 78 .

وعما في البحر من نعم وخيرات يقول :

وسخّرته نعمة للأنـــام — مع النعم الباهرات الأخـر
وأطعمتنا منه لحما طريا — والبستنا منه حلي الدرر
فكان على كل ثغر ثنـاء — وتسبيح كل فؤاد شكــر "1"

في الابيات الاخيرة يتضح مدى تأثر الشاعر بالقرآن الكريم وتكاد هذه الابيات أن تكون صياغة شعرية للآية الكريمة : " وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها" "2"

ومع أن تأثر الشاعر بالقرآن واضح لا لبس فيه ، الا أن عواطف الشاعر وأحاسيسه تتجسم بوضوح في قصائده ، وهذا ما يجعل من شعر البحيري الديني لوحات فنية تفيض بالحيوية ، وهذا على عكس ما نراه من بعض الاشعار الدينية التي هي الى النظم أقرب منها الى الشعر لأنها تقتصر على المواعظ والارشادات وسرد الحوادث دون أن يربطها وجدان ونفس شعري .

ويتحدث الشاعر عن الأرض التي يراها الانسان هامدة جامدة حتى اذا اصابها المطر دبت فيها الحياة فتزملت بالبسط الخضراء وتفتحت في أرجائها شرق الأزهار فأصبحت لوحة فنية تفيض جمالا وحسنا ويستوحي الشاعر من ذلك كله قصيدة" الأرض" حيث يقول :

1- تبارك الرحمن ص 89-90 .
2- الآية 14 من سورة النحل .

يا آية في الأرض غيب سرها … ما غيبت في بطنها أرحامها
أعيت أمام جلالها فكر النهى … وصفا وقصر في البيان كلامها
بينا ترى يبسا هوامد وجهها … جفت نضارتها وغاض جمامها
حتى ترى بعد الموات تحركت … بالبعث من وهد الرجام رمامها
فاذا همت جودا سواكب مزنها … وجرى برجاف البحور غمامها
دبت بأعراق التراب حياتها … فافتر عن دفق العطاء رغامها
وتفتحت مهج الثرى عن نبضها … فانشق عن نبض الحياة لثامها
وتجلت الدنيا بفرحة عرسها … وازينت بربيعها أيامها
هذي الربى اهتزت سواكن ميتها … وربت نماء واكتست آجامها
وتزلت بجمالها وتدثرت … بجلالها وشدا لها رنامها
صور وشاد الأرض أشوق زهرها … فيها وعطرت الندى أكمامها
وتكللت بالنور هام هضابها … وتوشحت بسحابها أعلامها
يا للروائع أبدعتها ريشة … ينزاح بالحسن اليتيم نظامها
ما كان رسام ليبلغ بعض ما … بلغته من أسر الكمال وسامها "1"

وينتهي الشاعر الى الهدف الذي يريد الوصول اليه وهو تمجيد الله - عز وجل - حيث يقول :

فتباركت وتقدست أسماؤه … وعلا وجل بصنعه رسامها "2"

في قصيدة "الأرض" السابقة يتضح مدى استخدام البحيري لكلمات القرآن

1- تبارك الرحمن ص33 - 38 .
2- تبارك الرحمن ص 38 .

ومضامينه . ولبيان ذلك أورد بعض الآيات الكريمة التي تجلي هذه الحقيقة بوضوح . يقول تعالى : " ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة ان الله لطيف خبير" "1" ويقول تعالى : " وترى الأرض هامدة فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج " "2" ويقول : " وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون ، وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب ، وفجرنا فيها من العيون ، ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم ، أفلا يشكرون " "3" .

وأختتم هذا الفصل بقصيدة " النجوم" التي أراد الشاعر من خلالها أن يبرهن على قدرة الله شأنه في ذلك ما قصد اليه في القصائد السابقة . انه يصف النجوم التي صُفّت باحكام ، تدور بنظام عجيب لا يختل منذ ملايين السنين . ويتساءل الشاعر من أين جاءت ؟ والى أين تمضي ؟ ومن أي المصادر تستمد ضياءها ؟ وكيف استقرت في مدارها هذا فلم تتصادم مع بعضها على الرغم من الالاف المؤلفة منها . ؟ ويبدأ الشاعر قصيدته بمناجاة الله عز وجل مناجاة تنم عن ايمان عميق به واقرار بقدرته التي شملت كل شيء . يقول :

الهي يامن برأت البرايا ويامن شددت قوى أسرها
رفعت السماء ونورتها بسحر التبسم في فجرها
ووشحت آفاقها في الغروب بما رشّت الشمس من تبرها

1- الآية 63 من سورة الحج .
2- الآية 5 من سورة الحج .
3- الآيات 33- 34- 35 من سورة يس .

ورصعت مراتبها في الليالي   بوهج الحلي على صدرها
وقدرت فيها مدار نجوم   تجل وتعظم عن حصرها
وأعيا الخيالَ انبهارا بها   وقد راح يبحث عن سرها "1"

ويطرح الشاعر أسئلة يعلم مسبقا أن جوابها عند الله ،
وقد قصد من ذلك الى بيان قدرة الله الذي تتلاشى أمامه عظمة العظماء .

فمن أين جاءت وأين ستمضي   وكيف ترى منتهى أمرها
وأني خبا بعضها جذوة   وأنى اضاء سنى زهرها
وكيف استقرت بهذا المدار   ولم تتصادم على وفرها
فما كان فيها ولا ينبغي   على ما تقادم من دهرها
ايلحق في بعد أفلاكها   مدى شمسها بمدى بدرها
ولا ليلها سابق صبحها   وكل سوابح في بهرها

ويعود الشاعر . الى مناجاة الله معترفا بعجز الفكر
عن ادراك أسرار النجوم . يقول :

فيا ناثرا في الفضاء النجوم   وأثقل بها فيه مع كثرها
هديت الحيارى بها في عبوس   دجى بحرها ودجى برها
فكانت مصابيح هدى تنور   على سَفْرها وعلى حَضَرها
وكانت بابداعها آيـة   يضل مدى الوصف عن أزرها
وفيض معين الخيال يجف   أمام جلال علا قدرها

1-2- تبارك الرحمن ص 109 - 118 .

ويقصر عنها مجال العقـــول   على ما تموج من بحـر

فقـد عجز الفكر عن سرهـــا   كما عجز النطق عن شكرهـــا "1"

ان كل ما في الكون ناطق بعظمة الله و قدرته فاينما اتجـــه الانسان ببصره يجد قـدرة الله ماثلة أمام عينيـه و ما على الجاحديـن الكافرين الا أن ينظروا بين أيديهم ليروا قدرة الله وعظمتـــه . ان الشاعر يستغرب أشد الاستغراب من أولئك الذين لا يعتبـرون بخلـق اللـه ، مع أن آيـات الله تغـرهم غمـرا . و قد عبـر البحيري عن استغرابه هذا في مقطوعتـه " الريـح " حيث يقـول :

يا مجري الريح في الآفاق واسعـة   لا تدرك الشمس في أبعادها القمرا

اني لأعجب من طـرف يرى عجبـا   من الرياح اقصن الكم والزهـــرا

وأنت ترسلها هوجاء عاصفـــة   طورا وطورا نسيما عاطرا عطــــرا

أنى يظل وراء الغي منـــــدرا   ولا يبيت بما أبدعت معتبــــــرا "2"

وهكذا نرى البحيري يستلهم الآيات الدالة على عظمة الله و قدرته ناهجا منهج الاقناع . وتصاغ الادلة في سياق شعري تظهر فيـــه بوضوح تجربة الشاعر وعاطفتـه المفعمـة بالايمان . وهذا ما جعـل البحيري علما بارزا في هذا المجـــال .

1- تبارك الرحمن ص 120 -122 .

2- تبارك الرحمن ص 131-132 .

الباب الثالث

دراسة فنية

الفصل الأول

منهج البحيري في شعره

لايستطيع الدارس أن يضع يده على اسلوب وحيد البحيري ، كما لا يستطيع أن يضع البحيري في مدرسة أدبية معينة بحيث نضبط له ميزانا لا يخرج عنه . والسبب في ذلك أن اسلوبه في شعر الطبيعة والحب والشعر الديني يختلف بشكل عام عن اسلوبه في الشعر الوطني والقومي .

ولا ابالغ عندما اقول : ان البحيري ينتمي الى مدرستين في وقت واحد ، ففي الوقت الذي يتجه في شعر الحب والطبيعة والشعر الديني اتجاها رومانسيا ، نراه يتجه في الشعر الوطني والقومي اتجاها اتباعيا (كلاسيكيا) . ومع انى لا أدعي أن هذا حكم قاطع مانع الا أنني أستطيع القول : ان هذا الحكم هو الغالب على شعر البحيري . وقد لا يصح على بعض القصائد هنا وهنالك ، الا أن هذا الحكم بشكل عام صحيح الى

حد كبير .

ومما يلفت الانتباه أن هذا الاتجاه الفني المزدوج عند البحيري موجود منذ البداية، وقد اطلعت على مخطوط " أحلام البحيرة" وهو من الشعر المنثور ، وقد كتبه في الاربعينات . وهذا المخطوط لا يعنيني في الدراسة ولكني استشهد به للتعرف على مجالات الاجواء الرومانسية التي يحلق في سماواتها ، وهذه الاجواء الرومانسية هي نفسها الاجواء التي تخيم على الشاعر في معظم قصائد الحب وكل قصائد الطبيعة ، وغالبية قصائد الشعر الديني . انه في ديوان "احلام البحيرة" ينطلق من ذاتية محضة وتنعكس ذاته على مشاهد الطبيعة التي يراها تشترك معه في احتفال بهيج فرحابه وبحبيبته التي يطوف معها حول " بحيرة الجليل" يقول : "1"

أيتها الحبيبة

أرأيت الى هذا الربيع
الطلق الموشى ؟
أرأيت الى هذا الزهر
الراقص الباسم ؟
انهما ماخلقا الا ليكونا اطارا يحتضن حبنا
فيكلله بالسحر
ويجلله بالجمال
ويحفه بموكب رائع من عرس الألوان
أصغي الى هذا النسيم
الساري بين الأغصان
مثقلا
بالاريج والاعطار

1- راعيت في كتابة هذا النص الطريقة التي كتب بها في الديوان المخطوط .

انه يغني لتنام عيون الدهر عنا
فنغتنم ساعات الهوى .. والشباب
ونشرب كؤوس الغرام
مترعات
بالصفو والسعادة
في غفلة من صروف الزمان
وفي غفوة الزمان الجبار
اسمعي الى تلك الطيور
انها تنقل عنا فنون الغزل
الحلو البريء
الى عذبات الدوح
انسقيها بعض ما شربنا من نشوة الهيام
والا .
ثم انتشت هذه العذبات
فماست
وتأودت،
والهواء
باق حتى اليوم
على ما كان عليه
من الطلاقة
والصفاء
والرقة
كأن الطبيعة أرادت أن تحتفظ
بكل ما كان في اليوم الأول
يوم طفنا بالبحيرة
كما يطوف الحجيج
حول البيت الحرام

اتبقى على دوحه المنى
طيرها
وزهرها

ان الذي يهمني من مخطوط " احلام البحيرة" هذه الرومانسية الطاغية التي سيطرت على الشاعر، وهو يحدثنا عن أجمل الساعات التي قضاها مع حبيبته على ضفاف بحيرة " طبريا". وما أشبه شاعرنا بالشاعر الرومانسي " لا مارتين" الذي وقف على ضفاف بحيرة " بورجيه" يناجي البحيرة والصخور والاشجار التي شهدت ليلة الحب التي قضاها مع حبيبته، أن تصون في ذاكرتها الابدية هذه الليلة .. يقول :

أيتها البحيرة والصخور الصماء والكهوف والغابة المظلمة
أناديك أنت التي أغضى عنها الزمن وخلع عليها الشباب مرة أخرى
احفظي تلك الليلة ، واتعبيها أيتها الطبيعة الجميلة
أوعلى الأقل : احفظي ذكراها
احفظيها كلما أنّت الريح واليراع الزافر
والشذى الخفيف الذي يحمله هواؤك العاطر
مري كل شيء تراه العين أو تسمعه الاذن أو يتنفسه الأنف
مريها جميعا أن تقول : انهما كانا حبيبين . "1"

بهذا النفس الرومانسي عبر البحيري عن حبه وتعلقه بالطبيعة، وبالرومانسية صاغ معظم شعره الديني . ومن

1- النقد التطبيقي والموازنات ـ د . محمد الصادق عفيفي ـ مكتبة الوحدة العربية ـ الدار البيضاء ـ سنة 1972م ص 283- 284 .
انظر كذلك حيفا والبحيري ص 107- 108 .

خلال دراستي لديوان "الأصائل والأسحار" رأيت شاعرنا يتحدث عن حبيبته، عن فرحه معها، وحزنه لفراقها. وتتجلى ذاتية البحيري في هذا الديوان الى حد بعيد فنراه سعيدا حينا وبائسا حينا آخر بسعده لقاؤه بحبيبته، وينسى في غمره الحب الطاغي تعاسة الحياة وشقاءها. وما أن يفيق شاعرنا من سكرة حبه حتى يصطدم بالواقع المرير الذي يضع العراقيل بينه وبين حبيبته، فاذا بجمال الحياة يتحول الى نكد وبؤس، واذا به يذوب ألما وحزنا. واذا كان الشعراء الرومانسيون في الغالب يلجأون الى الطبيعة التخفيف عما بهم من ضيق، فان بيت البحيري قائم على سفح جبل الكرمل، والطبيعة الخلابة لهذا الجبل تغمره غمرا.

إنه نما وشب في رحاب الطبيعة بحيث صارت جزءا منه وصار هو جزءا منها، يعبر عن نفسه بأدوات الطبيعة من أشجار وأزهار وصخور ورمال وسماء وطيور ونجوم وشمس وقمر. وقد ملكت عليه الطبيعة أحاسيسه بحيث سيطرت على معجمه الشعري. وقد ولد البحيري وشب مع الهم والحزن والشقاء وابتعد عنه الاصدقاء، "فحاول أن يستعيض مما افتقده عند الانسان بانداماجه المطلق في كينونة الوجود كله، مأخوذاً بروعة الطبيعة، مشدوها بجمالها وبهجتها وسخائها ..ان انها مثل معاناته ..انها الشيء المضيء في نفسه التي غبشها اليتم بسواده" "1".

1- حيفا والبحيري ص 91 .

والبحيري في كثير من قصائد شعر الحب وكثير من شعر الطبيعة يطلق العنان لنفسه، يحررها من كثير من قيود الشعر فلا يتقيد بالقافية الواحدة . بل أن القصيدة الواحدة تحتوي على عدد من القوافي يختارها البحيري لتعبر عن الحالة النفسية التي يعيشها . انه يغير في عدد التفعيلات بما يتفق مع السياق الذي يرتئيه ، وقصيدته "الموعود" مثل من أمثلة كثيرة على ذلك ، وفيها يقول :

لمع الكوكب في تاج الليالي واستوى البدر على عرش الجمال

وجرى النهر هياما

فشدا الموج غراما

همس سحر وفتون بين أعطاف الغصون

بث أشواق السنين

وسلا الحب في ضوء القمر مضجع ترعاه أحداق الزهر

فدعا العشاق دوح

كله شكوى وبوح

ظله ليل وفجر طله ماس ودر

ماؤه خمر وعطر

أي ليل كالاماني الحالمات عطرته زفرات النسمات

سعد الاحباب فيه

كال صب بأخيه

نتشاكوا بالغزل وبرنات القبل

بين أحضان الأمل "1"

ان البحيري غارق في رومانسيته ، قد جعل الطبيعة تترجم أحاسيسه ومشاعره ، وقد نقلت الصور التي أوردها تجربته الذاتية التي عاشها .

والمتتبع لقصائده يلاحظ مدى سيطرة الطبيعة عليه،فهي مادة تعبيره في حبه ومادة تعبيره عندما يهيم بالطبيعة وجمالها ، بل انها مادة تعبيره عندما يتأمل في خلق السماوات والأرض . وهذا ماحدا بالدكتور واصف ابو الشباب الى القول : " والشاعران حسن البحيري وفدوى طوقان التزما في اختيار مادة صورهما الجزئية من الطبيعة ، وسيطر على صور البحيري جو التفاؤل ؛ وقد اقتصرت صوره على وصف الطبيعة واستمر يدور في فلكها لا يخرج عنه الا نادرا " 2"

ومن القصائد التي تعتبر نموذجا رائعا لرومانسية الشاعر وتعلقه بالطبيعة قصيدته " زورق الاحلام " وقد قدم لها بمايلي : " الجمعة 14 رجب 1362 هـ ليلة تمام البدر ،ركبنا عند الأصيل زورقا من زوارق الاحلام هام بنا في مياه بحيرة الجليل . ولقد أنزل

1- أفراح الربيع،ص 44-45 .

2- شخصية الفلسطيني في الشعر الفلسطيني المعاصر . واصف ابو الشباب دار العودة- بيروت ط1 - عام 1981م ص 156-157 .

صديقي الموسيقي الفنان الاستاذ " صدقي شكري " مزهره معه وأخذ يعزف لنا أنغاما شجية ساحرة حملت أرواحنا الى آفاق أحلامها .

وغابت الشمس عن يوم صفو كان يعد بحق من أيام الحياة .

وطلع القمر من آفاقه البنفسجية فعبد للزورق الهائم طريقا من التبر شق بها وجه البحيرة من أقصاه الى أدناه ، ولمعت زهر النجوم على تعاريج الماء اللاهية فكانت كأنها غلائل عرائس الخيال السابرية الهفافة الموشعة بالزهر الذهب ، داعبتها أنسام الربيع العاطرة المعطرة " "1" وفي هذه القصيدة يقول :

يازورق الأحلام في يمّه يجري

مادت به الانسام نوّاحة العطر

وسكر الأنغام من مزهر سحري

مال كالسنى السكران على امسى النهر

أو رقصة الأغصان لنغية الطير

+ + +

دنيا من العطر مسكيّة الأنسام

منقوشة الزهر بريشة الأحلام

صدّاحة الطير بأعذب الأنغام

وسكر صهباء من عالم الأوهام

أنت على الماء يازورق الأحلام

+ + +

1- أفراح الربيع ص 13 .

غنى لك الموج ترنيمة الدهر
وعبّد الوهج دربا من التبر
شق بها مرج مفوف الزهر
وأشرق النجم بنوره الدري
كأنه الحلم في يقظة الفجر "1"

ويذهب بعض النقاد الى أن البحيري " امتداد الجماعة
" أبولو" وللاتجاه الرومانسي في الشعر بصورة عامة" "2"
وليست الرومانسية عند البحيري استغراقا في الطبيعة والجمال
وانعزالا عن الحياة ،فهو الشاعر الذي يرى جمال الطبيعة في بلاده
من خلال حسه الوطني . فرومانسية البحيري خاصة دمة لالتزامه بقضايا
شعبه وأمته وليست انكفاء وبعدا . ومما يوضح هذه الرومانسية
الملتزمة ما ورد في اهدائه لديوان " الانهر الظمأى" حيث يقول :
" الى أول حمامة سلام بيضاء ستعبر سماء بلادي الزرقاء تحثها
لهفة الشوق ويدفعها نبض الحنين،الى الأرض المقدسة التي بارك
الله تعالى فيها لتعود فتدف على مآذن مساجدها المطهرة ،وتدف
فوق أبراج كنائسها المنورة،تدوّم تارة وتحط أخرى عليها،وعلى
شوامخ قبابها معيدة بناء وكون أمنها وأعشاش زغاليلها
في شاكيها ونوافذها وشبابيكها الأليهة النور، وترجع

1- أفراح الربيع ص 13-15 .

2- مجلة الطلائع دمشق - العدد 165 سبتمبر 1973م.

فتحضن على بيضها وتزغل فراخها في كوى المسجد الأقصى المبارك، وكوى كنيسة القيامة المقدسة، أطهر أثرين نورانيين في بلادي الحبيبة السليبة، فلسطين العروبة أرض الرسالات والمرسلين أرض الأقداس والقديسين، أرض الفداء والاستشهاد، أرض الأبرار والأخيار والأطهار "1" وهو يهدي ديوانه " ظلال الجمال" الى مدينته الحبيبة حيفا حيث يقول إلى حيفا: مدينتي الحبيبة، مدينة الظلال والجمال والخيال. مدينة الشعراء والسحر والفتون، مدينة الحساسين والشحارير والبلابل والهداهد والوراور والحجل. مدينة الحناء والعطرة " والفتنة " و" الغريب" والفل والقرنفل والزنبق والياسمين.. الى حيفا مدينتي الحبيبة السابية بفتن جمالها: شمسها المشرقة.. وبحرها الصافي اللاجي الأزرق.. وشواطئها الناعمة البيضاء والرمال.. وسهولها المائجة ببحور الخضرة.. وخمائلها المفروشة ببسط السندس والاستبرق.. "2" كما أهدى البحيري ديوانه " الأنهر الظمأى " إلى حمامة السلام، فقد أهدى قبل ذلك بأربعين عاما ديوانه " أفراح الربيع" "الى الطيور التي اتخذت لها أوكاراً من أغصان شجر السرو والقائم في وصيد المسجد الأقصى" "3"

ان هذه النماذج من الاهداء تبين الى أي مدى كانت رومانسية الشاعر منضوية تحت راية الوطن. وكل من يقرأ

1- الانهر الظمأى ص 12 .

2- ظلال الجمال ص 14-15 . 3- أفراح الربيع ص 9 .

شعر البحيري يخرج بهذه النتيجة .وقد علق الدكتور حسني محمود على إهداء ديوان " أفراح الربيع" بقوله : " مغزى هذا الاهداء بالذات يكشف لنا بوضوح عن تلك البذور الوطنية .. في روح الشاعر الرومانتيكية " . "1"

فالبحيري لا يغني جمال الطبيعة الفتان ارضاء لشغفه بهذا الجمال فقط ،فهو يغني هذا الجمال من أجل الوطن،فبميزان الوطن وحده تقاس أجمل الاشياء،ويتضح هذا الميزان جليا في قول البحيري :

أرى الورد عزا في الزهور ولا أرى

أعز من النامي بتربة أوطاني "2"

وهذا ما حدا بالشاعر هارون هاشم رشيد إلى القول : " اذا كانت الرومانسية بكل ما فيها من جنوح السمو والتحليق قد أثّرت الادب العالمي بعدد من الشعراء والفنانين فان البحيري في طليعة رومانسيي الشعراء العرب،فقد صدرت رومانسيته في بوتقة وطنية فجاءت تربة موفورة العطاء تعبر عن وجدان أمته" "3"

إن رومانسية الشاعر تطغى على شعره الديني كذلك،فاذا معظم هذا الشعر عند البحيري لوحات رائعة من الطبيعة يوظفها خدمة

1- مجلة شؤون فلسطينية العدد 125 ابريل 1982م - بيروت -

2- الانهر الظماء ص 150 .

3- حيفا في سواد العيون ص 35 .

الهدف الذي يريده . انه يحيي ذكر المولد النبوي الشريف بطريقة رومانسية لم نألفها عند الشعراء الآخرين . يقول في هذه الذكرى التي حلت في فصل الربيع :

ضحك النرجس عن ثغر ندى

وسرت بالعطر أرواح الصبا

وتثنى كل غصن أملد

مائسا فوق الاقاحي لعبا

\+ + +

وامن زهر الربيع الطلق نور

وسقى الأيام كاسات العطور

نشوة الفرحة هزته فأزهر

ثم حيا مولد الهادي البشير

\+ + +

هو عيد النور في عيد الزهور

سكرت فيه المنى من طرب

لبس الكون به ثوب الحبور

ثم حيا مولد الهادي النبي "1"

وبطريقة رومانسية كذلك يقول قصيدته " صباح العيد " التي نظمها صبيحة عيد الفطر في الأول من شوال سنة 1362 هـ ، بين عزف موسيقا الرواد وقصف مدافع العيد وهتاف الجماهير تكبيراً وتهليلاً"2" يقول :

1- أفراح الربيع ص 18 - 21 .

2- أفراح الربيع ص 22 .

نبه المدفع أفراح الزمان ... عندما دوى باعلان الصباح

وهفا العيد يصفو وأمان ... فهو بشر وانتشاء ومراح

بشريات من عطور

وأغاريد سرور

وأراقيص حبور

حركت قلب الليالي

الاساطير الخوالي

فارتدى ثوب الجمال

وبشير السعد غنى بالمنى ... نغما رجعت الدنيا صداه

والندى أسكره رقص السنى ... فوق خد الورد يستاف شذاه

لثمة الزهر اللعوب

لظى النبع الطروب

بين انفاس الطيوب

هاجت الطير فحنا

لأمانيه فغنى

فوق غصن يتثنى "1"

وهكذا نرى أن الطابع الرومانسي هو الغالب على شعر الحب والطبيعة والشعر الديني . وقد حدا ذلك بالدكتور واصف ابو الشباب الى القول :

1- أفراح الربيع ص 22-23 .

" مع نهاية النصف الأول من القرن العشرين ،اكتملت الخطوط العامة للرومانسية العربية والتي حاول معظم شعراء العربية السير في خطها ومن بينهم بعض الشعراء الفلسطينيين ،وفي طليعتهم فدوى طوقان وحسن البحيري "."1"

ومن اللافت للنظر أن هذه الرومانسية عند البحيري يوازيها اتجاه كلاسيكي ،بحيث يخيل الدارس وهو يقرأ قصائده الكلاسيكية ، كأنه يقرأ لشاعر قديم. ها هو يقول في قصيدته" ياسوريا الحبيبة" :

ربابك سوريا الحبيبة درّة بتاج العلى عزّت على كل ثاقب
فأنت لنا من شامخ شارف السها الى صاحب من تحته مَور صاخب
الى سارب نِقْس المعالي نميره يخط بسفر الخلد آي العجائب
أدلّة مجد تنبيء الدهر أننا لسورية الكبرى دروع النوائب
فنحن على الأهوال في كل ظلمة فلقنا لها فجر السنى بالقواضب
ونحن من الأرواح سالت على القنا نسجنا لها أبهى برود الشبائب
ألسنا على ما فرق الدهر بيننا بما هو أضحى من غروب المضارب
سلالة أمجاد مشت في ركابهم نجوم السماء الزُّهْر مشي الجنائب
وعترة دين ضاء بالحق والهدى مسالك دهر مد لهم المسارب "2"

إن المعجم الشعري في قصائد الشاعر الكلاسيكية مستمد

1- شخصية الفلسطيني في الشعر الفلسطيني المعاصر ص 125 .
2- ابتسام الضحى ص 64-66 .

من التراث . ويعود هذا الاطلاع البحيري الدائم على عيون الأدب العربي القديم ،كما أنه ذو محافظة جيدة وعت الكثير الكثير من قصائد القدماء" وكانت هذه المحافظة تدعمها مواهبه الفنية وأذنه الموسيقية المرهفة وحساسيته الحادة ، عدته في اخصاب نفسه واغناء ثقافته التراثية مما أصل لغته وأثرى معجمه" "1"

ان البحيري في كثير من قصائده الكلاسيكية يسير على درب معبد سار عليه مئات من الشعراء القدامى . وهو لايكلف نفسه أحيانا تغيير الألفاظ والتعابير التي درج القدماء على استعمالها . فنحن في عصر البنادق الآلية والدبابات والصواريخ ، ومع هذا يحرص -كما لاحظنا في قصيدة يا سوريا الحبيبة - على ذكر القواضب والقنا ، وغروب المضارب مستعملا تعابير القدماء : درة عزت على كل ثاقب،تاج العلى ، شنامخ شارف السها ، نفس المعالي نميره ، د روع النوائب ،نسجنا برود الشبائب ،مشت في ركابهم مشي الجنائب .

إنه لا مجال لتفسير ذلك الا رغبة الشاعر في أن يقول كما قال الأوائل ،حبا منه للتراث وتأثراً به . وهذا ما حدا بالدكتور واصف أبو الشباب إلى القول : إن" الشاعر حسن البحيري انبرى يتحدث عن الفلسطيني بأسلوب تشعر عندما تقرأوه كأنك تقرأ لشاعر في العصر الاموي أو العباسي" "2"

1- مجلة شوؤن فلسطينية العدد 125 .

2- شخصية الفلسطيني في الشعر الفلسطيني المعاصر ص 19 .

وزيادة على ذلك فان للبحيري قصائد ينهج فيها نهج الأقدمين شكلا ومضمونا ومن ذلك قصيدته الفاروقية التي لا يبدأ فيها بمدح الملك فاروق الا بعد مقدمة يتحدث فيها عما يعانيه من ضيق وألم نتيجة بعد الأحباب عنه . يقول :

كفاني ما اكابده كفاني   حملت من الصبابة ما براني
فجسمي من أسى الايام ذاو   وقلبي من نوى الأحباب عان
اذا نادى الجوى بالدمع لبى   وان صبرته فيه عصاني
فيا من طال نأيهمو وطالت   انأيهمو شجون هوى عناني
أيجمعنا الزمان على التصافي   وتسعدنا الليالي بالتداني
وينظمنا من القربى وشيج   بمآصرة الهوى الداني المجاني "1"

وانه لغريب حقاً أن يذهب البحيري في تقليده الى هذا الحد . فما علاقة الملك فاروق به وبحبيبته ؟، ثم ما العلاقة بين المقدمة والموضوع ؟ . إني واثق أن الشاعر يعرف أنه لا علاقة على الاطلاق ، ولكن حب مجاراة الأقدمين من فحول الشعراء دفعه الى ذلك .

إن مقدمة كهذه تذكرنا بلامية كعب بن زهير في مدح الرسول عندما بدأها بالحديث عن حبيبته سعاد ، وما يلاقيه في حبها . وهذا النهج سار عليه عدد من الشعراء الاتباعيين في العصر الحديث

1- ابتسام الضحى ص 19-20 .

وفي طليعتهم شوقي ، وقصيدته " نهج البردة" مثل على ذلك . ويكفي أن يكون عنوان القصيدة نهج البردة لنعرف أن طبيعة التقليد هي الغالبة على هذه القصيدة . ويخلص البحيري من مقدمته إلى مدح الملك فيقول :

عزيز النيل قد ملكت قلبي ... وبعض قصيده السبع المثاني
فما طافت مناي بأي عرش ... سوى أنت فيه على القنان
ولا اسلكت غيرك في نظيم ... تمناه السها والفرقدان
ولو لم تفد طوداً مشمخراً ... يفيء اظلاله ظل الأمان
لما يممت شطر علاك وجهي ... ولا مكنت حبك من جناني "1"

والملاحظ أن شاعرنا يفخر بنفسه وهو يمدح الملك ، ويذكرنا هذا بالمتنبي الذي كان يفخر بنفسه وهو يمدح سيف الدولة الحمداني. وعندما يمدح البحيري الملك يمدحه بطريقة تقليدية اعتدنا على سماعها من الشعراء القدامى .

فكفك من سنى العلياء حالت ... برودا يكتسيها النيران
ونيلك من نوالك فاض جودا ... بمصرك فارتوت منه المغاني
وزاد فأغرق الدنيا بسيب ... تحدث عن حياه الشعريان "2"

وبعد أن علق الشاعر آماله على الملك ، بتوحيد شمل الأمة وتحقيق آمالها ، عاد يفخر بشعره على طريقة المتنبي .

1- ابتسام الضحى ص21 .

2- ابتسام الضحى ص21-22 .

وشعري من طوايا النفس نبع — تسلسل فيه أبكار المعاني
قلائده على جيد الليالي — فرائدمالها في الدهر ثاني
إذا ناديته لبّى ندائي — وكان بكل فن ترجماني
وكم جاء الكواكب في ذراها — فنظمها عقودا في بناني "1"

ولا يقف نهج البحيري الكلاسيكي عند هذا الحد فهو يمضي في معارضة الشعراء القدامى، فقد جاء في مقدمة مقطوعة "تحية" : " قام الشاعر في أوائل ربيع 1941م مع بعض أصدقائه بنزهة في جنة غيناء على ضفاف بحيرة طبريا وكانت السماء مصحية واليوم معتدلا . وهي معارضة للأبيات :

حيتك عنا شمال طاف طائفها — بجنة نفحت روحا وريحانا
هبت سحيرا فناجى الغصن صاحبه — موسوسا وتداعى الطير اعلانا
وُرْق تغني على خضر مهدلة — تسمو بها وتمس الأرض أحيانا
تخال طائرها نشوان من طرب — والغصن من هزه عطفيه نشوانا "2"

والأبيات معروفة وهي للشاعر العباسي ابن الرومي، وقد ذكر البحيري ذلك في المقدمة . وهو يعارض هذه الأبيات بمقطوعة يقول فيها :

حيتك عني أنفاس معطرة — ندية نفحت روحا وريحانا

1- ابتسام الضحى ص 26 .
2- الاصائل والاسحار ص 74 .

مرت على الروض بين الزهر خاطرة   فنبهت نرجسا في الروض وسنانا
وغازلت سوسنا ناجت مباسمة   ماء وعشبا واكماما واغصانا
وزنبقا هو أحلام المنى رقة   يميس تحت ظلال الدوح نشوانا "1"

ويمضي البحيري في معارضته متأثرا بقصيدة ابن الرومي وايحاءاتها .

وتبدو المعارضة واضحة كذلك - وان لم يصرح بها الشاعر - في قصيدته " المجد المضاع " ، حيث ينحو منحى البحتري وشوقي في سينيتيهما ، ويظهر ذلك واضحا في قوله :

هاج دمع الوليد إيوان كسرى   (في محل من آل ساسان درس)
وشفى أحمد القوافي جواه   بين أيدي الآطام من عبد شمس
وأراني أبكي لمجد مضاع   بدموع ذوبن قلبي ونفسي "2"

ويعلق الدكتور عبد الرحمن ياغي على هذه القصيدة ومثيلاتها من القصائد عند الشعراء الفلسطينيين بقوله : " تحس في هذه الأشكال الشعرية أنفاس الاندلس . وهو أمر دفعهم اليه حزنهم وتوقعهم نزول الكارثة فأخذت هواجسهم تمثل اهم اشباح الضياع والمجد المفقود ، فعادوا بنفوسهم الى الأندلس ، وتمثلوا فيها الكارثة قبل وقوعها :

خطرات منها تصدع نفسي   ضاع صبري بها وبان التأسي

1- الاصائل والاسحار ص 74-75 .
2- الاصائل والاسحار ص 94 .

ويمضي حسن البحيري في هذه الديباجة الشوقية البحترية حتى يبلغ الثمانية والخمسين من الأبيات يصف فيها المجد الضائع في فلالة من الحزن الفاجع "1"

واذا كان البحتري قد وقف على ايوان كسرى ووقف شوقي على آثار العرب في الأندلس فان البحيري يتمثل مجد الأمة وحضارتها من خلال التاريخ، وهو يأسى لمجد أمته الضائع . ومع أن أسلوب البحيري قوي ومتين الا أن المقدمة التي قدم بها لقصيدته غير موفقة وهي مقدمة لا أرى سببا لوجودها سوى التقليد، حيث أنها لا ترتبط بجوهر الهدف الذي صاغ القصيدة من أجله . اذ ما علاقة مجد الأمة الضائع بما يعانيه الشاعر من هجر الحبيبة له .

ان مقدمة كهذه لا تتناسب مع جلال الموضوع الذي تعرض له في قصيدته . ومع أن البحيري سار على نهج البحتري وشوقي في الاتيان بمقدمة ، الا أن مقدمة البحيري تختلف عن مقدمة البحتري الذي قدم لقصيدته بعرض لحالته النفسية بعد مقتل المتوكل، واتخذ من ايوان كسرى عظة تخفف آلامه التي تسبب فيها مقتل الخليفة العباسي . كما أن شوقي تعرض في مقدمته للظروف الصعبة التي يمر بها نتيجة النفي عن أرض الوطن الذي يتحكم فيه الغرباء . وأرى أن مقدمة البحتري ومقدمة شوقي كانتا متفقتين مع اطار الغرض العام للقصيدتين ، أما مقدمة البحيري فلم تكن موفقة كما ينبغي .

1- حياة الادب الفلسطيني الحديث من أول النهضة حتى النكبة ص 304-305 .

وليست سينية البحيري هي القصيدة الوحيدة التي نحس فيها أنفاس الأندلس . فللبحيري قصيدة نونية بعنوان " فلسطين" نحس فيها أنفاس الاندلس بوضوح بل أكاد أجزم أن البحيري سار في هذه القصيدة على نمط نونية أبي البقاء الرندي . ودليلي على ذلك الشبه الواضح بين القصيدتين في الوزن والقافية كما أن الشبه واضح في جزء من المضمون . يقول البحيري في نكبة فلسطين :

ريع المكبر واهتزت مزلزلة من المنارة أفناء وأركان
" والجرمق" ارتعدت أثباجه وهوت من" حيدر" قمم وانهد" كنعان" "1"

وما أشبه هذا بقول أبي البقاء الرندي في نكبة الأندلس .

دهى الجزيرة أمر لا عزاء له هوى له"أحد" وانهد" شهلان"

ومن المقطوعات التي تكشف عن تقليد صارخ مقطوعته في رثاء الشهيد أحمد فارس . ومع أن الشاعر في هذه المقطوعة يرثي بطريقة تقليدية ، حيث يقول :

يا قبر لو تدري الذي واريته لخشعت البطل الكمي الأروع
هذا الذي خاض المعارك باسلا كالليث لم يجزع ولم يتضعضع "2"

إلا أن الذي يعنيني من هذه المقطوعة قوله في البيت الأخير :

وأتيت ألظم بالجوى تاريخه وإذ القوافي قد دمعن له معي "3"

1- الانهر الظمأى ص 98-99 .
2- الاصائل والأسحار ص 64-65 .
3- الاصائل والأسحار ص 65 .

ان عجز هذا البيت، اذا جمعت حروفه وفق الطريقة الحسابية التي تجعل لكل حرف من الحروف الابجدية (أ ، ب ، ج ، د ، هـ، و، ز . . الخ) رقما حسابيا ، فان المجموع يساوي الرقم 1358 ، وهي السنة الهجرية التي توفي فيها الشهيد . "1"

ان التكلف واضح من غير شك ، والتقليد ظاهر في هذا النوع من الشعر الذي ساد في عصر الضعف . ومع أن هذه المقطوعة هي الوحيدة التي يؤرخ بها البحيري ، الا أنها وحدها تكفي دليلا على ميل الشاعر للتقليد في بعض الأحيان .

ويعمد البحيري أحيانا الى التضمين عندما يكون واثقا بأن تضمين بيت من الأبيات لشاعر من الشعراء سيزيد قصيدته وضوحا . ومن ناحية أخرى فان هذا التضمين ينقل القاريء الى تمثل حالة مشابهة قال فيها الأقدمون قولا لا يختلف في جوهره عما يرمي اليه البحيري . وعلى هذا فان التضمين - زيادة على مايشير اليه من تأثر البحيري بالتراث - يساعد في القاء ظلال تجارب سابقة على النص مما يزيد الموضوع الذي يتحدث عنه البحيري جلاء ووضوحا .

يقول في مقطوعته " لو كنت من مازن" التي يتحدث فيها عن معاناة فلسطين التي استباحها الغاصبون ، ولم تحشد لها طاقات

1- انظر تفصيل حساب الابجدية الذي تبنى عليه التواريخ الشعرية في " المنجد في اللغة والأدب والعلوم"المطبعة الكاثوليكية بيروت ط 17 ص 127 .

الأمـة العربيـة مـن أجـل تخليصهـا ممـا هي فيـه من هـوان :

فكل حبـة رمل وهي والهـــة | تجـرع الصاب اذلالا واهـوانـا
تقول والوجد في أفواذها حــرق | عزت مواجهها صبرا وسلـوانـا
معيدة من جراح الشعر أجمعها | على بني العرب : أحرارا وعبدانـا
" لو كنت من مازن لم تستبح إبلي | بنو اللقيطة من ذهل بن شيبانا" "1"

والبيت الأخير ضمنـه الشاعر في مقطوعتـه وهـو لقريط بن أنيـف أحد شعـراء بني العنبـر . "2"

والبحيري لا يقتصر في تضمينـه على القديم فقط فقد يضمـن قصيدته بيتـا لشاعر حديث ، ويتضح ذلك في قصيدتـه "أي أمـة نحـن" حيث يعيب على العرب رضاهـم بالتمني دون أن يقومـوا بعمـل جاد لتحقيق مايتمنون .

وكم من فرصـة سنحت وولت | فكنتم عند مكنتها غيـابـا "3"
تناجـون المطالب بالتمنـــي | عساها أن تجيب ولن تجابـا
وقبلي هب دون النيل داع | ليكشف عن سنى الحق النقابـا
تسنـم هامة الإفصاح عـودا | فقال وقولـه جلى الصوابـا :
" ومانيل المطالب بالتمنـــي | ولكن تؤخذ الدنيا غلابـا" "4"

وواضح أن البيت الأخير للشاعر أحمد شوقي جـاء بـه البحيري لاتفاقـه مع الغرض الذي يرمي إليـه .

1- حيفا في سواد العيون ص 6 . 2- حيفا والبحيري ص 369 .
3- الانهر الظامئة ص 82-83 . 4- الشوقيات ج1 ص 71

ويتضح في شعر البحيري اقتباسه من القرآن الكريم حيث نجد الكلمات القرآنية وأجزاء من الآيات في أبياته وهذا يبرز مدى تأثر البحيري بالقرآن الكريم. وإذا كان الاقتباس من القرآن ظاهرة من ظواهر شعر البحيري الكلاسيكي فانه في الشعر الديني قد عم الجانب التقليدي، والجانب التأملي الذي يطغى عليه الطابع الرومانسي. يقول في قصيدة عنوانها "بيوت الله":

تملأ العين بالبهاء المنير ... وكذا كل خفقة من غمير
في بيوت مرفوعة بهدى الحق وأيدٍ من العزيز القدير
أذن الله أن تشاد لكي يذكر فيها اسمه طوال الدهور
جل من قال في أجل كتاب ... بمداد من السنى مسطور
إنما يعمر المساجد من آمن بالله والمعاد الأخير "1"

وواضح أن في الابيات السابقة نظما لمضمون آيات قرآنية مع التأثر بألفاظها أيضا. ولتوضيح ذلك أذكر آيتين اعتمد عليهما الشاعر في الابيات السالفة: يقول تعالى:
" في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه " "2"ويقول تعالى:
" إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر"."3"
ويقول البحيري في قصيدته " هو الله":

1- تبارك الرحمن ص 137-140.
2- الآية 36 من سورة النور.
3- الآية 18 من سورة التوبة .

آلاؤه لا الوهم يحصرها ولا الفكر الثوا قب
من كل سابغة تعم مدى المشارق والمغارب
وتجل أن تحصى ولو أن البحار مداد حاسب
أو أن مافي الأرض من شجر غدا أقلام كاتب "1"

ان هذه الابيات تذكرنا بالآية الكريمة : " ولو أنما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر مانفدت كلمات الله ، ان الله عزيز حكيم "."2"

وهكذا نرى أن هيمنة القرآن على الشعر الديني ظاهرة . وما كان لهذه الهيمنة أن تكون لولا قراءة الشاعر المستمرة للقرآن الكريم ، بحيث أصبح القرآن لغة وأسلوبا صاقلا لأسلوب البحيري . فاذا اخذنا بالاعتبار ثقافة الشاعر التراثية تبينا الى أي حد كانت قوة المؤثرات الدافعة في الاتجاه الكلاسيكي ، والتي انعكست على جانب مهم من شعره . ومع أن الطابع القرآني ألفاظا ومضمونا يتجلى بوضوح في شعره الديني ~~الا انه يجد وبين~~ انه يبدو بين الحين والحين في اغراض شعره الأخرى . يقول :

ولابد من هبة للجهاد بعزم يروع مضاء القدر
لند رأعن مهد عيسى المسيح وموئل مسرى الرسول الخطر "3"

1- تبارك الرحمن ص 151 .
2- الآية 27 من سورة لقمان .
3- حيفا في سواد العيون ص 97-98 .

فكلمات الجهاد القدر. مهد عيسى المسيح ،مسرى الرسول . كلمات لها طابع قرآني . ويقول :

أم حول الحول فاهتزت بنا وربت أيام أيلول نبتا فهو نيسان

وازينت بالربيع الأرض فهو لها وشي وحلي وأصباغ وألوان "1"

فالكلمات : اهتزت وربت ، وازّينت كلمات قرآنية . بل اننا نرى نظما لآيات قرآنية في قصيدته المخطوطة " القنيطرة "المدمّرة" حيث يقول :

قنيطرتي وصروف الليالي تثير بساحك إعصارها

أزلزلت الأرض زلزالها ولاقت من الغيب أقدارها

وأخرجت الأرض أثقالها وراحت تحدّث أخبارها "2"

إن هذه الأبيات تنقلنا إلى سورة الزلزلة ، وعلى الخصوص الآيات: " اذا زلزلت الأرض زلزالها ، وأخرجت الأرض أثقالها ، وقال الانسان مالها ، يومئذ تحدث أخبارها" "3"

ومن مظاهر الاتجاه الكلاسيكي عند البحيري اهتمامه بمطالع قصائده . فهو حريص على موسيقاها ، وايقاعها ، يريد من ذلك أن يشد انتباه القارىء أو السامع . ان المطلع عند البحيري -كما هو الشأن عند عدد كبير من الشعراء الكلاسيكيين - وهو أكثر ما يبين حالته النفسية ،باعتباره أول وليد للحالة الشعرية التي

1- الأنهر الظمأى ص 124 .
2- قصيدة القنيطرة المدمرة - مخطوطة .
3- الآيات 1 - 2 - 3 - 4 من سورة الزلزلة .

تسيطر عليه عند انشاء النص ، ولذا فان الدفق العاطفي ، وتركيز المضمون ، وظلال الوضع النفسي تتجلى فيه أكثر مما تتجلى في غيره من الابيات .

ان هذا ينطبق على معظم قصائد البحيري التي يبدأفيها من غير مقدمات ، أما القصائد التي تبدأ بمقدمة فقد يصح هذا الحكم عليها وقد لا يصح ، وذلك تابع لمدى اتفاق المقدمة مع المضمون أو عدم اتفاقها معه .

ولتبيان اهتمام الشاعر بمطالع القصائد أورد بعضها . يقول في مطلع قصيدته " الداء والدواء " وهي بمناسبة ذكرى وعد بلفور ، الوعد الذي كان بداية المأساة الفلسطينية .

الدهر بالحدثان شدّا ومضى وصار الأمر جدّا

واربدّ وجه العيش في زمن على الجمهور استبدا "1"

وحول مضمون هذا المطلع ، تتتابع أبيات القصيدة السبعون تفصّل وتوضح وتضع الحلول محذّرة ومنذرة .

وفي مطلع قصيدته " المسجد الأقصى " ، يقول :

بغمة الكرب والأحداث تشتجر ودمة الخطب بالأرزاء تعتكر

وقفت في المسجد الأقصى أسائله والنار في جنبات الصدر تستعر "2"

ان هذه القصيدة ثمانية وستون بيتا وهي تفصيل لغمة الكرب والأحداث التي تتصارع في فلسطين . انها تتحدث عن

1- الانهر الظمأى ص 67 .
2- الفلسطين أغني ص 83 .

الأرزاء والخطوب التي يقف المسجد الأقصى شاهدا عليها ، ومعددا لفصولها المحزنة المخزية . ومما يلاحظ أن البحيري -جريا على منهج الكلاسيكيين - يهتم بموسيقا المطالع،ويتضح هذا في تصريعه لها . وظاهرةالتصريع مألوفة عند القدماء،وكان تأثر البحيري بالتراث سببا في اهتمامه بتصريع المطالع، وهو في هذا كشوقي وحافظ ومعظم شعراء المدرسة الكلاسيكية في العصر الحديث . وعلى سبيل المثال فقد ضم الجزء الأول من ديوان الشوقيات للشاعر أحمد شوقي خمساً وستين قصيدة منها اثنتان وخمسون قصيدة مصرعة المطالع .

ومع أن اهتمام البحيري بتصريع المطالع ظاهرة عامة نجدها في معظم قصائده إلا أن القصائد الكلاسيكية لها النصيب الأوفر .
وكما يهتم البحيري بالمطالع فانه حريص على خواتم قصائده ، يضمنها خلاصة ما يريد . وفي كثير من قصائده يمكننا أن نتعرف على نتيجة القصيدة من خلال خاتمتها . واهتمام شاعرنا بالمطالع والخواتم يصاحبه اهتمام بجسم القصيدة ، بحيث يبدو التكامل واضحاً في بنيان القصيدة شكلا ومضمونا .

ويستعمل البحيري أحيانا الفاظا تصعب على كثير من المثقفين ، ويعود ذلك الى تعمقه في قراءة الشعر القديم وحفظه لعدد من قصائد فحول الشعراء ، مما يجعل الكلمات الصعبة التي ترد في ذلك الشعر ملكا للبحيري راسخة في معجمه اللغوي يستعملها وقتما يشاء .

ان لهذه الكلمات أثرا سلبيا في فهم مضامين الأبيات التي ترد فيها ، كما أن لها أثرا سلبيا على مدى انسجام القارئ مع النص . وليس من المناسب أن يلجأ القارئ الى القاموس بين الحين والحين وهو يقرأ لشاعر معاصر .

على أن استعمال هذه الكلمات له مردود حسن على اللغة، حيث أن الشاعر يجلي هذه الكلمات للقراء مما يؤدي الى بعثها وبث الحيوية فيها من جديد . وعلى كل فان الكلمات الصعبة لا تتجاوز بضع عشرات من الكلمات موزعة على شعره المطبوع والمخطوط، اذكر منها على سبيل المثال : مجحدر ، دحداح ، عران ، فند ، الجشم ، المران ، الوجاح ، وخاد ، الودى ، الخالب قنس .

ومن المظاهر الكلاسيكية في شعر البحيري استعماله الصور التي ألفها القدماء . يقول عن حبيبته :

يا طلعة أبهى من القمر المنير اذا تبدى

أين الغزالة منك لحظا والغصون النضر قدا "1"

ويقول عنها أيضا :

سبت بعيونها المرضى الصحاح قلوب الخرد الغيد الملاح

فكم حوراء عذبها هواها فناجتها بمدمعها الصراح

1- الاصائل والاسحار، ص 16 .

وقلبها الحنين الى اللقـــاء على جمر الغضا وجوى الجراح
أقدّام تأوّد غصن بان أضاع نهاه فيه كل صاح "1".

ان الصور السالفة قد وردت عند القدماء ، وأمتلأت قصائدهم بها . وهذه الصور القديمة تبدو في عدد من قصائد الحب وكثير من قصائد الشعر الوطني والقومي . وتأثر البحيري بالتراث هو الذي جعله يورد هذا النوع من الصور ، وقد أشار "نصر الدين البحر" الى ذلك عندما قال : "ان لـه لغته السلسة اللطيفة التي تذكرنا بعذوبة البحتري ، ولكن مادامت علاقة اللغة بالصورة علاقة جدلية بين الشكل والمضمون ، كان لابد أن تكون الصورة لديه ليست جديدة بالضرورة ". "2"

كما أن تأثر البحيري بالتراث هو الذي جعله ينظم الوجوبيات (وجوب مالا يجب) على غرار اللزوميات (لزوم مالا يلزم) لأبي العلاء المعري . وتأثر البحيري بأبي العلاء تأثر بالمضمون والشكل ، فشعر البحيري في الوجوبيات معالجة لقضايا اجتماعية ، واللزوميات معالجة لقضايا اجتماعية ، بالاضافة الى أنها توضح فلسفة ابي العلاء الذي عرك الحياة وخبرها . وقد ألزم المعري نفسه في القافية ما لا يلزم ، وصاغ القافية في كامل القصيدة على نمط واحد لا يحيد عنه . ويسير البحيري على منهجه ، حيث يوجب على نفسه مالا يجب.

1- الاصائل والاسحار ص 18 .

2- مجلة الطلائع العدد 165 - سبتمبر عام 1973م دمشق .

وتجربة البحيري في الوجوبيات خطوات أولى على طريق طويل سار عليه أبو العلاء . والوجوبيات -كما أخبرني بذلك الشاعر- ديوان مخطوط بقي في حيفا عام 1948م وهو بحكم المفقود .. وما بقي من قصائد الديوان هو بعض ما أخذ مما كتب عنها في ذلك الزمان ، وما عثر عليه في أوراق مكتبة الشيخ بدر الدين مراد بدمشق ، وما يذكره الشاعر نفسه . وقد أشار الى ذلك الشاعر هارون هاشم رشيد في كتابه عن البحيري . "1"

وقد اطلعت على الباقي من هذا الديوان ، وهو عدد من المقطوعات المخطوطة يبلغ مجموع أبياتها ثمانية وخمسين بيتا . وعلى كل فليس هناك مجال المقارنة من حيث الكم بين وجوبيات البحيري ولزوميات المعري التي تشكل " ديوان شعر كبير مرتب على حروف المعجم يذكر كل حرف بوجوهه الأربعة من ضم وفتح وكسر وسكون . وهذا الديوان يحتوي نحو أحد عشر ألف بيت وكله فلسفة واعتبار ونقد الحياة "2" .

ويقول هارون هاشم رشيد : " إن البحيري نهج في وجوبيات نهج لزوميات المعري ، إلا أنه يعود إلى القول : "إنها ليست محاولة تقليد ولا محاولة احتذاء بالمعنى الدقيق ،بقدر ماهي إغراق في حب

1- انظر حيفا والبحيري ص 398 .

2- تاريخ الادب العربي-حنا الفاخوري-ص 689 .

اللغة واستشراف معالمها ، والتجوال في جناتها ، والتعبير عن النفس الانسانية في لحظات حزنها وأساها وقلقها وشكها " "1"

ولا أحد ينكر حب البحيري اللغة العربية وقدرته على التعبير عن المشاعر الانسانية ، الا أن التقليد ظاهر بالمعنى الدقيق ، وأن محاولة البحيري محاولة إحتذاء بشكل واضح ، بل ان هارون هاشم رشيد نفسه يقول : " ان اللغة عند البحيري هي خزانة التراث وذخره الأبدي ، لذا فهو حريص عليها كل الحرص ، متفنن في أبوابها .. يبلغ به التزامه درجة التطرف عندما يحاول أن يكتب متمثلا بأبي العلاء المعري في لزومياته" . "2"

وقد تكلف البحيري الكثير من الجهد في اختيار قوافيه ، ولم يطلق نفسه على سجيتها كما عهدناه في شعره ، وللتدليل على ذلك أسوق قوله في إحدى وجوبياته :

اذا عثرت أنثى سللنا سيوفنا ... عليها وأطعمنا السيوف نثارها

وان زلّ منا واحد في خطيئة ... غفرنا أساها أو أقلنا عثارها

فكم حمق هنا ارتدى ثم مارعوى ... فضائح عرّتها الليالي دثارها

تشعّب في أسمارنا وحديثنا ... وأبهجنا أنباء عار أثارها

فكم حرّة أغوى غويّ عفافها ... وهيّجها نحو الخنى واستثارها

1- حيفا والبحيري ص 405 .

2- حيفا والبحيري ص 397 .

فلم تلق منا غير ثورة غاضب أثرنا على حنق الظباة مثارها

أطفنا ظنون السوء حول خدورها ونحن بأرجاس وطئنا وثارها "1"

وقد جاء في مقدمة المقطوعة تفصيل لما ألزم الشاعر نفسه به في القافية حيث يقول : قافية الراء المفتوحة مع هاء الوصل وألف الخروج مسبوقة بألف الردف والثاء وهي من المتدارك وهو أن يتوالى حركتان بين ساكني القافية" . ويحرص البحيري على كتابة ماأوجبه على نفسه في مقدمة كل مقطوعة من وجوبياته .

ومما يلفت نظر الدارس لشعر البحيري توازي الاتجاه الرومانسي والكلاسيكي عنده منذ بداياته الشعرية الى الآن . فليس هناك مرحلة فاصلة بين الاتجاهين . ففي الوقت الذي نقرأ له قصائد طافحة بالتجديد أسلوبا ومضمونا ، يخيم عليها نفس رومانسي ، نقرأ له قصائد موغلة في كلاسيكيتها ، وقد تداخلت قصائده الرومانسية والكلاسيكية ، وواكبت حياته بمراحلها المختلفة .

ولهذا فاني أختلف مع الدكتور حسني محمود في قوله :

" ان أكثر ما نشاهده من أفراس في حقول شعره في الزمن اللاحق هي أفراس الشعر الكلاسي الحديث ، التي تنفث أنفاس شعر الاسلاف وتنطق بروحهم ، حيث يتجلى ذلك في معجمه الشعري وفي صياغاته

1- ديوان الوجوبيات - مخطوط .

المتينة النسج وفي تراكيبه البيانية الناصعة وفي معظم أخيلته وتشبيهاته واستعاراته حتى ايصل به الأمر الى حد نظم الوجوبيات (وجوب مالا يجب) على غرار اللزوميات (لزوم ملا لا يلزم) للمعري أبي العلاء " "1" ويمضي الدكتور حسني محمود قائلا : " وزاده دفعا في هذا الاتجاه ما فرضته طبيعة عمله في اذاعة دمشق بعد النكبة ، من الاشراف على برامج لغوية فرضت عليه قراءات خاصة ، ظلت تشده الى القديم وتخضعه للتقاليد ، وتدفع به عن مشاهد التجديد ،حتى غابت عنه هذه المشاهد الى حد نكرانه إياها "2"

والسبب في عدم اتفاقي مع الدكتور حسني محمود يعود الى أنه جعل فاصلاً زمنياً لغلبة الشعر الكلاسيكي على الشعر الرومانسي ، بل إنه ذهب الى القول : ان مشاهد التجديد قد غابت عن البحيري الى حد نكرانه اياها . وفي تقديري أنه ليس هناك فاصل زمني ولا فترة محددة في حياة البحيري كانت قاصرة على اتجاه دون آخر . فقد سار الاتجاهان جنباً الى جنب ، طوال حياة الشاعر . ففي الوقت الذي نقرأ له قصائد موغلة في رومانسيتها وشفافيتها ، نجد له في الوقت نفسه قصائد كلاسيكية تنقلنا الى صهيل الخيل وصليل السيوف وعجاج الحرب . وللتدليل على وجهة نظري ، أعتمد

1-2- مجلة شؤون فلسطينية العدد 125 .

على دواوين الشاعر . فديوان" أفراح الربيع"الذي طبع عام 1944م هو " ديوان الجمال والسحر والفتون . . ديوان الطبيعة الباسمة بثغور الزهور المفعمة بالألحان والألوان والعطور والمجاللة بأكلة السنى والنور" "1" والشاعر في هذا الديوان غارق في رومانسيته مجدد في أسلوبه منطلق من تجربته الذاتية وعواطفه الخاصة . فكيف يمكن أن نوفق بين هذه الرومانسية وبين كلاسيكية الشاعر التي تسيطر وبشكل كامل على ديوانه " ابتسام الضحى" المطبوع عام 1946م . ان قصائد ،ديوان" أفراح الربيع" الرومانسي وقصائد ديوان "ابتسام الضحى" الكلاسيكي قيلت في فترات متداخلة،ومع هذا فرومانسية الشاعر طغت في ديوان " أفراح الربيع" وهو ديوان الطبيعة كما طغت كلاسيكيته في ديوان " ابتسام الضحى" وهو ديوان الوطنية . ومن هنا لم يكن البحيري رومانسياً في بداية حياته الشعرية ، ثم تحول الى كلاسيكي ، بل كان رومانسيا وكلاسيكيا في آن واحد منذ بداياته الشعرية الى الآن .

ومع أن هناك من الشعراء من يغيرون اتجاههم ،حيث يبدأون بداية تقليدية،ثم يتجهون الى الاتجاه الرومانسي ان كان عندهم استعداد لذلك ، وهذا شيء مألوف، الا أنه من غير المألوف أن يبدأ شاعر بداية رومانسية ، ثم يتحول كلية الى الاتجاه

1- أفراح الربيع ص 7- 9 .

الكلاسيكي . واذا فان حكم الدكتور حسني محمود على الشاعر البحيري بأنه تنكر لرومانسيته واتجه اتجاها كلاسيكيا محضا حكم لا يتفق مع طبيعة الأمور .

ومن المدهش حقا أن نقرأ قصائد تتميز بقوتها وكلاسيكيتها ، قالها عام 1936م حين لم يكن عمره يزيد عن سبعة عشر عاما . ومن ذلك قوله في قصيدته " لهب الشباب " :

اذا دعت الأوطان يوما ابغية — بأرواحنا الظمأى أجبنا نداءها
نذود عن المجد التليد بصارم — شموس الضحى منه استعارت ضياءها
ونبني من المجد الطريف صروحه — وهمتنا القعساء تعلي بناءها
فما العز الا حيث اطامنا بدت — تشاطر أقمار الليالي سناءها "1"

فاذا كان هذا شأن الشاعر في هذه السن المبكرة،وفي السنوات العشر اللاحقة التي أصدر خلالها ثلاثة دواوين تجمع بين الرومانسية والكلاسيكية،فان الشاعر بقي يسير على هذين الاتجاهين،وكل من يطالع على دواوينه يخرج بهذه النتيجة . فاذا علمنا أن الغالبية العظمى من قصائده في دواوينه المطبوعة بعد النكبة الفاسطينية ،قيلت بين عام 1940م وعام 1949م ،تبين لنا الى أي مدى كان البحيري يجمع بين الرومانسية والكلاسيكية ، وانه لم يتنكر لرومانسيته كما ذهب الى ذلك الدكتور حسني محمود .

1- ابتسام الضحى ص 48- 49 .

ومما يلفت النظر في تعليق الدكتور حسني محمود تصوره أن الوجوبيات التي يغلب عليها الطابع الكلاسيكي قالها الشاعر في وقت متأخر . ويتخذ من ذلك دليلا على أن البحيري قد رضي بأحضنة القديم وأنه أوغل في ذلك عندما صاغ هذه الوجوبيات على غرار لزوميات أبي العلاء المعري .

والحقيقة أن البحيري نظم الوجوبيات في سن الشباب ، والدليل على ذلك أن " شعبان القاق " أستاذ العربية في "مدرسة الارشاد" بحيفا قد علق على الوجوبيات عام 1945م بقوله : " ومن المدهش أنك اذا قرأتها لم يخطر ببالك أن هذا الشاعر الذي نظمها لا يزال في بواكير صباه وشرخ شبابه ، مع أن المعري لم يلج هذا الباب الا وهو في كهولة عمره . " "1"

ويكاد الدارسون لشعر البحيري يجمعون على أنه جمع في أسلوبه بين القديم والحديث ، وأنه متأثر بالشعراء الكلاسيكيين والرومانسيين في آن واحد . فالدكتور ناصر الدين الأسد يقول :
" إن شاعرنا البحيري ذو نسج متين محكم وأسلوب مشرق سلس ، وألفاظ زاهية بظلالها وإيحاءاتها الشعرية . ويبدو أن اطلاعه على تراثنا الشعري القديم والحديث اطلاع عميق متثبت أورثه هذا البيان المشرق الأخاذ . ولكنه - في كثير من قصائده - وقع في أسر

1- حيفا والبحيري ص 397 .

الشعر الذي أكثر من قراءته سواء قديمه وحديثه . وهو في ذلك لا يتدنى الى التقليد والمحاكاة ،غير أنه لم يستطع أن ينطلق انطلاقا كاملا تتجلى فيه ملامح شخصيته المستقلة . ومن أجل هذا نجد في شعره أنفاسا من الشعراء القدماء ، وأوضحهم أثرا فيه ابن المعتز ثم البحتري والمتنبي . . وأنفاسا من الشعراء المحدثين خاصة صديقه أحمد رامي ، وعلي محمود طه ،ومحمد فتحي " "1"

اني متفق مع الدكتور الاسد ،الا اني اختلف معه في قوله : " ان البحيري لم يستطع أن ينطلق انطلاقا كاملا تتجلى فيه ملامح شخصيته المستقلة " . فهذا القول يصدق على بعض قصائد البحيري ولكنه لا يصلح كميزان نقوم فيه اسلوب البحيري في شعره كله .

والدكتور الاسد في قوله هذا أسير ثلاثة دواوين شعرية هي : " الاصائل والاسحار " و " أفراح الربيع " و " ابتسام الضحى " ، ومع هذا فهو مقر بأن الشاعر منطلق من أسر الشعر الذي أكثر من قراءته ، لكن انطلاقته ليست كاملة . وفي تقديري أن الدكتور الاسد لو اطلع على الدواوين : " حيفا في سواد العيون " ،" لفلسطين أغني" " ظلال الجمال " ، " الانهر الظمأى " ، " تبارك الرحمن " ، ولو اطلع على شعر البحيري المخطوط لعدل عن رأيه ، لأن من يقرأ شعر

1- محاضرات في الشعر الحديث في فلسطين والأردن ص 185 .

البحيري بشكل متكامل تتضح أمامه شخصية ظاهرة مميزة .

ولا اتفق مع الدكتور واصف أبو الشباب الذي يقول : " إن الاصرار من قبل الشعراء الشيوخ ، وبخاصة العدناني والعبوشي ثم البحيري وغيرهم على النظم بأسلوب تقليدي متزمت ، وبعد التحولات السياسية والاجتماعية والثقافية في حياة الشعب الفلسطيني بعد النكبة قد ادى الى جمود مثل هؤلاء الشعراء وانزوائهم وبعدهم عن حياة الشعب الفلسطيني ونضاله " . "1"

ان رأي الدكتور واصف غير موضوعي للاسباب الاتية :
أولا : ان اسلوب البحيري بعد النكبة وقبل النكبة لا يمكن الفصل بينهما
: بهذه الطريقة . والمنهج العام للبحيري في شعره قبل النكبة هو منهجه الشعري بعد النكبة ، فهو كلاسيكي حينا ورومانسي حينا آخر . صحيح أننا نحس تفاوتا بين القصائد ، وصحيح أننا نلمس تأثرا واضحا بالتراث ، لكننا نجد بجانب ذلك البحيري الرومانسي المجدد في الشكل والمضمون .

وبودي أن استشهد بما قاله الدكتور واصف في موضع آخر من كتابه حتى نتبين مدى التناقض الذي وقع فيه ، فهو يقول : " مع نهاية النصف الأول من القرن العشرين ، اكتملت الخطوط العامة للرومانسية العربية والتي حاول معظم شعراء العربية

1- شخصية الفلسطيني في الشعر الفلسطيني المعاصر ص 91 .

السير في خطهـا ،و من بينهـم بعض الشعـراء الفلسطينيين و في طليعتهم فدوى طوقان و حسن البحيري "."1"

فكيف يكون البحيري في الخمسينات في طليعة الشعـراء الرومانسيين الفلسطينيين ،ثم يصفـه الدكتور واصف بأنـه ينظـم بعـد النكبـة بأسلوب تقليدي متزمت. اني أرى في هذا تناقضا واضحـا .

ثـانيـا : لم يكن البحيري في يوم من الأيـام بعيدا عـن نضـال شعبـه ، كما اتهمـه بذلك الدكتور واصف ،سـواء كان ذلك قبل النكبـة أو بعدها . أما قبل النكبـة فاني أستشهـد بما قالـه الدكتور واصف نفسـه ، حيث يصف البحيري بأنـه" واحـد من أبـرز الشعـراء الفلسطينيين الذيـن عايشـوا نضـال الشعـب"."2" أمـا بعـد النكبـة فقـد عاش البحيري بكل جـوارحـه مع شعبـه الفلسطيني وأمتـه العربيـة ، وشعـره قبل النكبة وبعدهـا دليـل على ذلك . كما أن دواويـنه الخمسـة التي طبعهـا بعـد النكبـة دليـل على مـدى انصهـار البحيري بفلسطيـن أرضـا وشعبـا ، ودليـل على مـدى تفاعلـه مع أمتـه في ماضيهـا وحاضرهـا . بـل ان عنـاويـن دواوينـه التي طبعهـا بعـد النكبـة ،توضح الى أيّ مدى يعيش هذا الشـاعـر من أجـل وطنـه وأمتـه . فأول ديوان طبعـه هـو" حيفا في سـواد العيـون " عـام 1973م ،واسـم الديوان غنيّ عـن التعليـق ، وقـد اختـار اصفحـة الغـلاف منظـرا لمدينـة حيفـا التي

1- شخصيـة الفلسطيني في الشعـر الفلسطيني المعاصر ص 125 .

2- المرجع السابـق ص 14 .

عاش فيها أسعد أيام حياته . أما الديوان الثاني فهو " لفلسطين أغني " وقد طبع عام 1979م ، وجاء في صفحة الاهداء : "

" النور الذي تبصر به عيناي اسمه فلسطين . والهواء الذي تتنفسه رئتاي اسمه : فلسطين . والدم الذي يجري في عروقي اسمه: فلسطين . " " 1 "

وجاء الغلاف مزيّنا بلوحتين معبرتين احداهما " دلعونة " وهي لوحة لفلسطينية تلبس الثوب الفلسطيني الجميل ، وهي ترمز التراث الفلسطيني العريق . واللوحة الثانية اسمها : " المقاومة " . وتزين الديوان من الداخل لوحات تمثل المقاومة الفلسطينية وهي للفنان الفلسطيني " عبد الرحمن المزين " " 2 " . والشيء نفسه يقال عن ديوان " ظلال الجمال " و " الانهر الظمأى " و " تبارك الرحمن " .

ان البحيري الذي قدم هذه الدواوين وأنشد طول حياته من أجل فلسطين والأمة العربية/ وأوصى أن يكون ~~مكتبته~~ ابيته بما فيه متحفا لفلسطين بعد وفاته ، لا يجوز أن يقول عنه الدكتور واصف بأنه منزو بعيد عن حياة الشعب ونضاله .

وهكذا فان البحيري متفاعل مع قضايا الوطن والأمة وعلى الرغم من تأثره بالتراث ، فان ذلك لم يحل دون انطلاقته وتحديد معالم شخصيته الأدبية بوجهيها الكلاسيكي والرومانسي .

1- لفلسطين أغني ص 10 .
2- لفلسطين أغني ص 2 .

وفي تقديري أن هذا هو ما عناه الدكتور حسني محمود عندما قال :

" ان البحيري يظل في كل الأحوال الرجل الوطني الغيور والرومنتيكي المثالي ، الذي يرى الأشياء بروح الصدق والاخلاص والنقاء وان كان ظل خاضعا في شعره لأثر التراث عليه وقد تعمقه بقدر ليس بالقليل " . "1"

ويذهب الأستاذ محمد الأمين الى تبيان أصالته في شعره عندما يقول : " ان قدرة البحيري على كتابة الشعر قدرة مدهشة وأصيلة ، فهو يتلاعب بعمود الشعر على هواه وينسج على كل البحور بطلاقة تؤكد تمرسه وأصالته" "2" .

وقد عبر الشاعر هارون هاشم رشيد عن أصالة البحيري وشخصيته المميزة في شعره عندما قال :" ان البحيري قارئ المقديم والحديث ذائب فيهما ، طالع منهما بوجهه الجديد وجبهته المشرقة الفريدة . . فهو كيان متفرد في حد ذاته ، أصيل النغمة شجيّ النبرة . فيه البحتري والمتنبي وابن المعتز وابن حمديس وعلي محمود طه والشابي وأحمد شوقي وأحمد رامي . . يمتزج فيه القديم بالحديث ، وتتلاقى في أعماقه جماعة " أبولو" بجماعة المهجر" . "3"

1- مجلة شؤون فلسطينية العدد 125 .
2- مجلة فلسطين المحتلة العدد 283 سنة 1981م .
3- حيفا والبحيري ص 273 .

الفصل الثاني

الخصائص الفنية لشعر البحيري

يحرص البحيري في منهجه الذي يمتزج فيه القديم بالحديث على أسلوبه غاية الحرص . فألفاظه وعباراته منسجم بعضها مع بعض، وهي متوافقة مع المضمون توافقا تاما .

ويحرص البحيري في أسلوبه على الموسيقا ، فهو مغرم بها منذ صباه ، أيام أن كان يفيق من نومه على زقزقة العصافير في جبال الكرمل . وقد اقتنى في شبابه عودا كان يعزف عليه ، وأطلق عليه اسم فريد ، ومازال شاعرنا يهتز طربا لدى سماعه بعض أنواع الموسيقا . ان هذا يعني أن للموسيقا تأثيرا مهما في حياته ، ولما كانت الموسيقا هي عصب الشعر وعماد التناسق الصوتي فيه ، فان البحيري يوليها عناية كبيرة .

وتتنوع الموسيقا وفق غرض القصيدة ،فهناك الموسيقا الثائرة التي نسمع من خلالها طبول الحرب وتدافع الخيل والفرسان ،وهناك الموسيقا الغاضبة التي نحس من خلالها بمدى المرارة التي يعاني منها

الشاعر نتيجة تردي أوضاع شعبه وأمته ، فينفس عن حالة الغيظ هذه بشعر حار يهاجم فيه المسؤولين عن حالة التردي . وبجانب ذلك نسمع الموسيقا الهادئة الناعمة تسري في أوصال القصيدة سريان زورق ينساب على مياه بحيرة الجليل في ليلة مقمرة هادئة .

ويختار الشاعر من الكلمات والتعابير ما يتناسب مع حالته النفسية . ذلك أن الكلمات هي اداة الشاعر والكاتب كما أن الريشة والألوان هي أدوات الرسام" واللغة على حد تعبير الطاهر وطار " مرتبطة بالمضمون وبالموضوع وبالشكل . لذلك هي مختلفة من عمل الى آخر ومن فصل الى آخر ، ومن حالة نفسية الى أخرى" "1"

ها هو البحيري غاضب يحرض قومه على القتال ، وها هي كلماته وعباراته تحمل سمات هذا التحريض .

أخي قم بنا مثل حد الحسام ... اذا هو من غمده جردا
فتل أبيب لنا موعد ... ولن نرتضي غيرها موعدا
فهب كليث الشرى واثبا ... فلم يبق فينا لصبر شدا
وهيّا بمنجل كف الفناء ... فاني أرى زرعها أحصدا
ألا امض بنا مثل نسر السحاب ... وحوت العباب وريح الودى
على طائرات تروع النجوم ... وفي نازعات تخيف الردى
لنهدم مها حجرة حجرة ... ونتركها صفصفا فدفدا "2"

1- مجلة الحرية العدد 21/83 يونيو 1983م.
2- حيفا في سواد العيون ص 73- 74 .

تواصلت الانفجارات الصوتية في هذه الأبيات لاحداث الايقاع المتناسب مع غضب الشاعر . ففي البيت الأول يستعمل فعل الأمر " قم " وفيه نبرة قوية واضحة و" حدّ الحسام " وفيه تشديد وقوة ثم قوله : " تل أبيبٍ لنا موعدٌ " ، وقد أحدث الشد والتنوين المتتابع مع القافية المدويّة الأثر المطلوب . وفي قوله " هبّ كليث الشرى واثباً " ، ورد فعل الأمر " هُبّ " ثم " ليث الشّرى " ثم التنوين في " واثباً " ثم قوله : " هيّا بمنجل " كفّ الفناء " ، فالتشديد واضح في " هيّا " و " كفّ الفناء " ثم الترادف المؤثر في قوله : " نسر السحاب ، حوت العباب ، وريح الودى " ثم التنوين في قوله " طائراتٍ ، دارعاتٍ " وبعد ئذ التنوين والتكرار في البيت الأخير :

انهد مها حجرةً حجرةً   ونتركها صفصفاً فدفدا

ولا يخفى ما في قوله : " انهد مها حجرةً حجرةً " من تصوير بارع لثورته ، وكذلك قوله : " ونتركها صفصفاً فدفدا " حيث نتصور الشاعر وقد أرغى وأزبد ، وتدافعت الكلمات على لسانه بهذه الصورةالمؤثرة وقد بلغت به الثورة مبلغها . وجاءت موسيقا الأبيات متناسبة مع هذه الثورة ومعبرة عنها أصدق تعبير .

واذا كانت الموسيقا عند الشاعر عنيفة غاضبة في الأبيات

السابقة وما شابهها فان هذه الموسيقا ترق في قصائد الحنين حين يكتب الشاعر بعيون دامعة وقلب يتحرق شوقا لأرض الوطن .

يالدار صحبت فيها الأماني   وابست الشباب بردا قشيبا
ورأيت الحياة أول فجر   ضاء من خاطري فضاء رحيبا
وسمعت الرجاء في فرحة العمر يغني لحن الهوى عندليبا
لم يطعني الفؤاد بالبعد عنها   يوم أزمعت عن حِماها ركوبا
فجفاني وظلّ فيها مقيما   يكمل العمر حسرة ووجيبا "1"

جاءت الموسيقا في هذه الأبيات لتصور حنين الشاعر الى أرض الوطن ،فجاءت الكلمات ممدودة لتتناسب مع أنين المكروب في أرض الغربة . ان الحنين مناجاة لذكرى الوطن ترق فيه النفس الى حد كبير . وبدلا من الكلمات المتتابعة العجلى ذات النبرة القوية في القصائد الغاضبة ،تحل الكلمات ذات المد المثقل بالحزن والأوجاع. ولو تتبعنا الكلمات والعبارات في الأبيات السالفة لوجدنا الشاعر قد وفق إلى حد كبير في الايقاع الموسيقي الذي يتسع للآهات والأنات. ان الأبيات تضمنت الكلمات : دار ، الأماني ، الشباب ، قشيبا،الحياة ،ضاء ، فضاء رحيبا ، الرجاء ، لحن الهوى عندليبا ، الفؤاد ، جفاني وظل فيها مقيما ، أزمعت عن حماها الركوبا ،وجيبا . والكلمات المذكورة وردت في خمسة أبيات ويظهر فيها المدّ الحزين

1- حيفا في سواد العيون ص 43-44 .

بشكل واضح ، وقد وفق البحيري في التعبير عن لوعته وأساه .
ولنستمتع للأبيات الآتية وهي تصور ألمه بسبب فراق الحبيبة :

قد ضممت الصخر وجدا والتياعا وهلوعا
وسكبت القلب في الرمل هتونا وهموعا
وخضبت الزورق الغادي نجيعا ودموعا
ولثمت البحر شوقا وغراما وولوعا "1"

ان الكلمات طافحة بالحزن والألم ترادفت بشكل معبر مما مكن الشاعر من افراغ شحنة الألم التي تعصره عصرا . ففي البيت الأول وردت الكلمات : " وجداً والتياعاً وهلوعا " وفي البيت الثاني " هتوناً وهموعا " وفي البيت الثالث "نجيعاً ودموعا" وفي الرابع " شوقاً وغراماً وولوعا " .

ان هذا الترادف يؤكد المعنى ، ويدل دلالة قاطعة على مدى ألم الشاعر . وتضمر الأبيات موسيقا حزينة زادها الترادف والتنوين حزناً وتأثيرا ، وجاءت القافية بما فيها من مدّ ، مصورة لأنات المكروب الحزين ، كما أن حرف العين في روي الأبيات جاء معبراً عن حالة الشاعر الذي شَرِق بدموعه وهو يحاول التقاط كلماته وأنفاسه خلال موجات الحزن التي تغمره غمرا .

1- الاصائل والاسحار ص 115 .

ولما كان " التأثير يستحيل الا عن طريق اللفظ والموسيقا والايحاء والصورة والفكرة وحرارة العاطفة مجتمعة ، وانعدام هذه العناصر الأساسية في القصيدة أو القطعة ما يحول بينها وبين نفس القارئ والمستمع" "1" ، فان البحيري يوالف الكلمات والتعابير المناسبة ذات الايقاع من أجل نقل فكرته وتجربته بشكل موفق تسنده في ذلك عاطفة جياشة صادقة . وهكذا تتجمع عوامل التأثير كلها في قصائد البحيري بنسبة متفاوتة .

ولحرص شاعرنا على الإيقاع الموسيقي المتناسب مع الغرض والخادم له ،فاننا نجد في شعره ألوانا مختلفة من الموسيقا ، مثل تلك الناتجة عن تغيير القافية . وتغيير القافية هو استجابة لحالة شعورية ،فقد تتناسب قافية مع حالة ما بينما لا تتناسب مع حالة أخرى .

ويكثر التنويع في االقافية عند البحيري ، ومن يطلع على دواوينه وبخاصة ديوان " أفراح الربيع" وديوان " الاصائل والاسحار" يتبين ذلك بوضوح . ومن القصائد الطويلة التي تتنوع فيها القافية ، قصيدة " الانهر الظمأى" "2" التي تتضمن ستة وعشرين مقطعا ، وكل مقطع فيها مكون من أربعة أبيات. وقد أستلهم الشاعر

1- دراسات في النقد والأدب د . محمد مصايف الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر عام 1981م ص 61 .

2- ديوان الانهر الظمأى ص 47 .

موضوع هذه القصيدة من مناسبة الوحدة بين مصر وسوريا عام 1958م وكذلك قصيدته " نشوة الخيام " "1" وهي مكونة من ثمانية عشر مقطعا وكل مقطع يتضمن أربعة أبيات .

ان التنويع في القافية يضفي جوا موسيقيا متنوعا يساعد الشاعر من غير شك على تمثل مايعمن له دون أن يرى نفسه ملزما بقافية واحدة . وبجانب ذلك فان البحيري قادر على استغلال موسيقا الحروف وتوظيفها بمهارة كبيرة لخدمة الغرض الذي يرمي اليه ، ولنتمعن في حرف الدال المشددة وماله من دلالات في النص الاتي :

الدّهر بالحدثان شدّا ومضى وصار الأمر جدّا
واربدّ وجه العيش في زمن على الجور استبدّا
وتصارعت هوج الرياح فراعت الأطواد هدّا
يا أيها الباكون يجرون الدموع جوى وسهدا
رفدا من الجفنين يستتلي على الخدّين رفدا
ما نال ذو حق هوى بالدّمع يفرق منه خدّا
فالحق يؤخذ بالصفاح تؤدّها الأبطال أدّا "2"

هذه الأبيات من قصيدة طويلة عنوانها " الداء والدواء" قالها البحيري عام 1945م بمناسبة وعد بلفور، عدد أبياتها

1- عيفا في سواد العيون ص 140 .
2- الانهر الظمأى ص 67 .

سبعون بيتا ، تتردد في ثناياها الدال المشددة فتوحي للقارئ بحالة الشاعر الذي يتميز غيظا ،وتصوره حانقا متهددا متوعدا حتى كأن الدال حرف لا غنى عنه في التهديد والوعيد ومواقف الشدة والتهديد . ان موسيقى الدال المشددة مع ما يصاحبها من انفجار صوتي تعكس بوضوح مدى توفيق الشاعر في اختيار هذا الحرف . ومن الطبيعي أن البحيري لم يجهد نفسه في اختيار هذا الحرف ،لكن الحالة الانفعالية التي سيطرت عليه هي التي تجسدت في كلمات مناسبة احتوت على هذا الحرف المعبر ، كما تتجسم انفعالات الانسان في كلماتٍ خاصة ، ونبرة خاصة ، ساعة الهياج والغضب .

وبجانب موسيقى الحرف فان البحيري يوظف موسيقا التكرار وما لها من أثر في نقل أحاسيسه ومشاعره بالاضافة الى مالها من أثر في تأكيد المعنى وتثبيته . ومن البديهيات أن عبارة واحدة غير كافية لنقل انفعال شديد يسيطر على الشاعر . ولذلك فانه يحاول افراغ شحنة هذا الانفعال من خلال تكرار عبارة غاضبة أو عبارة حزينة ، وفق الحالة التي يقع تحت تأثيرها . فاذا أفرغ الشاعر انفعاله في صورة من صور التكرار أو الترادف ، انتقل الى شيء آخر . والشاعر انسان ككل الناس ، ولا يكتفي الناس بالتعبير عن هياجهم بعبارة

واحدة ،بل تتدافع العبارات الجارحة وقت الغضب واحدة تلو الأخرى في سرعة وصخب وزمجرة،ناقلة عمق ما يعانيه صاحبها من توقد درجة الانفعال . وهكذا الشاعر،فانه ينقل انفعاله في كلمات وعبارات تأتي مع السياق ،ناقلة صورة أمينة لحالته النفسية التي سيطرت عليه عند انشاء النص . يقول البحيري في قصيدته التي عنوانها : " يا أمتي لن تقهري" : :

اغضب وفجر في حنايا الصدر بركان الغضب

اغضب وخض ساح القتال وأنت أمضى من لهب

اغضب وقل قدري على صفحات أيامي كتب

حقي وأفراح الحياة وكل أمجاد الحقب

في القدس في أرضي الحبيبة في فلسطين العرب

\+ + +

هذي دياري يا عدو النور يا عار الوجود

هذي دياري وهي لي وطن على الأبد الأبيد "1"

ان موسيقا التكرار الواردة في الأبيات السالفة جاءت متناسقة مع عاطفة الشاعر المتأججة ، كما جاءت موسيقا الباء وهي حرف الروي في المقطع الأول - مثل دقات الطبول ، كما أن موسيقا الدال - وهي حرف الروي الثاني - لها دويّ خاص ،

1- الانهر الظمأى ص 143 .

وكل ذلك جاء لاحداث التأثير المطلوب .

وكما تأتي موسيقا التكرار في القصائد الوطنية فانها ترد كذلك في شعر الحب والطبيعة ،ذلك أن التكرار لا يختص بغرض دون آخر وانما يأتي تلقائيا عندما تكون الحالة التي يقع الشاعر تحت تأثيرها تحتاج الى ذلك . ها هو البحيري يصف معاناته مع حبيبته فيقول :

لست لي في الهوى اذن يا ظلوما　　أنا في حبها أموت وأحيا

لست لي في الهوى حنينا ووجدا　　واشتياقا في الجانحين لظيا

لست لي في الهوى منى ورجاء　　وابتساما وقبلة ومحيا "1"

هكذا نرى أن التكرار هنا جاء للتعبير عن حالة ألم ممض، وجاءت موسيقا التنوين في كثير من الكلمات معبرة أروع تعبير،حيث أنها تتناسب مع حالة الألم التي يئن من هواها الشاعر .

ان هذا يعني أن الشاعر عندما يعاني من حالة نفسية معينة فان هذه الحالة تترجم ذاتها في دلالات موسيقية متعددة كموسيقا الحرف أو التنوين أو التكرار أو القافية،وقد تجتمع هذه الأنواع كلها في نص واحد . ولا يخفى ما لهذا من أثر في دلالات الألفاظ وظلالها الايحائية . وتذهب الشاعرة نازك الملائكة الى القول بأن "التكرار في حقيقته الحاح على جهة هامة في العبارة يعنى بها الشاعر أكثر من عنايته بسواها . .

1- ظلال الجدال ص 123 .

وهو يسلط الضوء على نقطة حساسة في العبارة ويكشف عن اهتمام المتكلم بها . وهو بهذا المعنى ذو دلالة نفسية قيمة ، تفيد الناقد الأدبي الذي يدرس الأثر ويحلل نفسية كاتبه "1" ويذهب الدكتور بدوي طبانة الى القول : "بأن التكرار يضع في أيدينا مفتاحا للفكرة المتسلطة على الشاعر ، وهو بذلك أحد تلك الأضواء اللاشعورية التي يسلطها الشعر على أعماق الشاعر فيضيئها بحيث نطلع عليها""2"

ومن أنواع الموسيقا التي يلاحظها الدارس عند البحيري تلك الموسيقا التعبيرية التي تتجسد من خلالها الحالة النفسية للشاعر . واذا كانت أنواع الموسيقا التي أشرت اليها آنفا تتضح في حرف أو تنوين أو قافية أو تكرار ، فان هذه الموسيقا أعمق دلالة من تلك . وتبقى الكلمات والعبارات - وهذا أمر طبيعي - مجال هذه الموسيقا التعبيرية القادرة على تجسيم الحالة النفسية للشاعر بكل أبعادها .
وما أكثر القصائد التي يتجلى فيها هذا النوع من الموسيقا عند البحيري ويكفي أن أورد هذه الأبيات من قصيدته الطويلة " حبيبتي فلسطين" لتتضح أبعاد هذه الموسيقا .

فلسطين يالهفة في الضلوع   يعزّ على الدهر سلوانها
ويا حرقة في مسيل الدموع   يفيض من القلب هتّانها
ويا حسرة لو غدت في الجبال   لكان تصدّع صفوانها

1- التيارات المعاصرة في النقد الأدبي - د . بدوي طبانة - مطبعة لجنة البيان العربي ط1 عام 1963م ص 245 .

2- المرجع السابق ص 246 .

كتمت أساها وحرّ لظاها   فأ وهى التجلّد كتمانها

فسالت غيوثا من الدمع والدم تغرق خدّي غدرانها

فلسطين يارمضا في جراح أبت أن تفترّ نيرانها

ويا ظلمة في ليال طوال   تعصى على الفجر ميجانها

ويا خفقة في حواني الصدور   تسعّر كالجمر أحزانها

وتطوي على البؤس أجنانها   وتنسج باليأس أكفانها "1"

ان الموسيقا في هذه الأبيات جاءت كالنحيب ، واستعمل الشاعر الكلمات التي لها دلالتها وتعبيرها سواء من حيث معناها أو موسيقاها . وجاءت الموسيقا ممدودة مسترخية حزينة ،حتى يتمكن الشاعر من إفراغ تأوّهاته وإسماع أنّاته . وأكاد أجزم بأن الشاعر كان يبكي بمرارة وألم وهو يسطر هذه الأبيات ، يدلنا على هذا ذلك المدّ المعبر الكلمات : " فلسطين ،يالهفة ، الضلوع ، سلوانها ، يا حرقة ، سيل الدموع ، يفيض ، هتانها ، ياحسرة ، الجبال ، صفوانها ، أساها ، لظاها ، كتمانها" .

ان هذا المدّ الحزين جاء متوافقا الى أبعد الحدود مع الوضع النفسي ، وجاء بموسيقاه معبرا عنه ، وجاء حرف الهاء في الأبيات والقافية تعبيرا عن حالة أشبه بالنشيج .

1- ظلال الجمال ص 59 .

وهكذا نستطيع القول : ان الموسيقا التعبيرية من أهم عوامل الكشف عن الحالة النفسية وقت انشاء النص. والبحيري يبدع في هذا النوع من الموسيقا التي تصور أكثر من غيرها مدى صدق الشاعر فيما يقول.ويرى الدكتور محمد الصادق عفيفي بأن " اختيار الألفاظ الموحية القادرة على الاثارة راجع الى طبيعة الشعر واتصاله الوثيق بوجدان قائله . والتعبير عن الوجدان يستلزم ألفاظا ذات دلالات نفسية وشعورية خاصة " "1"

والبحيري في شعره صادق الوجدان،ومن المستحيل عليه أن يقول من غير انفعال ،وليس هناك ما يجبره على قول الشعر اذا لم ينفعل . انه لم يقبل أن ينضوي تحت راية حزب أو زعيم لانه راغب في أن يعيش كما يحب ويهوى ، ضمن اطار الالتزام الوطني ، وقد أشار الى ذلك الشاعر هارون هاشم رشيد عندما قال عن البحيري : "ظلت وطنيته دائما هزّة الوجد الصادق الذي لا يخدم أغراضا طبقية ، انها وطنية أصيلة لا يهز مهمازها حزب ولا يتسلق عليها زعيم ، ولا توجهها مناسبة هزيلة . انها وطنية عتيدة عنيدة مخلصة واعية مسؤولة . انه مسؤول وهذا هو همه الأكبر . ومسؤولية الانسان الكبير تجاه وطنه هي أرق عينيه وسهاد روحه ، ومصدر تفجر الينبوع في وجدانه" "2"

1- النقد التطبيقي والموازنات د . محمد الصادق عفيفي - مكتبة الوحدة العربية الدار البيضاء عام 1972م ص 198 .

2- حيفا والبحيري ص 374 .

وانطلاقا من هذا ،فقد هاجم الحكام العرب عام 1948م وهو عام النكبة الفلسطينية . ونلاحظ أن الشاعر يمدح بعض الحكام ثم يحمل عليهم ويندد بمواقفهم .ان الميزان الذي نقيس به هذين الموقفين ميزان واحد ، فهو يمدح حاكما لأنه يتوقع منه خيرا للوطن ، فاذا لم يقم ذلك الحاكم بما يجب نحو الوطن والأمة ، فان البحيري يهاجمه . وعلى هذا فان الشاعر صادق العاطفة في الحالتين ، فهو يحب من أجل الوطن ويكره من أجل الوطن .

واذا كان هذا شأنه مع الحكام ، فان عاطفة الاعتزاز بجهاد الأبطال تسيطر على كثير من قصائد شعره الوطني . يقول :

فلسطين في الدهر أمّ الجهاد وبنت الجلاد وأخت الفدا

ولولا بنوها لنام الكفاح وما مدّ يوما لنصر يدا

فهم أيقظوا الشرق من غفوة مضى في كراها مدى سرمدا

فهب ينافح بغي الدخيل ويدفع عن حوضه من عدا "1"

وهو بعاطفته الصادقة يثير حماس المؤمنين بحرية الوطن . يقول :

أخي قم بنا مثل حد الحسام اذا هو من غمده جرّدا

"فتل أبيب" لنا موعد ولن نرتضي غيرها موعدا "2"

ومن قصائده التي تغمرها العاطفة فتأسر القارئ بتأثيرها ،قصيدته

1- حيفا في سواد العيون ص 71-72 .
2- حيفا في سواد العيون ص 72-73 .

" حبيبتي فلسطين" حيث يناجي فلسطين بقوله :

فأنت من القلب دفق الدماء وأنت من العين إنسانها

وأنت من الروح سر الحياة وأنت من النفس وجدانها "1"

ان البحيري يحب الوطن حب المجاهدين الذين يضحون في سبيله بكل غال ونفيس. وكما يحب البحيري وطنه فانه يحب أمته ، ففلسطين جزء لا يتجزأ من الوطن العربي وشعبها جزء من الشعب العربي. ومن هنا فان عاطفة البحيري نابعة من تجربة يعيشها بكل أبعادها حياة وتضحية وفداء. ومن كان هذا شأنه فان الصدق هو الطابع المميز لشعره.

واذا كان صدق العاطفة هو الطابع العام لشعر البحيري ، فان هناك تفاوتا في قوة العاطفة ،ومن الطبيعي أن يكون ذلك ، اذ لا يمكن أن يعيش الشاعر على وتيرة واحدة من الاحساس ودرجة الانفعال في شعره كله ، بل ان قوة العاطفة تتفاوت بين أبيات القصيدة الواحدة . واذا كان شاعرنا يحب فلسطين حبا عظيما ويحن اليها من أعماق قلبه ، فان حبه وحنينه الى مدينة حيفا مسقط رأسه له سمة خاصة. ومن يقرأ قصائد البحيري عن حيفا يدرك مدى هيامه بمدينته ويدرك كذلك مدى حرقته وألمه لبعده عنها . ويكفي دليلا على ذلك أن عنوان أول ديوان طبعه بعد النكبة هو " حيفا في سواد العيون"

1- ظلال الجمال ص 69 .

انه يحن الى حيفا ويناديها من بعد نداء المولع الموجوع .

يشدني اليك شوق لو وصفت له   يراع شعري في صوب الحياة الغدق

ورحت بالحب والذكرى أصوره   دمعا على الخد أو حرفا على الورق

لجف حبري ولم أبلغ قرارة ما   ضمت جوانح صدري من لظى حرقي" "1"

ولا تغيب فلسطين عن ذهن الشاعر الا أن حيفا تبقى هي المدينة الأكثر حضورا في عقله ومشاعره . ان هذه العواطف الصادقة النابعة من تجربة يعيشها الشاعر بكل ما فيها ، هي التي حدت بفايز قنديل الى القول : " عند شاعرنا البحيري أصبحت حيفا هي البحيري وأصبح البحيري قطعة من حيفا ، خرجت مع الهجرة الفلسطينية" "2"

ان هذا القول يمثل مدى الانصهار بين البحيري ومدينته الجميلة حيفا . وان أبلغ تصوير للعلاقة الحميمة بين شاعرنا ومدينته حيفا ، لوحة الفنان مصطفى الحلاج التي تحمل عنوان" حيفا والبحيري" ويذهب الدكتور حسني محمود الى القول : " لا غرو أن يتمثل عارفو البحيري مدينة حيفا في سحنته وفي ملامحه ، كما يتمثلون البحيري معلما من معالم المدينة ، وفيهما معا وداعة لا تتناهى وحدّة لا تخبو على الزمان ، كأنهما تبادلا شرائح بعض السمات فيهما . أكسبها شيئا من سمات الانسان وأكسبته شيئا من سمات الطبيعة ، وحيفا بالنسبة اليه

1- لفلسطين أغني ص 77 .

2- مجلة الطلائع العدد 334 - 19/04/1977م .

هي الأم والأب والغذاء والهواء" "1"

هذا هو شأن البحيري في شعره الوطني، وهو كذلك في شعره القومي، فهو لا ينطق الا عن عاطفة صادقة . واذا كان حبه لفلسطين قد أملى عليه الكثير الكثير من القصائد ، فان حبه الأمته العظيمة قد تمخض عنه عدد كبير من القصائد تترجم جميعها مدى حرص البحيري على أمته ومدى حبه لها . انه يتألم من أعماق قلبه لفرقة العرب وشتاتهم ،فاذا لاحت بوادر الوحدة بين قطرين عربيين فاننا نراه فرحا مسرورا . وها هو يعبر عن فرحته إثر اعلان الوحدة بين مصر وسوريا . يقول :

نحن شعب واحد في موطن   مزّقت وحدته أطماع جاني
هزّت القربى دمانا للقا   ودعا الشوق هوانا للتداني
فتنادينا أناشيد منى   وتهادينا أغاريد أغاني
ومضينا في طريق الملتقى   نحو صبح ناشر نور الأمان "2"

ان عاطفة البحيري في شعره القومي عاطفة صادقة نابعة من أعماق وجدانه ، فهو ابن هذه الأمة يألم الآلامها ويفرح لأفراحها ، ويتفاعل مع كل ما يصطرع في جنباتها من أحداث .

1- مجلة شؤون فلسطينية العدد 125 .

2- لفلسطين أغني ص 68-70 .

وكما يصدق البحيري في التعبير عن نفسه في شعره الوطني والقومي فانه يصدق كذلك في قصائده التي تترجم حبه ، فعاطفته في شعر الحب صادقة لأن هذا الشعر صادر عن تجربة عاشها الشاعر . فاذا التقى بالحبيبة رقص قلبه فرحا وتخيل أن الدنيا تحولت الى دنيا من أغان وأناشيد . وما هذا الا دليل على عمق التجربة وصدق العاطفة . وتتغير هذه الصورة عندما يفترق الحبيبان نتيجة ظروف لم يستطيعا أن يتصديا لها ،فاذا بالزهور تبكي لتعاسة الحبيبين ، والبلابل تنوح ألما وحزنا . ولتوضيح ذلك أورد قوله :

عانقتني وبكت لي في العناق | فبكى الزهر وناح البلبل
واشتكت هول الأسى عند الفراق | فهفا الغصن وأنّ الجدول
والينبوع تهادت أدمعا | وغصون الدوح مالت جزعا

وذكرنا
حلم الماضي وأوهام الشباب
وبكينا
لأمان خلفت هذا العذاب
وتشاكينا الليال
وحديث الشوق طال "1"

ويتجلى صدق العاطفة كذلك في شعر الطبيعة . والبحيري منسجم معها

1- الاصائل والاسحار ص 137 .

الى الحد الذي ينطق فيه الجوامد ، وهو عاشق لجمال الطبيعة على نحو لا نجد له مثيلا عند شاعر من الشعراء الفلسطينيين . ويكفي أنه الوحيد من بينهم الذي أوحت له الطبيعة بديوان كامل هو ديوان " أفراح الربيع" كما ذكر الدكتور كامل السوافيري "1"

ان جمال الطبيعة يملك على شاعرنا حواسه ، فاذا به متحد مع كائنات الطبيعة ملتحق بها ناطق باسمها . ومن كان هذا شأنه فان عواطفه من الصدق والأصالة والقوة بحيث يصعب على كثير من الشعراء الذين تفاعلوا مع الطبيعة أن يصلوا الى مستواه .

وبالاضافة الى ما ذكرنا فان عاطفة الشاعر في شعره الديني صادقة كذلك وهي عاطفة الاجلال والتعظيم لله بديع السماوات والأرض . ان البحيري في شعره الديني يناجي ربه ، وليس هناك لحظة يكون فيها الانسان أكثر صدقا من تلك اللحظة التي يقف فيها بين يدي الله يشكره ويرجو فضله . ها هو يقول :

رب السموات الطباق بها تحيّرت العقول

وكواكب الأفلاك من برج الى برج تدول

وعلى مطاوي سرها تنداح من غيب سدول

يفنى الوجود وأنت حيّ لا تحول ولا تزول "2"

1- الاتجاهات الفنية في الشعر الفلسطيني المعاصر د . كامل السوافيري مكتبة الانجلو المصرية - ط1 سنة 1973م ص 114 .

2- تبارك الرحمن ص 152 .

وهكذا فان البحيري لا يصدر في شعره الا عن عاطفة صادقة ، وهو لا يقول الا اذا صهرته التجربة . وقد يعبر عن تجربته بمقطوعة ، كما قد يعبر عنها بقصيدة . وقد تقصُر المقطوعة بحيث لا تزيد عن بيتين أو ثلاثة ، وقد تطول القصيدة فتزيد على مئة بيت .

والمقطوعات كثيرة في شعر البحيري ، ويتضمن ديوانه الأول " الاصائل والاسحار" أكبر عدد من هذه المقطوعات بالقياس الى الدواوين الأخرى اذ يحتوي على ست وثلاثين مقطوعة ، والقصائد المتبقية من هذا الديوان - وعددها إحدى وثلاثون - قصيرة باستثناء قصيدة" المجد المضاع" التي تبلغ ثمانية وخمسين بيتا .

وترجع كثرة المقطوعات في شعره ، الى أنه صادق مع نفسه يعبر عن خواطره بمقدار مايكون تحت تأثير التجربة التي يحياها ، فاذا انحسر تأثير التجربة ، انتهت المقطوعة أو القصيدة ، بغض النظر عن عدد الأبيات . وقد يخطر على البال أن كثرة المقطوعات تعود الى عدم نضج شاعرية البحيري في شبابه ، اذ من المعروف أن الشعراء في بداية عهدهم بالشعر أصحاب نفس قصير ، ولا أدّعي أن البحيري يشذ عن ذلك . الا أن هذا لا يكفي لتبرير وجود المقطوعات وكثرتها ، والا فكيف نفسر نظم القصائد الطويلة والمقطوعات القصيرة في سنة واحدة .

أن البحيري لا يطيل الا اذا وقع تحت تأثير الحالة الشعرية ، وكانت هذه الحالة من قوة التأثير ، بحيث تدفعه الى التعبير عنها بما يتناسب معها من القصائد الطويلة ، أما اذا كان تأثير الحالة الشعرية لحظيا قصيرا، فان المقطوعات تنهض بهذا التأثير . وفي هذا دلالة على مدى صدق البحيري في شعره ، فهو لا يقول اذا لم ينفعل ، وتزداد أبياته أو تقل تبعا للدفق العاطفي وعمق التجربة .

واني أعزو السبب في تأثير البحيري في من يقرأ شعره الى أصالة تجربته وحرارة انفعاله". وكلما كان الشاعر دقيقا في سرد التفصيلات التي مرت بها التجربة ، من خلال النفس ، كان ذلك أدعى الى اكتمال العمل الأدبي وأضمن لا ستجاشة النفوس واستثارة المشاعر" على حد تعبير سيد قطب . "1"

" والتجربة الشعرية إفضاء بذات النفس بالحقيقة ، كما هي في خواطر الشاعر وتفكيره في اخلاص يشبه اخلاص الصوفي لعقيدته""2" ويستطيع الدارس لشعر البحيري أن يتعرف عليه من خلال شعره ، فيطلع على محنه وآلامه، بل ان الدارس يطلع من خلال شعره على أمور لا يستطيع معرفتها على حقيقتها الا اذا صحب البحيري أمدا طويلا .

1- النقد التطبيقي والموازنات ص 75 .
2- النقد الأدبي الحديث - د . محمد غنيمي هلال - دار ومطابع الشعب ط1 3 سنة 1964 ص 391 .

انه يتعرف من خلال شعره على حياته حلوها و مرها" واذا كان الشعر يدل على الشاعر كما عرفناه في حياته العامة والخاصة فهذه آية الشاعرية الأواهي " "1"

ومادامت العاطفة الصادقة هي الاساس في شعر البحيري ، فان هذه العاطفة تفصح عن ذاتها من خلال الأفكار والصور. والأفكار في قصائد البحيري هيكل متناسق البنيان ،ولا يشذ عن هذا الحكم الا بعض القصائد التي بدأها بمقدمات تقليدية بعيدة عن المضمون والهدف . وهذه الافكار أنواع ، فبعض القصائد تسيطر عليها فكرة واحدة يعالجها شاعرنا بمزيد من التفصيل ، مهتما بالجزئيات والدقائق . ويكثر هذا في قصائد الوصف، وعلى الخصوص تلك التي تصف مشهدا محددا . وأسوق مثالا على ذلك قصيدة " بركة" التي وردت في ديوان " أفراح الربيع" وفي مقدمة القصيدة يقول الشاعر: " بركة ماء كبيرة أتيتها عصر يوم الجمعة من ربيع سنة 1362 هـ أخذت أقطف الأزهار من حولها وألقي بها الى الماء فتجري بها الأنسام حيث تشاء" . وهذه المقدمة هي الفكرة التي سيطرت على القصيدة وقد نظم الشاعر حولها اثنين وعشرين بيتا مهتما بالجزئيات ودقائقها. والشيء نفسه يقال في قصيدة " زورق الاحلام" "2" والفكرة تدور حول زورق ينساب في " بحيرة الجليل" في ليلة مقمرة هادئة ، وكان في هذا

1- التيارات المعاصرة في النقد الأدبي ص 338 .
2- أفراح الربيع ص 13 .

الزورق شاعرنا وعدد من أصحابه . وتحتوي القصيدة على ثلاثين بيتا ، تتناول بالتفصيل جزئيات كثيرة تدور كلها حول موضوع واحد .
ومن القصائد التي تدور حول فكرة واحدة قصيدة " ناي " "1" وهي سبعة وثلاثون بيتا ، وقصيدة " وداع عود " "2" وهي ثلاثة وثلاثون بيتا ، وقصيدة " وصمة في تاج " "3" وهي أربعة وتسعون بيتا ، والأمثلة كثيرة ومتعددة .

وبالاضافة الى القصائد ذات الفكرة الواحدة هناك القصائد التي تتعدد فيها الأفكار ، بحيث لا يشكل عنوان القصيدة سوى جانب من الأفكار . ومن الأمثلة على ذلك قصيدة " على جناح الخيال " "4" التي يحن فيها البحيري الى فلسطين بعد النكبة ، حيث يتخيل طيفا زار فلسطين وعاد فسأله الشاعر بأسلوب إيحائي موء ثر عن الأرض برباها وسفوحها ومروجها وشطوطها ، عن الغرباء الذين ينعمون بخيراتها . ثم ينتقل الى الحديث عن جهاد الشعب الفلسطيني وتضحياته ، وبعد ذلك ينتقل الى فكرة أخرى ، حيث يحمل على الخونة والمتخاذلين من حكام العرب ، ويختم القصيدة بدعوة فلسطين للصبر حتى يحكم الله .

ومن الملاحظ أن هذه القصيدة قد جمعت عددا من الأفكار ، وقد وفق الشاعر في الربط بينها فجاءت متناسقة مع السياق العام

1- أفراح الربيع ص 68 . 2- أفراح الربيع ص 72 .
3- لفلسطين أغني ص 101 . 4- حيفا في سواد العيون ص 41 .

القصيدة . فالحنين الى الأرض يفضي الحديث عن النكبة الفلسطينية بكل مافيها من تضحيات وآلام وخيانة ، ومن هنا فان اللحمة بين الأفكار قوية ومتينة ، وهذا بشكل عام هو شأن البحيري في جميع القصائد التي تتعدد فيها الأفكار مهما كان طولها .

ان قصيدة " الانهر الظمأى"1 مئة وأربعة أبيات وهي مع هذا تدور حول محور واحد ، ومع أن الأفكار تتعدد الا أنها تلتف حول محورها ، وهو ألم الشاعر من تبديد طاقات العرب الذين يعيشون في ذل تحت وطأة الطغاة من المستبدين . وقصيدة" أي أمة نحن "2 ثمانية وثمانون بيتا ،تتعدد أفكارها لكنها تدور حول محور واحد ، وهو تحريض الأمة العربية على جمع الطاقات ، والانتفاضة في وجه المستعمرين متسلحة بالعلم والعمل .

وقد يمر البحيري على الأفكار الجزئية مرورا عابرا ، وقد يقف عندها وقفة قصيرة الا أنه في بعض الأحيان يطيل الوقوف عند فكرة من الأفكار ،فيكثر من التفصيل وتتبع الجزئيات ، ومن ذلك ما نلاحظه في قصيدة " منائر الهدى "3 حيث يتناول فكرة التصميم على قتال الاعداء حتى تحرير فلسطين ، فيأتي بجزئيات كثيرة وتفصيلات متعددة لأوجه المقاومة والقتال بحيث يخيل للقارىء أن الشاعر لم يترك شيئا منها .

1- الانهر الظمأى ص 47 .   2- الانهر الظمأى ص 77 .

3- لفلسطين أغني ص 47 .

وعلى الرغم من هذا التفصيل وهذا التتبع لجزئيات الفكرة فان محور القصيدة يبقى واضحا تتجمع حوله الأفكار.

ان الاهتمام بالأفكار وترابطها سمة بارزة عند البحيري، يلحظها كل من يطلع على شعره، ومع ذلك فان في قصيدته "مهرجان الرسول" "1" اضطرابا وتناقضا في المضمون، واستغرب كيف لم يتنبه الشاعر لمثل هذا الخلل. ان مقدمة هذه القصيدة تضمنت وصف جمال الربيع واستغرقت ستة وعشرين بيتا، ولم يوفق الشاعر في الربط بين المقدمة وجسم القصيدة، فوقع في تناقض كبير. ان هذه المقدمة جاءت قصيدة مستقلة في ديوان "أفراح الربيع"، وهي متناسقة مع بعضها، وقد وردت تحت عنوان "شباب الربيع وربيع الشباب" "2 1" ولكن الاتيان بها كمقدمة في قصيدة "مهرجان الرسول" أحدث خللا كبيرا في الأفكار، بحيث ظهر التناقض واضحا. انه يقول في المقدمة :

واملأ فؤادك بالهوى وشجونه   وانهل مع اللذات من أكوابه
لاكان قلب نام عنه عهد الهوى   أو لم يذب شوقا الى أحبابه
واذا المنى مدت بصافية يدا   مزج الشباب رضابها برضابه
فاشرب طلاها وارو من كاساتها   وأرح فؤادك من عناء عذابه "3"

ان هذه دعوة واضحة للهوى واللهو، لا يلبث الشاعر أن يأتي

1- ابتسام الضحى ص 53.   2- أفراح الربيع ص 82.
3- ابتسام الضحى ص 56.

بعدها بما يتناقض مضمونها حيث يدعو الى ترك اللهو وهجر الحياة الرخية الناعمة . يقول :

فيم المفارح ؟ والعدى في دارنا يقظت طوارفها لأمر نابه

أتلهياً ؟ والعرب في أغلالها وتسلياً ؟ والشرق في أوصابه

وتنعماً ؟ والشعب سوء ود الخطي عن حقه والذل بعض شرابه "1"

ولا أدري لماذا وقع الشاعر في هذا التناقض . ولا أجد مبررا لجعل قصيدة مستقلة في ديوان أفراح الربيع المطبوع عام 1944م عنوانها " شباب الربيع وربيع الشباب " مقدمة لقصيدته " مهرجان الرسول " التي تضمنها ديوان " ابتسام الضحى " المطبوع عام 1946م . ولو كانت هذه المقدمة متناسقة مع مضمون القصيدة لكان من الممكن تقبلها . أما أن تكون متناقضة كما أوضحنا فانه أمر غير مقبول من شاعر كبير مثل حسن البحيري .

وباستثناء ماذكرت فان البحيري يسوق الأفكار في قصائده متعانقا بعضها مع بعض من أجل الوصول الى الهدف الذي يريده، دون أن يحس القارئ بملل . فالشاعر قادر على شد القارئ اليه من خلال الأفكار الواضحة ، والعواطف المتدفقة ، والأسلوب المشرق المتين .

ويدعم البحيري أفكاره بايراد الحكم في قصائده ، ويحس الدارس أن هذه الحكم متلاحمة مع الأفكار ، موضحة لها ، وأنها جاءت

1- ابتسام الضحى ص58 .

من خلال تجربة الشاعر ومعاناته . وهي تأتي مع سياق النص دون أن نحس أي تكلف من الشاعر في ايرادها .

ومما يلاحظه الدارس أن كل ديوان من دواوين البحيري يغلب عليه غرض من الأغراض الشعرية ، وذلك بنسب متفاوتة . فديوان "الاصائل والاسحار" يغلب عليه الغزل ، وليس كما يقول الشاعر هارون هاشم رشيد بأن هذا الديوان مقتصر على الغزل . فأي غزل في مقطوعة " أخ " "1" وقصيدة " رثاء حبيب" "2" وفيها يرثي صديقا له يدعى أسعد اسماعيل عوض ، وكذلك قصيدة " نجوى " "3" ، وهي مناجاة للمرحوم نفسه ، وقصيدة" عند ضريح "4" وهي تفجع وألم . وأي غزل في مقطوعة " تاريخ ورثاء " "5" ، وهي في رثاء الشهيد أحمد فارس ، ومقطوعة " تحية " "6" ، وهي وصفية لا غزل فيها ، ومقطوعة " وحدة " "7" ، وقصيدة " جدول " "8" ، والمقطوعات " أغصان " "9" ، " ياسمين " "10" ، " ورد " "11" ، " حمائم " "12". هذا بالاضافة الى الأناشيد الوطنية " هبوا" ، "13" " اللواء " ، "14" " نحو المجد " "15" .

وعلى هذا فان القول بأن ديوان " الاصائل والاسحار" مقتصر على الغزل كلام تنقصه الدقة . واطلاق تسمية ديوان الغزل على هذا الديوان من قبل الدكتور ناصر الدين الاسد "16" يمكننا أن نقبلها من باب تغليب قصائد ومقطوعات الغزل على غيرها .

من 1- الى 15 - ديوان الاصائل والاسحار ص 44-57-60-62-64-74-76-77-83-84-86-123-125-127 . على الترتيب .

16- محاضرات في الشعر الحديث في فلسطين والاردن ص 185 .

ومن الجدير بالذكر أن قصائد الغزل ومقطوعاته ليست قاصرة على ديوان واحد فهي موجودة بنسب متفاوتة في عدد من دواوينه .

أما ديوان "أفراح الربيع" فهو ديوان الطبيعة ، "1" يتخلله عدد من القصائد الغزلية وقد كتبت عنه فدوى طوقان في مجلة "الرسالة" عام 1944م : " هذا الديوان كتاب الطبيعة المفتوح ، وقد زافت في منظرها الفتان ،وفي جوها الذي سبح فيه خيال الشاعر تتضوع الأزهار ،وترف الأنداء على ثغورها رقيقة براقة ، وهناك الجدول الراقص من فرط الطرب . . بل هناك الدنيا ترف أمام عيوننا طيبا ونورا ، وتمتلئ شذا وعطورا" "2" .

أما ديوان " ابتسام الضحى " فهو ديوان الوطنية "3" وقصائد الديوان من أولها الى آخرها تندرج ضمن هذا الاطار الوطني ولا تخرج عنه.أما ديوان "حيفا في سواد العيون" فلم يراع الشاعر فيه منهجا معينا ويغلب على هذا الديوان الطابع الوطني وتتخلله مقطوعات وقصائد غزلية ودينية . وقد نسخ كل قصائد هذا الديوان الخطاط السوري الكبير المرحوم بدوى الديراني ، ما عدا الأبيات الأربعة المثبتة متوالية في نهاية قصيدة "لآلىء حواء" ، وما عدا السبعة عشر بيتا المثبتة متوالية في نهاية قصيدة " أمّة تحتضر" ،فقد كتبها

1- انظر الشعر الحديث في فلسطين والاردن ص 185 .

2- حيفا والبحيري ص 388 .

3- الشعر الحديث في فلسطين والاردن ص 185 .

تلميذه المجاز منه الخطاط السوري الموهوب السيد محمود الهواري بعد وفاة المرحوم بدوي "1". ويقول البحيري "لم يضم هذا الديوان غير ما خط المرحوم بدوي من قصائدي." وبسبب التزام البحيري هذا فقد ضم الديوان قصيدة "أفراح المواكب" مع أنها منشورة في ديوان "أفراح الربيع" وليس من سبب لذلك سوى أنها مكتوبة بخط المرحوم بدوي "2" ومن هنا فان العامل في جمع قصائد هذا الديوان هو عامل جمالي بحت، وليس هناك سبب آخر.

وقد علق السيد مصطفى عكرمة على ديوان "حيفا في سواد العيون" بقوله: "الديوان زاخر بالوجد الوطني. والصدق والأصالة الميزتان الأساسيتان لقصائده"3 كما كتب عنه الكاتب محمد قرانيه، فقال: هذه القصائد واللوحات التصويرية، التقطها الشاعر من واقعه الحزين فجاءت واقعيتها المؤلمة مغلفة بغلاف شفاف من الرومانتيكية الحالمة حينا، الصاخبة حينا آخر.. لقد توهجت التجربة لدى الشاعر وتدفق السيل الشعري من أعماقه نتيجة المعاناة، وهذا التدفق والتوهج يخلقان له أنسب الاطر لصياغة فنه الشعري" "4"

أما ديوان "لفلسطين أغني" المطبوع عام 1979م، فهو ديوان الشعر الوطني والقومي من أوله الى آخره باستثناء قصيدة "الفنان"

1- حيفا في سواد العيون ص 40. 2- حيفا في سواد العيون ص 60.

3- مجلة الشبيبة الفلسطينية - السنة 2 - العدد 12 - ابريل 1974م دمشق.

4- مجلة الثقافة الاسبوعية العدد 33 آب 1974م الرقم 506.

ص 133 التي لم تخل هي أيضا من مسحة وطنية في آخرها .

أما ديوان ظلال الجمال المطبوع عام 1981م ، فهو ديوان يغني فيه للوطن من خلال الطبيعة ، ويغني المحبيبة من خلال جمال الطبيعة أيضا . أما ديوان " الانهر الظمأى " المطبوع عام 1982م ، فهو ديوان الشعر الوطني والقومي من ألفه الى يائه . وأخيرا صدر ديوان شعره الديني " تبارك الرحمن" عام 1983م ، وهو قاصر على الشعر الديني فقط .

ويستعين البحيري بالصور في توضيح مضامين شعره . وتأتي هذه الصور جزئية أحيانا بحيث لا تكون فيما بينها رسما متكاملا ، بينما تأتي أحيانا أخرى متكاملة ، بحيث تشكل صورة فنية لها أبعادها وسماتها المتجانسة . ومن الطبيعي أن النص الأدبي عمل متكامل ، اذ لا يمكن دراسة الأسلوب بمعزل عن الافكار والعواطف والصور ، لأن عناصر العمل الأدبي تتعاون فيما بينها بحيث تخرج تجربة الأديب وأحاسيسه الى حيز النور . ومن هنا فان الصور عند البحيري ممتزجة مع النص الشعري . وقد تأتي هذه الصور فسيفسائية كما يتضح في الأبيات الاتية التي يتحدث فيها عن جمال فلسطين فيقول :

ماؤها السلسبيل فاض لجينا   في ثراها وسال خمر دنان

فهو درّ يذاب في فضة الكأس وعطر يدار بالألحان

وثراها مسك ونثر حصاها   لؤلؤ شع في جيود الغواني "1"

1- ابتسام الضحى ص 81-82 .

ان المضمون في الأبيات السالفة دار حول الماء والشرق ، وقد تعددت الصور حول هذا المضمون ، وهي صور فردية لا تشكل فيما بينها رسما متكاملا . وقد لاحظت أن الصور الفردية تغلب على القصائد الوطنية والقومية التي تتعدد فيها الافكار وتتنوع ، بحيث يكون شاعرنا مشغولا بمضامين أفكاره وجزئياتها ، ولا يسعفه سياق القصيدة بما فيها من أفكار جزئية أن تتكامل الصور عنده . ولكن الشاعر عندما يركز على موضوع واحد فان الصور تتعانق وتتعاون راسمة صورة متكاملة ،بحيث لو أعطيت القصيدة لرسام بارع لاستطاع أن يحيل القصيدة الى لوحة فنية تحمل مضمون القصيدة وما ترمز اليه من دلالات ومن الشواهد على ذلك قصيدته " الموجة العذراء" التي قالها على ضفاف نهر "بردى" وقد جاء فيها :

تركتني ساهما في موضعي ... وضعتني وانما ترجع
موجة عذراء ناغاها السنى ... بأناشيد هيام مولع
كلما مرت بها عاطرة ... من ربى الخلد مرور المسرع
سحب النور على آثارها ... ذيل نجم عسجدي المطلع
وتثنى عطفها من نشوة ... كأسها لم تدر معنى الأدمع
وتهادى الغصن في ضفتها ... فوق ممدود البساط الأمرع
حانيا عطفا عليها مثلما ... تنحني المرضع فوق المرضع "1"

1- ظلال الجمال ص 91-92 .

ان التكامل بين الصور في هذه الأبيات واضح ، ويستطيع الرسام مثلاً - معتمداً على هذه الصور - أن يرسم لوحة موضوعها "الموجة الصفراء" .

والتكامل بين الصور يظهر غالبا في شعر الطبيعة وشعر الحب ، حيث يكون اهتمام الشاعر منصبا على موضوعات محددة ، مما يساعده على رسم معالم الصورة التي يريدها ، دون أن يكون محكوما بسياق قصيدة تقتضي منه الاسراع من أجل الاحاطة بموضوع تتعدد فيه الجزئيات .

والصور عند البحيري سواء كانت فردية أو متكاملة ، تكاد أن تطغى على شعره كله . ولا يستطيع الدارس أن يجد قصيدة تخلو من الصور . واني اعزو هذا الى جمال الطبيعة الذي تشربه قلب الشاعر ، فنما هذا الجمال فيه فأصبح من خلاله يصور مشاعره وأحاسيسه ، هذا بالاضافة الى مشاهد الحياة الفرحة والحزينة ، وما رسخته في نفسه من صور ساعدته على جلاء الكثير من مضامين شعره .

وشاعرنا قادر على التصوير بألفاظ وعبارات بعيدة عن المجاز ، ومع هذا فانه يبدع في تصوير ما يريد . ويذهب الدكتور محمد غنيمي هلال الى القول : " قد تكون العبارات حقيقية الاستعمال ، وتكون

مع ذلك دقيقة التصوير دالة على خيال خصب "1" ومن ذلك ما ورد في قصيدة "أمة تحتضر" حيث يقول الشاعر:

وقفت أجيل وجوه الفكر ونار الجوى في الحشا تستعر
بذي عمّة هام قبل الصباح يرتل بين القبور السور

ويصف ذا العمة هذا بقوله:

عجبت له عند صمت الرفات يناجي الحياة بلحن جهر
فيرسلها صيحة بالرغام كأن له نهية تعتبر
وريد يدر وصوت يصر وجذع بميد عجيب يكر
ورأس لذات اليمين وذات الشمال يموج فلا يستقر
وصدر يدوي بأم الكتاب يسجعه لعظا منخر "2"

ولا يكتفي البحيري بالتصوير من خلال الحقيقة والمجاز كما أسلفنا بل يتعدى ذلك الى إنطاق الجوامد من حوله، فاذا بالطبيعة تحاوره ويحاورها. انه في هذا الحوار يتقمص الكائنات فاذا بها تتحدث وتترجم مشاعره وأحاسيسه وهذا ما أشار اليه الدكتور ناصر الدين الاسد حيث قال: ان البحيري يستنطق الاشياء ويبث فيها الحياة فتصبح وكأنها نفوس حيّة تتجاوب معها نفسه وتتعاطف فيهم عنها مطلا يستطيع غيره أن يدركه "3" ومن القصائد التي تكشف عن ذلك قصيدته

1- النقد الأدبي الحديث ص 468.
2- حيفا في سواد العيون ص 90-91.
3- الشعر الحديث في فلسطين والاردن ص 190.

" كوكب الصبح " وهي من القصائد الرائعة في هذا المجال ، وفيها يخاطب حبيبته مبينا لها أن كوكب الصباح تأخر ليحييها ويتلقى منها التحية . وفيها يقول :

تأخر كوكب الصبح عن الركب الذي بانا
وظل على جبين الأفق بالأشواق حيرانا
وعاني من جوى الوجد وراء السهد ماعاني
وبات عليك سهرانا الى مرآك لهفانا
فبث كواكب الأفلا ك من حبك أشجانا
وما ودع أظعانا وما شيع ركبانا
من الأنجم الا كي يراك الصبح يقظانا
ويلقي بتحيات الصباح اليك جذلانا
ألست تراه في فيض من الأنوار هيمانا
فرد عليه بالتصبيح انعاما واحسانا
ليغفو في فراش النور بالفرحة حلمانا "1"

ان الشاعر البحيري يمعن في الخيال أحيانا بحيث يتخيل أمورا لا صلة لها بالواقع ، لكن لها صلة بمشاعره وأحاسيسه . ها هو ينعكس ما في ذهنه على عيني حبيبته ، فيرى فيهما مالا يراه غيره . يقول :

1- أفراح الربيع ص 34 .

عين رأيت بسحرها وفتونها　　أحلام عهد بالصفاء مظلل

ولمحت بين سوادها وبياضها　　ظل الصنوبر في أعالي "الكرمل"

فعلى جفونك لاح طيف ربيعه　　والحسن موطئه بساط المخمل

والسوسن المطلول بين صخوره　　خفق العطاف على أغاني البلبل

ومضاجع الأحباب في أحضانه　　بين الخمائل من حرير موصلي

والريح تشدو في ملاعب روحه　　نغما تنام له عيون العُذَّل "1"

إن عين الحبيبة التي ملكت عليه حواسه تصبح ترجمانا لما في قلبه من أحاسيس، بل ان عين الحبيبة تصبح عينه يرى من خلالها ذاته، بكل ما تحمله هذه الذات من مشاهد وذكريات .

وقد كان الكاتب ابراهيم سعفان محقا عندما قال :
إنه هام مع البحيري على أجنحة شعره العذب السلس وصوره الشعرية في عالم فني يبين قدرة الشاعر وامتلاكه الأدواته الفنية وأصالته "2" وقد نبّه الناقد الأديب رشاد أبو شاور الى ذلك عندما قال : " البحيري شاعر وصاف، وأحيانا ينقل وصفه حالة نفسية وانسانية درامية مدهشة.. ويمزج بين الصور الحسية والصور النفسية، بين الحب والشوق والغضب، فيتألق عاشقا فلسطينيا بلغة عربية مشرقة جميلة " "3" .

1- حيفا في سواد العيون ص 109 .
2- مجلة التحرير - ملحق اسبوعي لمجلة الثقافة العدد 14 - 25 يناير 1974م.
3- جريدة الوحدة - ابوظبي - 1980/10/12م.

جـدول تاريخي لقصائد البحيري

هذا جدول بالقصائد المطبوعة والمخطوطة المؤرخة وغير المؤرخة أردت من خلاله أن أبين الفترات الزمنية التي كان فيها البحيري أكثر انتاجا . وبناء على دراستي الشاملة سأحلل النتائج التي أخرج بها من هذا الجدول . وقد دفعني الى ذلك ما لاحظته من خلط لدى الدارسين لشعر البحيري ، حيث يذهب بعضهم الى التعامل مع قصائده المطبوعة بعد النكبة ، وكأنها قيلت بعد النكبة ، مع أن الحقيقة هي أن الغالبية العظمى من الشعر في هذه الديوان قيل قبل النكبة وليس بعدها .

وقد تناولت ديوان البحيري مضبطبعة حسب تاريخ الطبع . وقد أورد البحيري تاريخ نظم بعض القصائد وفق التقويم الميلادي ، وأورد بعضها الآخر وفق التقويم الهجري . أما في الجدول الذي قمت باعداده فقد اعتمدت التاريخ الميلادي في جميع القصائد تسهيلا للدراسة .

ديوان الاصائل والاسحار وقد طبع عام 1943م .

قيم	الرقم	القصيدة أو المقطوعة	عدد الأبيات	تاريخ النظم
	1	ايل وفجر	13	بلا تاريخ
	2	صنم	12	أكتوبر 1941م
	3	أنت	11	مارس 1942م
	4	سابية	9	فبراير 1942م
	5	رشأة	10	يونيو 1942م
	6	الجمال	4	أغسطس 1942م
	7	الطيف	4	أبريل 1942م
	8	لا تظنن الليالي	12	بلا تاريخ
	9	رسالة	5	بلا تاريخ
	10	سورة	12	بلا تاريخ
	11	غريم	6	بلا تاريخ
	12	إياب	7	بلا تاريخ
	13	اه الله	4	بلا تاريخ
	14	الهوى الباقي	8	بلا تاريخ
	15	الأحلام	4	بلا تاريخ
	16	سكر	10	بلا تاريخ
	17	ورقاء	7	بلا تاريخ

الرقم	القصيدة أو المقطوعة	عدد الأبيات	تاريخ النظم
18	سكوت	4	بلا تاريخ
19	على باب داري	3	بلا تاريخ
20	على جدار غرفتي	12	ديسمبر 1941م
21	فوق سريري	4	بلا تاريخ
22	الأسى	6	ديسمبر 1941م
23	ولما	6	بلا تاريخ
24	احتمال	9	أغسطس 1941م
25	أخ	4	أغسطس 1941م
26	اسوف تذكر	6	بلا تاريخ
27	اليه	8	نوفمبر 1941م
28	جزاء سنمّار	18	بلا تاريخ
29	عشرة	11	بلا تاريخ
30	إلف	3	نوفمبر 1942م
31	اذهب	4	بلا تاريخ
32	رثاء حبيب	17	بلا تاريخ
33	نجوى	14	بلا تاريخ
34	عند ضريح	22	بلا تاريخ
35	تاريخ ورثاء	8	بلا تاريخ
36	ظلال وعيون	11	يوليو 1942م

الرقم	القصيدة أو المقطوعة	عدد الابيات	تاريخ النظم
37	ينبوع	9	مايو 1942م
38	روضة	11	بلا تاريخ
39	تحية	9	ربيع 1941م
40	وحده	3	بلا تاريخ
41	جدول	19	يوليو 1942م
42	الربيع	10	بلا تاريخ
43	أغصان	2	أكتوبر 1941م
44	ياسمين	4	بلا تاريخ
45	ورد	7	بلا تاريخ
46	حمائم	8	بلا تاريخ
47	المجد الضائع	58	بلا تاريخ
48	عزاء	7	بلا تاريخ
49	هم هم	2	بلا تاريخ
50	معاذ الهوى	6	ديسمبر 1940 م
51	صغير	16	أكتوبر 1942 م
52	مواساه	5	بلا تاريخ
53	أقصوصة	22	بلا تاريخ
54	ديارها	10	أكتوبر 1942 م

الرقم	القصيدة أو المقطوعة	عدد الابيات	تاريخ النظم
55	أمينة	14	ديسمبر 1942 م
56	على الشاطئ	28	فبراير 1941 م
57	يا طير	12	بلا تاريخ
58	هبوا	10	بلا تاريخ
59	اللواء	12	بلا تاريخ
60	نحو المجد	15	بلا تاريخ
61	وداع	12	بلا تاريخ
62	في الليل	10	بلا تاريخ
63	مشهد	10	بلا تاريخ
64	تهنئة	4	بلا تاريخ
65	باقة	2	بلا تاريخ
66	قران	2	بلا تاريخ

الخلاصة : جميع القصائد والمقطوعات المؤرخة في ديوان الاصائل والاسحار محصورة بين عام 1940م وعام 1942م.

ديوان أفراح الربيع وقد طبع عام 1944 م.

الرقم	القصيدة أو المقطوعة	عدد الابيات	تاريخ النظم
1	الى شاعر شباب النيل احمد رامي	6	ماي 1944 م
2	زورق الاحلام	30	1943 م
3	عيد في عيد	26	1943 م
4	صباح العيد	20	1943 م
5	فرحة	17	بلا تاريخ
6	نشوة	6	جوان 1943 م
7	فاس	5	جانفي 1943 م
8	نجم	5	ديسمبر 1942 م
9	بركة	22	1943 م
10	كوكب الصبح	11	1942 م
11	جميل	11	1942 م
12	قمر	2	1943 م
13	بدر	2	1943 م
14	حرير	2	1943 م
15	قرنفلة	2	1943 م
16	نشوة الربيع	20	1943 م
17	عثمان	11	1942 م

الرقم	القصيدة أو المقطوعة	عدد الابيات	تاريخ النظم
18	غزال	11	1942 م
19	الموعد	48	1943 م
20	ساق	4	بلا تاريخ
21	زجاجة	4	بلا تاريخ
22	زهرة العمر	27	مارس 1944 م
23	عازف	30	جوان 1943 م
24	ناي	37	1943 م
25	وداع عود	33	1944 م
26	سمان	14	بلا تاريخ
27	عود ومغني	16	1943 م
28	شباب الربيع وأزبيع الشباب	22	بلا تاريخ
29	نزهة	18	1943 م
30	غصن	4	بلا تاريخ
31	غروب	4	بلا تاريخ
32	وادي الاحلام	21	بلا تاريخ
33	رفرف	2	1943 م
34	الزنبق	2	1943 م

35 الخلاصة : جميع القصائد والأمقطوعات المؤرخة في ديوان أفراح الربيع محصورة بين عام 1942 م وعام 1944 م .

ديوان ابتسام الضحى وقد طبع عام 1946م.

الرقم	القصيدة أو المقطوعة	عدد الابيات	تاريخ النظم
1	الفاروقية	50	1945م
2	نشيد بلادي	12	1936م
3	عيدي	2	بلا تاريخ
4	الشرق	51	1945م
5	اهب الشباب	12	1936م
6	مهرجان الرسول	50	1944م
7	دم العروبة	2	بلا تاريخ
8	سوريا الكبرى	14	بلا تاريخ
9	عيد النهضة	65	1945م
10	معاقلنا	10	1936م
11	حنين	31	1944م
12	جهاد لبنان	72	بلا تاريخ
13	قومي	6	1936م
14	على هامش الهجرة	47	1944م
15	عيد العروبة	2	بلا تاريخ
16	عيد الميلاد	37	1944م

الخلاصة : 1- أربع من القصائد والمقطوعات المؤرخة في هذا الديوان قيلت عام 1936
1936م 2- بقية القصائد والمقطوعات المؤرخة قيلت بين عام 1944م وعام 1945

ديوان حيفا في سواد العيون وقد طبع عام 1973م.

الرقم	القصيدة أو المقطوعة	عدد الابيات	تاريخ النظم
1	على جناح الخيال	44	شتاء 1949 م
2	الصنم المعبود	58	خريف 1946 م
3	عند الصباح	8	صيف 1951م
4	لاآبيء حواء	37	ربيع 1946 م
5	انا النسر	30	ماي 1948 م
6	عصي الملوك	39	جويلية 1948م
7	صوت من فلسطين	41	نوفمبر 1947م
8	الشهيد	7	1948 م
9	أمة تحتضر	50	صيف 1946م
10	جنة الورد	20	صيف 1953م
11	حيفا تحت ضوء القمر	7	صيف 1945م
12	أمير الحسن	10	جانفي 1953م
13	حيفا في سواد العيون	27	نوفمبر 1950م
14	ليل من الجنة	21	صيف 1955م
15	أنفاس الوطن	5	صيف 1951م
16	وطن العبيد	35	آب 1947م
17	على شاطىء الحياة	33	صيف 1948م

تاريخ النظم	عدد الأبيات	القصيدة أو المقطوعة	الرقم
صيف 1953 م	54	حبيبي	18
خريف 1944 م	72	نشوة الخيام	19
ربيع 1942 م	26	أفراح المولد	20

الخلاصة : 1- ثلاث عشرة قصيدة و مقطوعة مؤرخة قيلت بين عام 1942م وعام 1949 م.

2- سبع قصائد و مقطوعات مؤرخة قيلت بين عام 1950م وعام 1955 م.

ديوان الفلسطين أغني وقد طبع عام 1979 م.

الرقم	القصيدة أو المقطوعة	عدد الابيات	تاريخ النظم
1	منائر الهدى	58	فبراير 1976م
2	مهد المسيح	21	ديسمبر 1959م
3	مولد ثورة	3	نوفمبر 1947م
4	أفراح الوحدة	38	فبراير 1958م
5	اغنية الى حيفا	18	ربيع 1973م
6	المسجد الأقصى	68	اغسطس 1948م
7	غصون السلام	5	خريف 1947م
8	وصمة في تاج	44	1946م
9	رايات الفدا	6	جوان 1967م
10	البلابل	73	ابريل 1945م
11	الفنان	47	سبتمبر 1954م
12	غابة	3	شتاء 1944م
13	عرس الشهيد	58	نيسان 1955م

الخلاصة : 1- ست قصائد ومقطوعات قيلت بين عام 1944 وعام 1948م

2- أربع قصائد بين عام 1954م وعام 1959م .

3- قصيدة واحدة عام 1967م .

4- قصيدتان بين عام 1973م وعام 1976م .

ديوان ظـــلال الجمـــال وقـــد طبـــع عـــام 1981م

الرقـــم	القصيدة أو المقطوعـــة	عدد الابيات	تاريخ النظـــم
1	حبيبتي فلسطيـــن	65	ابريـــل 1980م
2	دمعـة في ربيع الكرمـل	65	ربيـــع 1945م
3	الموجـة العـذراء	22	مـــاي 1956م
4	غريب الأمـــانـــي	22	شتـاء 1955م
5	طيف الحبيـــب	16	صيـــف 1951م
6	هـجـرا ن	43	صيـف 1956م
7	اسـت الـــي	33	مـــاي 1955م
8	لـــــو	3	خريـــف 1939م
9	عـــلاقـــة	10	مـــارس 1944م
10	تركتك للأيـــام	10	خريف 1944م
11	الى حبيبـــــي	53	سبتمبر 1944م
12	المـوعـد المطيـب	20	ربيـــع 1943م
13	صـــلاة	12	شتـــاء 1944م
14	فجـــــر	3	صيـــف 1944م
15	أطعمتهـا عنبـــا	10	صيـــف 1944م
16	على غيـر ميعـــاد	47	ربيـــع 1944م

الخلاصـــة : 1- تسع قصـائد ومقطـوعـات قيلت بين عام 1943م وعام 1944م.
2- مقطـوعـة واحدة عـام 1939م.
3- خمس قصـائد قيلت بين عام 1951م وعـام 1956م.
4- قصيدة واحـدة عـام 1980م.

ديوان الانهر الظمأى وقد طبع عام 1982م.

الرقم	القصيدة أو المقطوعة	عدد الابيات	تاريخ النظم
1	الانهر الظمأى	104	مارس 1958م
2	زهرة البرتقال	7	ابريل 1947م
3	الداء والدواء	70	نوفمبر 1945م
4	أي أمة نحن	88	نوفمبر 1946م
5	فلسطين	52	اغسطس 1948م
6	بيت المجد	36	نوفمبر 1979م
7	السلام	2	ابريل 1945م
8	دمشق	52	سبتمبر 1946م
9	صوت الشرق	40	مايو 1946م
10	ياأمتي لن تقهري	15	يونيو 1967م
11	ذكرى عمّان	52	مايو 1945م

الخلاصة : 1- ست قصائد ومقطوعتان قيلت بين عام 1945م وعام 1948م.

2- قصيدة واحدة عام 1958م.

3- قصيدة واحدة عام 1967م.

4- قصيدة واحدة عام 1979م

ديوان تبارك الرحمن وقد طبع عام 1983م.

تاريخ النظم	عدد الابيات	القصيدة أو المقطوعة	الرقم
بلا تاريخ	21	وجه الله	1
بلا تاريخ	16	الأرض	2
بلا تاريخ	28	الزهر والثمر	3
بلا تاريخ	21	الطيور	4
بلا تاريخ	28	النحل	5
بلا تاريخ	46	البحر	6
بلا تاريخ	41	بديع السموات والأرض	7
بلا تا=ريخ	40	النجوم	8
بلا تاريخ	16	الشمس	9
بلا تاريخ	4	الرياح	10
بلا تاريخ	10	اقبال رمضان	11
بلا تاريخ	10	بيوت الله	12
بلا تاريخ	9	ياحيّ ياقيوم	13
بلا تاريخ	40	هو الله	14
بلا تاريخ	5	اليوم وغدا	15

الخلاصة : ديوان "تبارك الرحمن" وردت جميع قصائده غير مؤرخة على خلاف دواوينه السالفة ، التي نعرض على تأريخ معظم قصائده ومقطوعاته الواردة فيها .

المخطوط من شعره

الرقم	القصيدة أو المقطوعة	عدد الابيات	تاريخ النظم
1	الكأس	15	ديسمبر 1942م
2	قاسم حبسر	8	اكتوبر 1943م
3	رثاء شاعر	18	ماي 1943م
4	شكر وثناء	6	جانفي 1945م
5	وفاء	12	ابريل 1960م
6	القنيطرة المدمرة	43	سبتمبر 1974م
7	تل الزعتر	47	اغسطس 1976م
8	ريحانة العاصي	70	مارس 1977م
9	أمير البخلاء	106	بلا تاريخ
10	خطيب الحق	6	بلا تاريخ
11	على قبر المرحوم اسعد عوض	11	بلا تاريخ

ملاحظة : يضاف الى هذه القصائد والمقطوعات المخطوطة عدد من القصائد والمقطوعات غير المؤرخة وردت بلا عناوين .

الخلاصة العامة

بناء على الجداول السابقة التي تضمنت القصائد والمقطوعات المؤرخة نخرج بالنتائج الآتية :

أولا :- من عام 1936م الى عام 1939م كان مجموع القصائد والمقطوعات 05 .

ثانيا :- من عام 1940م الى عام 1949م كانت المحصلة كما يلي :

ا - جميع القصائد والمقطوعات المؤرخة في ديوان " الاصائل والاسحار"

ب - جميع القصائد والمقطوعات المؤرخة في ديوان " أفراح الربيع"

ج - جميع القصائد والمقطوعات المؤرخة في" ديوان ابتسام الضحى " باستثناء أربع .

د - ثلاث عشرة قصيدة و مقطوعة من مجموع عشرين قصيدة و مقطوعة يضمها ديوان " حيفا في سواد العيون " .

هـ - ثماني قصائد و مقطوعات من مجموع ثلاث عشرة قصيدة و مقطوعة يضمها " ديوان " لفلسطين أغني" .

و - تسع قصائد و مقطوعات من مجموع ست عشرة قصيدة و مقطوعة يضمها ديوان " ظلال الجمال " .

ز - احدى عشرة قصيدة و مقطوعة من أربع عشرة قصيدة و مقطوعة يضمها ديوان " الانهر الظمأى " .

ثالثا : - من عام 1950م الى عام 1959م كانت المحصلة كما يلي :

ا - سبع قصائد و مقطوعات في ديوان " حيفا في سواد العيون "

ب - خمس قصائد في ديوان " ظلال الجمال "

ج ـ أربع قصائد في ديوان " لفلسطين أغني "

د ـ قصيدة واحدة في ديوان " الانهر الظمأى "

رابعا :ـ من عام 1960م الى عام 1969م كانت المحصلة كما يلي :

ا ـ قصيدة واحدة في ديوان " لفلسطين أغني"

ب ـ قصيدة واحدة في ديوان " الانهر الظمأى "

خامسا : ـ من عام 1970م الى عام 1980م كانت المحصلة كما يلي :

ا ـ قصيدتان في ديوان " لفلسطين أغني"

ب ـ قصيدة واحدة في ديوان " الانهر الظمأى "

ج ـ قصيدة واحدة في ديوان" ظلال الجمال"

يضاف الى ذلك ثلاث قصائد ما زالت مخطوطة وهي :

" ريحانة العاصي" ، " تل الزعتر" ، " القنيطرة " المدمرة "

نستنتج مما سبق أن أخصب فترة شعرية في حياة البحيري كانت بين عام 1940م وعام 1949م ، أما بالنسبة للسنوات اللاحقة فقد بدأ هذا الزخم يضعف عما كان عليه ، بحيث لم يقل الشاعر طوال عشرين سنة ، بين عام 1960م وعام 1980م غير تسع قصائد منها ثلاث ما زالت مخطوطة . وأستثني من هذا الحكم ديوان " تبارك الرحمن" ، لأن قصائده جميعا غير مؤرخة . وأرجح أن عددا كبيرا من قصائد هذا الديوان قيل بعد النكبة الفلسطينية .

ومع ذلك فان عطاء البحيري الشعري يبقى دون المعدل الذي اندفع فيه بين عامي 1940م و 1949م .

وفي تقديري أن السبب في قلة القصائد يعود الى أن الشاعر اصبح مشغولا بأعماله في الاذاعة ، كما اصبح مشغولا بالتدريس في عدد من المدارس ، وأمور كهذه لم يهيأ لها البحيري ، وقد أرهقته اعدادا وتحضيرا .

وهناك سبب آخر اعتقد أنه في غاية الأهمية ، وهو أن الشاعر عندما أُخرج من فلسطين عام 1948م فقد جنته في حضن جبل الكرمل ، هذا الجبل الذي كان مصدرا مهما من مصادر الهامه الشعري ، كما كان أفضل مكان يوفر له الجو الشاعري وهيهات أن يتوفر للبحيري شبيه له أو مثيل .

- الخـــــاتمــــة

البحيري ظاهـرة نادرة في دنيا الأدب والأدباء ، وهو دليـــل على أن الموهبة الأصيلة قادرة على تخطي الحواجز والعقبات مهما كان نوعها . ولست ادري كيف كان من الممكن أن يكون عطاء البحيري الشعري ، لو اتيحت له في صباه حياة هانئة ، وتعهدته في شبابه يد قادته الى معارج الثقافة والعلــم .

ان شاعرنا هذبته نفسه ، وهدته فطرته السليمة الى اختيار الدرب الصحيح ، وكانت موهبته واستعداده الفطري خير دليل ومرشد . واستطاع - معتمدا على ذاته - أن يثقف نفسه ويرفع مستواه .

ان شعر البحيري باغراضه المختلفة تقف وراءه شخصية مفتاحها الصدق والاخلاص والاتقان . وجدير بمن يتناول البحيري أن يدرسه على هذا الاساس ، فهو في حبه ينصهر من شدة الوجد ، ويتعبد في رحاب المحبوبة ، ويراها بقداستها وهالتها الجميلة على نحو فريد . وما هذا الا ضرب من ضروب الاخلاص ، وهو الدليل على أن شاعرنا لا يلهو في حبه ، بل هو يحب الحبيبة حبا يأخذ بمجامع قلبه وعقله .

وهو عاشق للطبيعة الى درجة التلاشي فيها ، ويعود ذلك الى أن البحيري يتجسد في المشاهد الطبيعية التي يتحدث عنها .

ان علاقة البحيري بالطبيعة علاقة قل أن نجد لها شبيها عند أحد من الشعراء ، فهي مصدر سعادته في دنياه الشقية ، وهي أجمل صورة انطبعت في خاطره في سنوات طفولته وشبابه كما أن بيته الكائن في جبل الكرمل ذي الطبيعة الخلابة ، جعل الطبيعة مسكنا له ، فهو يفتح عينيه في الصباح على مناظرها ويمسي على مشاهدها ، وتبقى صورها عالقة في ذهنه فيحلم بها أحيانا . وبسبب ذلك كله أبدع البحيري في شعر الطبيعة بحيث لا نجد بين الشعراء الفلسطينيين المعاصرين من يوازيه في هذا المجال .

ان الطبيعة تشكل الأرضية لشعر الحب والطبيعة والشعر الديني ، بل انها تشكل أرضية عدد من القصائد في شعره الوطني والقومي . ولأن الطبيعة عنده كذلك فاننا نلاحظ مدى ابداعه وهو يستنطق الطبيعة في شعره الديني مدللا على عظمة الله وبديع خلقه ، على نحو قل أن نجد له مثيلا .

ونعود الى الصدق والاخلاص ، وهو مفتاح شخصية البحيري لنقول : انه المفتاح الذي نلج به أبواب الشعر الوطني والقومي حيث يعكس من خلاله حبه لوطنه وأمته .

ان هذا الحب لا يكفي فهو يقدم نفسه قربانا لوطنه . وما فدائية الشاعر الا مظهر من مظاهر الصدق والاخلاص عند هذه الشخصية التي لا تتعامل مع أنصاف الانتماء .

والصدق نفسه هو عنوان الشعر الديني، حيث أن هذا الشعر نوع من العبادة والتبتل والتفكر في خلق السموات والأرض .

اننا نجد صفة الاخلاص تترجم الى الاتقان في العمل وهذا ما نجده في دواوينه التي أعطاها من العناية والاهتمام مالا نجده الا عند الصفوة من شعراء العصر الحديث . ولما كان شعر البحيري قطعة منه ، بل هو البحيري مكتوبا على الورق، كان من طبيعة الأشياء أن تنعكس صفة الاخلاص والاتقان على شعره - وهو أعز ما لديه - ضبطا واخراجا . ولست أرى أبلغ من الاستدلال بقول البحيري ردا على الكاتب مصطفى عكرمة الذي حاول أن يثنيه عن اتلاف ملزمة لأحد دواوينه بالآفها العديدة بسبب خطأ مطبعي : " أنت تعلم انني لا ولد لي ولا زوج، وان هذا الديوان بمثابة ولدي وأشطره بمثابة جوارح ولدي ، فكيف تريدني أن أتركه في ولدي ما أكره . ؟ "1"

ومما يلفت النظر في دراسة البحيري ذلك الفارق الكبير في زخم العطاء الشعري قبل النكبة وبعدها . فالسنوات العشر

1- مجلة الشبيبة الفلسطينية العدد 12 ابريل 1974م - دمشق -

التي سبقت النكبة هي أخصب فترة شعرية عنده ، حيث لم يكن هناك من الأعمال ما يثقل ذهنه ، ولكن عمل الشاعر في الاذاعة ومراقبة البرامج فيها طوال ثلاثين سنة بعد النكبة الفلسطينية ، بالاضافة الى تعليمه في بعض المدارس سبب له ارهاقا ، وأخذ من وقته الكثير . فاذا عرفنا أن شاعرنا لم يتعلم في المدارس والجامعات بحيث يكون مؤهلا لمثل هذا العمل ، فلنا أن نتصور كم بذل من الجهد وهو يبحث في بطون الكتب والمعاجم ، حتى لا يظهر أمام الآخرين بمظهر العاجز . وقد استمر في عمله حتى أشاد به كل من عرفه ، لكن هذا الاتقان كان على حساب شعره وابداعه ونوعية اطلاعه ، فالشاعر يجب أن يطلع على ما يختاره ، لا أن يطلع على ما يلزمه الاطلاع عليه من أجل بلوغ الكمال في منصب اختارته له المصادفات .

ان الدارسين يميلون الى القول بأن الفترة التي قضاها الشاعر أحمد شوقي في القصر كانت نعمة عليه ونقمة على الأدب ، كما كانت كذلك السنوات التي أمضاها الشاعر حافظ ابراهيم مديرا لدار الكتب المصرية . وبالمقياس نفسه - مع الفارق النسبي - فاني أرى أن العقود الثلاثة التي عمل فيها البحيري في دار الاذاعة السورية ، مشغولا ببرامجها مقيدا بدوامها ، كانت نقمة على أدبه على الرغم من أنها وفرت له لقمة العيش .

ان هذه الحقيقة قد غابت عمن تعرضوا للبحيري بالدراسة ، وقد اتضحت لي من خلال جدول تاريخي لقصائد البحيري كشف هذا الجانب بوضوح .

ومن الأمور التي تتضح للدارس ،أن الشعر عند البحيري نتاج معاناة وتجربة ، وأن شخصيته تبدو واضحة كل الوضوح في أغراضه الشعرية . وقد تمكن البحيري - بأصالة وابداع - من التعبير عن أغراض شعره بالأسلوبين : الرومانسي والكلاسيكي المجدد ، فهو في شعر الحب والطبيعة والشعر الديني تغلب عليه رومانسيته ، بينما يغلب الطابع الكلاسيكي على شعره الوطني والقومي .

وقد خالفت آراء من ذهبوا الى تنكر البحيري لرومانسيته في كهولته وشيخوخته ، وأثبت ذلك بالأدلة والشواهد . وفي تقديري أن الحالة الشعورية التي تهيمن على البحيري وقت ابداع القصيدة هي التي تتحكم في الأسلوب الذي ينتهجه .

وقد استلهم شاعرنا معجمه الشعري من الطبيعة الفلسطينية الساحرة ، ومن تراث الأمة التليد . وقد

وفق في اختيار الكلمات والعبارات المعبرة عن المضامين والصور ، فصاغها بأسلوب يحمل طابعه ويميزه عن غيره .

وقد خالفت في هذا البحث من يتهم البحيري بالانزواء والبعد عن حركة الجماهير ، وأثبت بالأدلة أنه كان وما يزال متفاعلا مع أحداث وطنه وأمته . ولا يخفى ذلك على من عايشه وتعمق في دراسة شعره .

ويبقى البحيري مهما اختلفت فيه الآراء معلما من معالم حيفا ، وشاعرا من أبرز شعراء فلسطين فنا والتزاما .

المصادر والمراجع

المصادر :

أ - دواوين البحيري

1- الاصائل والاسحار : نشره نادي انصار الفضيلة بحيفا ، وطبع في شركة فن الطباعة بشبرا - القاهرة عام 1943م .

2- أفراح الربيع : نشره محمد احمد حجازي بحيفا ، وطبع في شركة فن الطباعة بشبرا - القاهرة عام 1944م .

3- ابتسام الضحى : نشره صندوق الأمة العربي بحيفا ، وطبع في شركة فن الطباعة بشبرا - القاهرة عام 1946م .

4- حيفا في سواد العيون : طبع في مطابع أوفست العلم بدمشق عام 1973م .

5- فلسطين أغني : طبع في مطابع أوفست دار الحياة بدمشق عام 1979م .

6- ظلال الجمال : طبع في مطابع أوفست دار الحياة بدمشق عام 1981م .

7- الانهر الظمأى : طبع في مطابع أوفست دار الحياة بدمشق عام 1982م

8- تبارك الرحمن : طبع بدار الفكر بدمشق عام 1983م .

9- الوجوبيات : مجموعة شعرية مخطوطة .

10- أحلام البحيرة : ديوان شعر منشور - مخطوط .

ب - دواوين شعراء آخرين

1- فجر العروبة : محمد العدناني - المكتبة العصرية - صيدا بيروت عام 1960م .

2- الوثوب : محمد العدناني - المكتبة العصرية - صيدا بيروت عام 1965م .

3- ديوان ابي القاسم الشابي : دراسة وتقديم الدكتور عز الدين اسماعيل دار العودة بيروت عام 1972م .

4- ديوان ابي سلمى (عبد الكريم الكرمي) : دار العودة بيروت - عام 1978م .

5- ديوان ابراهيم طوقان : مطبعة دار الشرق الجديد - بيروت - عام 1955م .

المـــــراجــــع :

1- د . ابراهيم ابو لغد تهويد فلسطيـــن
ترجمة د . أسعد رزوق - الناشر رابطة الاجتماعيين
بالكويت ، و مركز الابحاث بمنظمة التحرير الفلسطينية بيروت
عـام 1972م .

2- د . احمد الحوفي الاســلام في شعـر ة شوقــي
مطابع الاهرام التجارية - القاهرة - عام 1972م .

3- د . ألمن تايلور تـاريخ الحركة الصهيونيـــة
ترجمة بسام ابو غزالة - دار الطليعة - بيروت - ط1
عـام 1966م .

4- د . بدوي طبانة التيارات المعاصرة في النقد الادبي
مطبعة لجنة البيان العربي ط1 عـام 1963م .

5- د . جودت الركابي في الادب الاندلسي
دار المعارف بمصر - عام 1960م .

6- حنا الفاخوري تـاريخ الادب العربي
المطبعة البوليسية - ط6 - بيروت .

7- د روبين أنفرامـز أوراق فلسطين
دار النهار للنشر - بيروت - عام 1972م .

8- د . صالح خرفي — الشعر الجزائري

مطابع الشروق - بيروت - الناشر الشركة الوطنية للنشر والتوزيع بالجزائر .

9- صالح مسعود ابو يصير — جهاد شعب فلسطين

دار الفتح للطباعة والنشر - بيروت- ط3 عام 1970م .

10- صبحي ياسين — طريق العودة الى فلسطين

مطبعة الحرية - القاهرة - عام 1960 م .

11- د . عبد الرحمن الكيالي — الشعر الفلسطيني في نكبة فلسطين

المؤسسة العربية للدراسات والنشر ط1 - بيروت - عام 1975 م .

12- عبد الرحمن الكواكبي — طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد

المطبعة العصرية - حلب - عام 1957 م .

13- د . عبد الرحمن ياغي — حياة الادب الفلسطيني الحديث من اول النكبة حتى النهضة

المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت- عام1968م .

14- عبد السميع الهراوي — الصهيونية بين الدين والسياسة

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب - عام 1977م .

15- د . عبد الوهاب الكيالي — تاريخ فلسطين الحديث

المؤسسة العربية للدراسات والنشر ط3 -بيروت عام1973م .

16-عز الدين المناصرة الفن التشكيلي الفلسطيني من 1927م-1975م.
منشورات فلسطين الثورة - نوفمبر عام 1975م.

17-عمر الدقاق الاتجاه القومي في الشعر العربي الحديث
دار الشرق - حلب - ط2 - عام 1963م.

18- د. كامل السوافيري الشعر العربي الحديث في مأساة فلسطين
مكتبة نهضة مصر ط1 عام 1964م.

19- د. كامل السوافيري الاتجاهات الفنية في الشعر الفلسطيني المعاصر
مكتبة الانجلو المصرية - القاهرة - ط1 - عام 1973م.

20- د. كامل محمود خله فلسطين والانتداب البريطاني
منظمة التحرير الفلسطينية مركز الابحاث - بيروت - عام 1974م.

21- محمد حافظ يعقوب نظرة جديدة الى تاريخ القضية الفلسطينية
دار الطليعة - بيروت - ط1 عام 1973م.

22- د. محمد الصادق عفيفي النقد التطبيقي والموازنات
مكتبة الوحدة العربية - الدار البيضاء - عام 1972م.

23- د. محمد غنيمي هلال النقد الادبي الحديث
دار و مطابع الشعب - القاهرة - الناشر دار النهضة
العربية - ط3 - عام 1964م.

24- د. محمد مصايف دراسات في النقد و الادب
الشركة الوطنية للنشر والتوزيع - الجزائر - عام 1981م.

25- محمد نمر الخطيب   من أثر النكبة

المطبعة العمومية - دمشق - ط1 عام 1951م.

26- مصطفى مراد الدباغ   بلادنا فلسطين

الجزء الاول - القسم الاول - منشورات دار الطليعة

بيروت - ط2 - عام 1973م.

27- د. ناصر الدين الاسد   محاضرات في الشعر الحديث في فلسطين والاردن

مطبعة لجنة البيان العربي - القاهرة - عام 1961م.

28- نبيل بدران   التصايم والتحديث في المجتمع العربي الفلسطيني
الجزء الاول : عهد الانتداب

الناشر منظمة التحرير الفلسطينية - مركز الابحاث - بيروت

عام 1969م.

29- نجيب العفيفي   من الأدب المقارن

مكتبة الانجلو المصرية - الجزء الثاني - ط3 عام 1976م.

30- هارون هاشم رشيد   مدينة وشاعر : حيفا والبحيري

مطبعة دار الحياة - ط1 - دمشق - عام 1975م.

31- د. واصف أبو الشباب   شخصية الفلسطيني في الشعر الفلسطيني المعاصر

دار العودة - بيروت - ط1 - عام 1981م.

32- يعقوب العودات (البدوي الملثم)   اعلام الفكر والادب في فلسطين

جمعية عمال المطابع التعاونية - عمان - عام 1976م.

33- المنجد في اللغة والادب والعلوم

المطبعة الكاثوليكية ط 17 - بيروت - عام 1960م.

34- دراسات فلسطينية

الناشر جمعية الخريجين الكويتية والاتحاد العام

لطلبة فلسطين . وهي دراسات القيت في ندوة فلسطين

العالمية الثانية بالكويت من 13- 17 فبراير عام 1971م.

35- الجوهر الرجعي للصهيونية

مترجم الى العربية - دار التقدم موسكو- عام 1975م.

36- فلسطين الموقع ومظاهر السطح

الناشر منظمة التحرير الفلسطينية مركز التخطيط ط 2

- بيروت عام 1979م.

المجـــــلات والجـــــرا ئــــــد

1- مجلة الاذاعة والتلفزيون - القاهرة - العدد 2182 - يناير عام 1977م.

2- مجلة شؤون فلسطينية - مركز الابحاث في منظمة التحرير الفلسطينية- بيروت
العدد 125 - أبريل عام 1982م.

3- مجلة الطلائع - دمشق - العدد 165 - 3 سبتمبر عام 1973م.

4- مجلة الطلائع - دمشق - العدد 334 - 1977/04/19م.

5- مجلة الحرية - بيروت - العدد 2/83 يونيو عام 1983م.

6- مجلة الشبيبة الفلسطينية - دمشق - السنة الثانية العدد 12 ابريل 1974م.

7- مجلة فلسطين المحتلة - بيروت - العدد 283 - 23 مارس عام 1981م.

8- مجلة التحرير - ملحق اسبوعي لمجلة الثقافة - العدد 14 - 15يناير
عام 1974م - دمشق -.

9- مجلة الثقافة الاسبوعية - دمشق - العدد 33 - آب عام 1974م
الرقم المتسلسل 506 .

10- جريدة الوحدة - ابوظبي - 1980/10/12م.

11- جريدة الرأي الاردنية - عمان - الاعداد 3559-3566-3573-
3580-3587- الصادرة بتاريخ 25/01/ -
01/02/-08/02-15/02-22/02/-1980م.
على الترتيب

الفهـــــــرس

الموضوع	الصفحة

الباب الثاني

الموضوع	الصفحة
الفصل الرابع : الشعر القومي	228-195
أ- الاشادة بالأمة العربية وأمجادها	198
ب - تقاعس العرب عن حقوقهم	204
ج - شحذ العزائم والتحريض على القتال	213
د - الوحدة العربية	219
الفصل الخامس : الشعر الديني	263-229
الشعر الديني التأملي	245
الباب الثالث	
دراسة فنية	340-264
الفصل الاول / منهج البحيري في شعره	305-264
الفصل الثاني : الخصائص الفنية لشعر البحيري	340-306
جدول تاريخي لقصائد البحيري	341
الخاتمة	359
المصادر والمراجع	365
الفهرس	373